

تيم ماكنتوش - سميث

حجر الدم

ترجمه عن الإنكليزية: عماد الأحمد



الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة
(فرع الرحلة المترجمة 2024)



مكتبة المتوسط

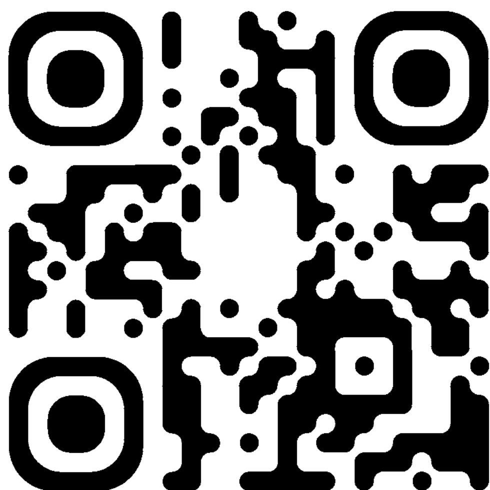


إهداء لمن ..

لم يعرفوا الرحلات سوى في الكتب

سَفرهم في سِفرهم

حجر الدم



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

المؤلف: تيم ماكنتوش - سميث / المترجم: عماد الأحمد / عنوان الكتاب: حجر الدم
الطبعة الأولى: 2024 / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480 / الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 0097126447474 / فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

ISBN: 979-12-5591-060-2



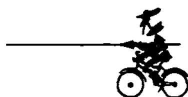
منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

تيم ماكنتوش - سميث

حجر الدم

ترجمه عن الإنكليزية: عماد الأحمد



الكتاب الفائز بجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة
(فرع الرحلة المترجمة 2024)

المتوسط

استهلال

مكتبة
t.me/soramnqraa

تَفتح هذه السلسلة نافذة على يوميات، كتبها رحّالة أجانب، وتأتي في سياق مشروع «ارتياد الآفاق» الذي شكّل، أساساً، تحدِّياً لإمكانات الكتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزاً لكتابة أدب اليوميات، إن في فضاء السفر أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم والمنفيِّين منها بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحرّيات.

وقد حضّت هذه الجائزة، الأولى والفريدة من نوعها في الثقافة العربية، الكتّاب العرب على استئناف مغامرة الكتابة والترجمة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضموراً واختفاء على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقاربته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إن من خلال منشورات «المركز العربي للأدب الجغرافي-ارتياد الآفاق» أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة نوسِّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالاً ونشراً، بما يتعدّى النصوص المكتوبة بالعربية إلى ما هو أبعد وأوسع، نباشر نشرها بالتعاون مع «دار المتوسّط-ميلانو» بوصفها مشروعاً جديداً وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويعبِّر، في كثير من منشوراته، عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحرّة والتفكير الحرّ، ويشترك مع «مشروع ارتياد الآفاق» خصوصاً في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية بين ضفَّتي المتوسّط، وهو ما يُمكِّن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية

على العالم وثقافاته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكتَّاب العرب الذين لا يَعتبرون أنفسهم قارَّة منعزلة، ولا يرون حاضراً لثقافتهم من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصاً في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهراً لها ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلُّعاتهم الثقافية جزءاً أساسياً من تطلُّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسِّط.

***

شكَّل أدب اليوميات عماد مشروع «ارتياد الآفاق» الذي يُعتبر، اليوم، مشروعاً فريداً من نوعه في الثقافة العربية، لكونه اعتَبر أن أدب السفر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهمّ والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى.

ولطالما نظرنا إلى يوميات الرَّحَّالة بوصفها مدوّنات، تشكِّل وثائق أدبية وتاريخية معاً، وهي لوحات فنِّية مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيَّاضة، وخواطر وانطباعات ترصد المرئيات، وغالباً ما تُثري القرَّاء بحدس شاعري وابتكار فنِّي وجمال في التعبير، عبر خيال يعانق الواقع ويُوقِظ الذاكرة، فيأتي بالممتِع والمدهِش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة، وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلَّا بالأدب، وقد استنفد التسجيل والتصوير المباشر غايتهما، ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنَّانين أكثر منهم مدوِّني وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة الناس والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حَيَّة عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

***

نبَّهنا مراراً خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حقَّقنا ونشرناه من كُتُب اليوميات والرحلات إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق السفر والإقامة، والأفكار التي تسرَّبت عبر سطور الكتَّاب، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميات، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومَخزَناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادَّة سرديّة مشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهِش ممَّا التقطته عيونٌ تتجوَّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

محمَّد أحمد السويدي

إلى عبد الوهّاب وأشواق وشيماء ومحمّد وشذى ورقية وغيداء وأمّ محمّد

أوّل مَن سمع هذه الحكاية

الشخصيات الرئيسة

سِنَان، عبد أسود مرافق لأبي عبد الله

أبو عبد الله بن بَطُّوطَة الطَّنجِي، قاضٍ ورحَّالة سابق

في إِشبِيلِيَة

"**البرميخو**"، محمّد بن إسماعيل، السلطان محمّد السادس ملك غَرنَاطَة (والذي اغتصب السلطة).

دون بِدرو، ملك قَشتَالَة، الملقّب بـ"القاسي" أو "العادل" أو "العاتي".

إبراهيم بن زَرزَر، طبيب مقرَّب من دون بِدرو حاكم إِشبِيلِيَة.

سليمان الإشبيلي، تاجر أحجار كريمة

كريستوبال المغربي، صائغ في إِشبِيلِيَة

في غَرنَاطَة

لسان الدين بن الخطيب، وزير غَرنَاطَة

علي الخيميائي، عالمٌ وفاسقٌ

لبنى قَينَة (جارية مغنّية) ومحظيّة علي الخيميائي

الرقيب حميد من الحَرَس المملوكي

ابن زَمرَك كاتب سرّ سلطان غَرنَاطَة

زيد، صاحب الأشغال بقصر الحمراء

أمّ أحمد، عجوز شمطاء

صاحب الليل، متولّي شرطة غَرنَاطَة

السلطان محمّد بن يُوسُف، السلطان محمّد الخامس ملك غَرنَاطَة

السِّباع

ليث زعيم جماعة السِّباع (مجموعة من المتآمرين)

ضِرغام

حَطّام

صارم

حيدر

جسّاس

توطئة

قربَ آثارِ إيتاليكا في منطقة إِشبِيلِيَة، 29 جمادى الثانية 763 للهجرة (25 نيسان/ أبريل 1362)

أدركَ أنّ أجلَهُ قد حان، هنا والآن، فَقَاتِلُه المسيحيُّ كان وراءَه.

واصلَ مسيره محدّقاً في الفراغ المتلألِئ أمامَهُ، مُحصِياً اللحظاتِ المتبقّيةِ من حياتِهِ بدقّات القلب التي لم يسمع سواها في قَيظِ الصباحِ الحارقِ مع صريرِ جلد السَّرج وهبوطِ حافرِ الدابّة المكتوم على التراب. ويا لها من دابّة: حمار يمتطيه سلطان! وابتسَمَ ابتسامَتَهُ الأخيرة. كانت هذه العباءة القِرمِزِيَّة بمثابة كَفَنٍ جنائزيٍّ مناسب له على الأقلّ، لمحمّد بن إسماعيل، سلطان غَرنَاطَة، أَمير المسلمين.

أطلقَ عليه قاتلُه الملك الشابّ لقبَ *"البرميخو El Bermejo"*، أي الأحمر. عباءةٌ حمراء وشَعرٌ أحمر ولحيةٌ حمراء. أمّا في الكيس الذي التفّ حول رقبته، فكان هناك شيءٌ أكثر احمراراً، أكثرُ من دمِهِ الذي سيُراقُ قريباً. أحسَّ ببرودة ذلك الشيء وهو يطرقُ صدرَهُ بلا هوادة.

وانبثقَ السؤال: مَن سيغسلُهُ ويصلّي عليهِ ويدفنُهُ؟ لا أحد. سوف يُطعَن حتّى الموت ويُعلَّق على خشبة، لينتصب هناك بمثابة عبرة للمُعتبِرين.

غرّدَت قُبَّرَةٌ وهي تحلّق عالياً في السّماءِ فوقَ السَّهل.

ثمّ اقتربت أخيراً الضربات القوية الجافّة للحوافر، فالتَفَتَ لمواجهَتِها.

ضَرَبَهُ الموتُ في عَظَمَة الصّدرِ برأس رمح الملك بِدرو.

لم يشعر بالألم. بل انهار كلُّ شيءٍ من حولِه وحسب، وانقلبت سماءُ الرّبيع رأساً على عقب.

افترَّ وجهُ بِدرو بعينَيه الزرقاوَين الباردتَين عن ابتسامة. "ولا غالبَ إلّا الله، يا بيرميخو؟" "أليس هذا شعارُ العائلة؟" ضَحِكَ الملكُ الشابُّ ورَكَلَهُ في رأسِه.

سمعَ صوتاً يقول: "هذا .. كثيرٌ ... على الفروسية ... المسيحية"، وكان ذلك الصوت صوتَهُ. تلاشى الألم، ولكنّه كان يدركُ أنه راحل.

قال بِدرو دون أن تفارقه ابتسامته: "لحظة، وسآخذ هذه أيضاً"، ومدَّ يدَهُ إلى الأسفل لينتزعَ عن رقَبَتِهِ الكيسَ الملطَّخَ بالدماء "كتعويض، لإفساد علاقتي مع مملكة أرغون".

رأى بِدرو يسحب الحجر من الكيس الذي يقطرُ دماً ويقلّبه تحت زرقة السماء: تقطّرَ الحجرُ دماً قِرمزيّاً، أكثر احمراراً من أيّ شيء آخر في الخليقة. أراد فتحَ فمِهِ ليُحذّرهُ من أنه حجرٌ ملعون. لقد أراد أن يموتَ وهو يرى خوفَ بِدرو في عينَيه، وليس ابتسامَتَه. ولكن الكلمات لم تُطِعه.

لا يهمّ. سيكتشفُ بِدرو أمر الياقوتة في الوقت المناسب. كما فعلَ هو، وكما فعلَ مَن قبلُه.

ثمّ تحوَّلَ كلُّ شيءٍ إلى اللون الأحمر ولم يعد يدركُ شيئاً، ولا حتّى عندما جاؤوا وأجهزوا عليه.

الفصل الأوّل

قصر الحمراء، غَرنَاطَة، 22 صفر 770 للهجرة (5 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1368)

صَعِدَ الرجال الثلاثة الطريق صامتين. جالَ سِنَان ببصره إلى الأعلى في ضوء الظَّهيرة الحارق، فلمحَ الحصون والأسوار تعانقُ عَنانَ السماء. امتدّ الطريق أمامهم إلى الأعلى وأثار انتباهَهُ انبثاقُ الأبراجِ من جدارٍ من جرفٍ أحمرَ اللون، بدا وكأنه لا قرار له. فكّر بالحكواتيّين والقصّاصِين في وطنه على الجانب الآخر من المضيق، وتذكَّرَ مدينة النحاس الأسطورية التي تحدّثوا عنها. تضاهي هذه المدينة تلك المدينة النحاسية بالروعة: تجثُمُ هناك قلعةٌ حديديةٌ ممتدّة إلى الأسفل على جبين التلّ أشبه بتاجٍ صدئ. وتساءَلَ في نفسه عمّا يكمنُ في داخلها. أخيراً همسَ سِنَان للرجلِ القصير النحيف بجانبه: "هل سيُعيّنُك صديقُكَ وزيراً، يا مولاي؟" وألقى نظرةً على الشخص الذي يمشي متثاقلاً أمامَهُمَا دون أن يستطيع سماعَهما. غمغمَ أبو عبد الله بصوتٍ خافتٍ "من الأفضل له أن يفعلَ وإلّا .. الحمد لله على كلِّ حالٍ، يا سِنَان، ولكنكَ تعلمُ مثليَ الظروفَ التي نمرُّ بها". غارتِ التجاعيدُ على وجهه العَفصِي الأسمر وعبَس: "إن لم نعثر على إناءٍ من الذهب القوطي، فلن يتبقّى لنا من أملٍ سوى أُعطِيَةِ الوزير إذا ما أردنا سَدادَ ديوننا".

غاصَ أبو عبد الله في أفكاره وهو يحدّقُ في قلعة القصر مثل سِنجَابٍ

يمسحُ بعينَيه غابةً من الأشجار الكَثّة البِكرِ، متأمّلاً الامتيازات الأخرى للمناصب العليا: الألقاب والأثواب والإقطاعيات والسّفارات إلى الأراضي البعيدة ... ومكانة اجتماعية عُليا لم يكن أسلافه المغاربةُ المتواضعون يحلُمون بتسلّقها حتّى. وقد ظهر اسم أبي عبد الله بالفعل، مُطعّماً بالزواج، في شجراتِ العائلاتِ الحاكمة في ساحل قُرمَندِل وجُزُر المالديف. لقد حَظِيَ في أيّام التَّرحَالِ الخوالي، قبل أن يعانِدَهُ حظُّهُ، بزوجاتٍ من أُسَرٍ مَلَكيّةٍ ثمّ طلّقهنَّ، وكان يلعبُ الشطرنج مع السلاطين ويهزِمُهُم، وانخرطَ في ألعاب الانقلابات والانقلابات المضادّة الأكثر خطورةً، واحتفظَ برأسِهِ بين كتفَيهِ في الوقت الذي أُطيح فيه برؤوسِ الكثيرين من حولِه. لن يُسدّدَ منصبُه كوزير في مجلس وزراء غَرنَاطَة التابعِ للسلطان، ديونَه فحسب، بل سيكون بمثابةِ قيامةٍ جديدةٍ لمسيرتِهِ المهنيةِ وحياتِه، وحتّى لجسده ... لقد غاب جسده عن ذهنِهِ تماماً، حتّى تذكّرَهُ دونَ سابقِ إنذارٍ البارحة عندما رأى الصدمة على وجه صديقه القديم، لأنهُ لم يكن من المفترَضِ أن يكون هنا بأيّ حالٍ من الأحوال، أو لا يفترض به في الواقع أن يكونَ في أيّ مكانٍ على وجهِ الأرض.

قال أبو عبد الله لنفسه مبتسماً، نعم: سوف *أُبعَثُ* من جديد. وأعادت هذه الصورة إلى ذهنِهِ إحدى المزايا الأخرى للحياة الراقية ... وتدفَّقَ سيلٌ من النساء في ثنايا ذاكرته: اليونانياتُ والتركيات والمغوليات والتاميل والمراثيات، البيضاوات والداكنات والجميلات والممسّكات والمحظيّاتُ في العديدِ من الأَسِرّةِ التي يتذكّرُها جيّداً. وقال لنفسه: يا للغرابة: *لقد وُلدتُ على الجانبِ الآخرِ من المضيق على مشارفِ إسبانيا، ولم أحظَ بفتاةٍ إسبانية. لقد حظيتُ بأنواع النساء كلّهنّ إلّا الإسبانيّة.*

اقتحَمَ سِنَان عليهِ سيلَ أفكارِه: "مولاي، سوف تَبرُّ بوعدِكَ عندما تصبحُ وزيراً، أليس كذلك؟"

"ماذا قلتَ؟ نعم، طبعاً ... يا سِنَان، مَن غيرُكَ يمكنُ أن يكونَ كاتب سرّي؟"

مَن غيرُهُ بالفعل؟ ربّما كانَ سِنَان عبداً مملوكاً لأبي عبد الله، ولكنه كان السيّدَ والآمرَ الحقيقيّ والناهي على حياةِ الرجل العجوز، فهو الذي أنقذ تلك الحياة في أثناء الفوضى والأحداثِ الدامِية التي شَهِدَتها فاس في عام اثنَين وستِّين ...

تَبِعَا مضيفَهُما في منعطفٍ آخرَ في الطريق، وواجهتهم بَوَّابة عظيمة. حدّقَ سِنَان في البَوَّابة وسرَت رعشةٌ في عمودِهِ الفِقرِيّ.

بدا المنظر للوهلة الأولى كجزء من التصميم المعماري، أو كما لو أنه قطعة زخرفية أعلى البَوَّابة. ولكن، لا، كانت تلك رؤوس، رؤوس بشرية. ولم تكن تلك الرؤوسُ مثبّتةً على جُثث أصحابها، بل كانت مثبّتةً على الأعمدة.

تفرّسَ وزيرُ غرناطَة لسانُ الدين بها، وتَنَحنَحَ ثمّ قال:

في غـير حفـظ اللـه مـن هامـة
هـام بهـا الشـيطان في كلّ واد
مـا خلفـت ذكـراً ولا رحمـة
في فـم إنسـان ولا في فـؤاد

طوى ذراعَيه المتلألئتَين بكُمَّين مطرَّزَين على بطن ثوبه المنعَّم بالديباج، وبقيتِ الكلمات معلَّقة ثقيلة في هواء الظَّهيرة. "رغم أن هذا رأيي الشخصي الذي أقوله لنفسي، ولكن، ألَا تريان معي أن البيت الأخير على وجه الخصوص مميَّزٌ وغايةٌ في البلاغة؟"

لم يكن هذا سؤالاً. ولم يَنبِس أبو عبد الله، الذي كان أصغر حجماً وأقلّ بهاءً ببرنسه ذي القَلَنسُوَة من الوزير، ببنتِ شَفة. واصلَ التحديقَ في صفِّ الرؤوس. شكّلتِ التكشيراتُ الميّتة منذ زمنٍ طويلٍ مجرّد إضافةٍ

عبثيةٍ للمشغولاتِ الحجريّة الحادَّة لبَوَّابة قصر الحمراء الرئيسة. انحرفَ أحدُ الرؤوسِ إلى الأسفل قليلاً، وبدا وكأنه يتلصّصُ على عالمِ الأحياء.

وقال لسان الدين: "نظَمتُ الأبيات لتناسبَ الرأسَ الذي في الوسط. رأس البرميخو ... *El Bermejo*" كرّر سِنَان لنفسه ذلك الاسم الغريب، البرميخو. وتابع الوزير: "أعترفُ أن الرأس لم يَعُد في أفضل حالاته، فقد أمضى هناك أكثرَ من ستّ سنوات، لقد نقرَتهُ الغربان وسوّده تغيّرُ الطقس. ولكنه لا يزال يقوم بمهمّته على أفضل وجه في إخافة المتمرّدين".

"هل لي أن أطرح سؤالاً، يا سيّدي؟"

اندهشَ لسان الدين من رجعِ الكلماتِ المنطوقة بعربيةٍ جميلةٍ، وكأنّه يتساءلُ عن مصدرِ هذه الكلمات. لقد انطلقت الكلمات من العضو الثالث في المجموعة. العبد. ولكن العبيد لا يتكلّمون ... اتّسعت عينا الوزير المسبلَتَين والمظلَّلتَين بالأرقِ المزمن من الدهشةِ كما لم تندهشا منذ فترة طويلة.

اعتبر سِنَان ذلك علامةً على الإذنِ بالكلام. "هل كان مسيحياً، يا سيّدي؟ أعني صاحب الرأس الأوسط سابقاً؟ لقد ميّزتُ بعض آثارِ لحيةٍ حمراء. واسمه يبدو إسبانياً: البرميخو".

تفرّسَ لسان الدين في العبد. وكان الشابّ ما يزال يرتدي بُرنُسَ المسافرين مثل سيِّدِه. وإذا كان قد لاحظَ شيئاً مميّزاً بخصوصِهِ، فهو تلك الحقيقةُ المزعجةُ وغير الشائعة والغريبة تقريباً في غَرنَاطَة منذ الأحداث التي وقَعَت قبلَ أربعة عشر عاماً، حقيقةُ أنه أسوَد. لقد رأى وجهه الآن.

شاهدَ الوزيرُ العديدَ من الرجالِ السودِ خلال سنواتِ منفاهِ في المغرب. ولا بدّ أنه قد رآهُ من قبلُ في بيتِ صديقِهِ أبي عبد الله في تلك الفترة. ولكنَّهُ لم ينظر يوماً إلى السود، لهذا أذهَلَهُ ما رآهُ هذه المرّة: كانت ملامحُ

الرجل مدهشةً ومثاليةً وجميلةً، مثل لغتِه العربية. طبقاتٌ من السَّوادِ الداكنِ محاطةٌ بلحيةٍ داكنة تُخَفِّفُ من حِدّةِ النتوءاتِ الصلبةِ لعظامِ الوجنة. كانت بشرتُه مصقولةً كحجرِ اليَشْبِ ورقيقةً كالمُخَملِ المِصري. والعينان التماعةٌ سائلةٌ من الضوءِ والظلام. ربّما كان عُمرُ العبدِ نصفَ عمرِه، ولكن، حتّى لو كان هذا صحيحاً، ولكنَّ تلك العينَين تبدوان وكأنَّهما تنظرانِ إليهِ من زمنٍ سحيقٍ شاسعٍ ومجهولٍ مثل قارَّتِهِ على الجهة الأخرى من المضيق، فيما وراءَ الصحراء. وللحظةٍ تاهَ لسانُ الدين وزير غَرناطَة، معجزةُ عصرِهِ الأدبيّة.

أعادَهُ نداءُ أحدِ الحرّاسِ على الأسوار، فقالَ لأبي عبد الله: "إنَّ غلامَكَ هذا حادّ البصر".

ابتسمَ أبو عبد الله وقالَ: "عينانِ حادّتانِ وعقلٌ حادّ. واسم حادّ أيضاً!"

قال العبدُ: اسمي سِنَان، يا سيّدي. أي رأسُ الحَربَة ... عذراً، يا سيّدي، فحضرتُكَ لا تحتاجُ إلى أيّ تفسيرٍ وأنتَ مَن أنتَ. التمعَ وجهُ أبي عبد الله وأومأ برأسِهِ، كما يفعلُ المرءُ مع وَلَدِهِ الذكي الذي قال الشيء الصحيح المناسب. وتابعَ سِنَان وهو ينظرُ إلى الرأسِ المعلّق على البَوَّابة: "ولكن، إذا لم أكن مخطئاً، فإن احمرارَ اللحيةِ غير طبيعي. فهي مصبوغةٌ بالحِنّاء. لذا يُحتملُ أن يكون صاحبهُ مسلماً، رغم اسمِهِ الأجنبي".

صاحَ لسان الدين: "يا إلهي، فهمتُ قصدَك، فطنةٌ حادّةٌ مذهلةٌ، خاصّة بالنسبة إلى شخصٍ أسود. أين حظيتَ به؟"

ردَّ أبو عبد الله: "عند أحد منعطفاتِ نهرِ النّيجر، بعد تمُبُكتُو. لقد كان بطول خمسة أشبار، أليس كذلك، يا سِنَان؟ لقد كان هديةَ ضيافةٍ من نائب المَنسَى سليمان إمبراطور مالي.

قال الوزير وهو يهزُّ رأسَهُ الثقيل: "لا يحصلُ هذا إلّا مع شخصٍ مثلكَ، يا صديقي القديم، أنتَ فقط. أيّ شخصٍ آخرَ سيقولُ من سوقِ العبيدِ في فاس".

قال أبو عبد الله فجأةً: نعم. أنا وحسب".

حارَ لسان الدين مجدّداً في كلماتِهِ، فقد نَسِيَ خلال السنواتِ التي مرَّت منذ آخر مرّة رآهُ فيها، مدى تفرُّدِ صديقه المذهل. وهنا سألَ نفسَه، *هل مرّت سبع سنوات بالفعل*؟ لا يبدو *أبو عبد الله* وقد كبر يوماً واحداً حتّى. "إذن، ورداً على فرضية السيّد سِنَان، أستطيع أن أبلغه أن ... ذلك الشيء الموجود على البَوَّابة كان مسلماً بالفعل. أو بالأحرى كان مسلماً نظرياً، ولكنه، في الواقع، من عبّاد الشيطان. لا أستطيع إجبار نفسي على نطق اسمه الحقيقي، لذلك أشير إليه بالاسم الذي أطلقه عليه المسيحيون اسم البرميخو، أي الأحمر، وقد سُمّيَ بهذا الاسم بسبب استخدامه المفرط للحِنّاء كما لاحظتَ، يا سِنَان. قد تتفاجأ أيضاً إن علمتَ أنه كانَ ولفترة، السلطان المغتصِب الذي نصَّبَ نفسَهُ حاكماً لهذه الأرض المباركة".

قال سِنَان: "السلطان؟ كيف ... كيف ذلك، يا سيّدي؟" وبدت ملامحُ السرورِ على وجهِ أبي عبد الله بسؤالِ غلامِه. كان يعرفُ بدايةَ القصّة جيّداً، فقد سمِعَها من فمِ لسانِ الدين في أثناء فترة نفي الوزيرِ في المغرب. أمّا عن نهايتها، فلم تصل سوى شائعات إلى تلك البلدة المغربية المهجورة، حيث قضى هو نفسه السنوات الأخيرة في منفاه الافتراضي.

قال لسان الدين: "نعم، كالعادة. الجشع. الجشع للمال، وللسلطة، ولتلكَ الحليّ المتلألئة كلّها التي تجلبُها السُّلطة والمال". ارتفع أذان الظُّهر من وراء الجدران في الأعلى، وانطلقَ الصوتُ بعيداً عن السهل في الأسفل، ثمّ أصبح أقرب. رفع سِنَان بصره، وتفرّسَ في القلعة العظيمة. "نعم، يا سيّد سِنَان. الجشع، للألقاب والأثواب ... والمَحظِيَّات". ونظر إلى أبي عبد الله الذي كان يعبث بشرَّابةِ بُرنُسِه: "وربّما الطمع والجشع قبل كلّ شيء بذلك الحجر: الياقوتة العظمى".

بدأ السؤال يتشكّل على شفتَي سِنَان، ولكنَّ الوزيرَ استدارَ وقادهما إلى أعلى الطريق نحو فتحةِ البَوَّابة المظلمة.

قال أبو عبد الله عندما اقتربوا من البَوَّابة الواسعة: "عندما كنتُ قاضياً مالكياً في خدمةِ سلطانٍ دلهي في عاصمته، كان لديه طريقٌ ممتدٌّ من الجُثث المُعلّقة، والمتدلّية، والمقطّعة إلى أرباع، والمقطّعة إلى أنصاف، والمقطّعة إلى شرائح، أو أيّ نوع من القطع التي تريدها، والتي كانت تزيّنُ مدخَلَ قصرِه. يا للقرف، لقد كانت تخيفُ الخيول".

أجاب لسان الدين بالتفاتةٍ خفيفةٍ "لقد أخبرتَني بذلك في عدّة مناسبات. وأخبرتَني أيضاً كيف كُنتَ على وشك أن تصبحَ واحداً من تلك الجثث". ابتسم الوزير واحدةً من ابتساماتِهِ النادرة والكئيبة وهو يتصوّر جَسَدَ أبي عبد الله الهزيل متدلّياً تحتَ شمسِ الهند، وابتسامتُه تشعّ حتّى وهو ميّت ... ثمّ تلاشت ابتسامةُ الوزير. لقد ذكّرَتْهُ صورة صديقه وهو ميتٌ بالسؤال الاستثنائي الذي كان عليه أن يطرحه. فأبو عبد الله، الذي كان قد حقّق مسيرة حياته بأكملها من خلال التملّقِ واستجداءِ الخدماتِ والمصالح والمكرُمات، قد بدا الآن وكأنه قد نجح بتملّق الأُعطيةِ الأعظم، أعطيةِ الزمن نفسه.

ولكنّ هذا السؤال يمكنُ أن يُؤجَّل حالياً حتّى يصلا إلى مكانٍ يجلسانِ فيهِ على انفراد، أيّ مكانٍ أكثر ملاءمةً لنقلِ الصدمات. وستكون هناك صدمات ... نظرَ لسان الدين بحذرٍ إلى صديقه، وردَّ أبو عبد الله الابتسامة التي تشي بسرٍّ كبيرٍ مُخزٍ أو محرج. عبروا خطَّ ظلِّ البَوَّابة إلى الظلام.

الفصل الثاني

انطلقَ أذانُ الظُّهر عبر الوادي من قصرِ الحمراء وتردَّدَ صداهُ في أزقّةِ رَبَض البَيَازِين. اخترقت تموّجاتُ الصوتِ الرقيقةِ أعمقَ زوايا الضاحية وأركانها المتربّعة على جانبِ التلّ. لم يسمع علي الخيميائي الأذان، فقد كان يعتبر هذا الصوت مجرّد ضوضاءٍ لا إراديةٍ تُصدِرُها المدينة في توقيتاتٍ منتظمة. لقد مرّت سنواتٌ عديدةٌ منذ استجابَ آخرَ مرّة لذلك الأذان.

ولكنه سمع طَرقاً على بابِ منزلِه اخترق فِناءَ المنزلِ وأيقظَ للحظة القطّة الرماديّة المُخطّطة الغافيةَ في بقعةٍ من شمسِ الخريف، وتردّدَ الطَّرقُ في الغُرفِ المفتوحةِ حول الفِناء. جلسَ عليّ في إحدى هذه الغرف منكبّاً على عمله، يتناثرُ عليه ضوءٌ مغبرٌّ من الشبّاكِ المُطلِّ على الشارع، محاطاً بالقدور والمجامر، والدوارق والهواوين مع مداقّها، والإِنبيقَات لتقطير السوائل والجِرار الطبّية الخزفية لحفظ المراهم والأدوية الجافّة. طنَّ صوتُ طَرقِ الباب في رأسِهِ مباشرةً فتمتَمَ: "اللعنة. مَن الذي جاءني الآن؟"

تذكَّرَ دعوتَه بعض الأصدقاء القدامى لتناول طعام الغداء، وهو الغداء الذي أدرك مُسبَّقاً أنّه سوفَ يتحوّل إلى جلسةِ شرابٍ تمتدُّ طيلة فترةِ ما بعد الظَّهيرة. شَرِبَ الجميع حتّى سَكِرُوا وعربَدوا وتطايرت صيحاتهم وتعالت أصواتهم. كم جرّةٍ من نبيذِ مَلَقَة سيُفرغون هذه المرّة؟ ثمّ تذكّر: اللعنة مجدّداً، سوف يأتي النحّاس بالجهاز الجديد بعد صلاة العصر، ويريد نقوده. لم يتّفِقا على السِّعر، ولكنَّ عليّاً كان يعلمُ أنه سيكون مرتفعاً. قال الرجلُ وهو يهزّ رأسَهُ ببطء: "هذا جهازٌ فريدٌ، يا مولاي، فلم أصنع في

حياتي شيئاً كهذا". بالتأكيد لم يفعل. الحمد لله أن ليثاً سيأتي الليلة ومعه المزيد من الأموال.

ليث. تمتم بالاسم ولاكَهُ بين شفتَيه كأنه جرعةٌ من الزِّرنيخ. كان يكرهَ ليثاً للغاية، ويمقتُ رؤيةَ تينِكَ العينَين الخضراوَين المتعصّبتَين، وتلك اللحيةِ التي لا تبدو حقيقية تماماً على وجه بقي جميلاً لفترة طويلة جدّاً. كان يعلمُ على الأقلّ أن ليثاً يكرهُهُ أيضاً. والحمد لله أنه نادراً ما كان يزوره، وهذا أكثر أماناً للجميع، بصرفِ النَّظرِ عن موضوعِ كُرهِهِ له. كان يأتي دائماً تحتَ جُنحِ الليل. وقال عليّ لنفسه فجأةً بعد القليل من التفكير "لم يسبق لي أن رأيتُ ليثاً في وَضَحِ النهار، ربمّا يكون غولاً وليس ابن آدم". لن يتخطّى الفِناء بالأحوال جميعها، لأنَّ بيتَ عليّ بالنسبة إلى مَنخَري ليث المتديّنَين، منزلٌ تفوحُ منه رائحة الفضائح والنبيذ، أمّ الخطايا المميتة، وكان يهربُ منهُ دائماً هروب المصونة من الفاجر.

لا يستطيعُ أيٌّ منهما في الأحوال جميعها الاستغناءَ عن الآخر. لقد احتاجَ ليث لدماغِ عليّ، واحتاجَ عليّ لأموالِ ليث.

سمعَ أصواتَ السُّكارى المتعالية تصدَحُ عبر الفِناء لتصلَ إلى غرفة الضيوف. جيِّد، إنهم سعيدون ومرحون. لقد حافظوا على رشاقة عقولهم الفتية وهم في منتصف أعمارهم بأبهى حالاتها ... وأضافَ بعنايةٍ الكميَّةَ الأخيرة من المسحوقِ الأبيضِ إلى السائلِ الموجودِ في الدَّورَق ... كان يذهبُ لينضمّ إليهم ويتناول لقمةً ويكرعَ بعض الكؤوس، ولكنَّهُ لم يشرب كثيراً نظراً لخطورة العمل الذي كان يقوم به، ثمّ يتركُ ضيوفَهُ بين يدَي لبنى الأمينتَين.

تستطيعُ لبنى التعاملَ مع أيِّ شيء كان. ما زالت أصداء المبارزة الشِّعرية والسجال الذي خاضته مع الشاعر الأعمى من المدوَّر تتردَّدُ على ألسنةِ الجميع، عندما حاول الأعمى التحرُّشَ بها متظاهراً بأنه يتحسّس

طريقه، فردّت عليه بعدّة أبيات، فسأل الأعمى متظاهراً بالدهشة: "مَن هذه الفاعلة؟".

ردّت لبنى: "عجوزٌ مقامَ أُمِّكَ".

فأخذ يهجوها بالشِّعر، ولكنها تغلّبت عليه وردّت له الصاع صاعَين. وجاءه ردّ لبنى الشهير:

جازيــتَ شِــعراً بشِــعرٍ
فَقــل لعمــري مــن أشــعَر
إن كنــتُ في الخلــقِ أُنثــى
فــإنّ شِــعري مُذكَّــر

ارتجلت لبنى الأبيات سريعاً، وظلّت غرناطَة بأكملها تتناقلُ الردَّ البليغ لقَينَة عليّ الخيميائي.

لذلك من الطبيعي أن أصدقاءَ عليّ السكارى الذين كانوا ينشدون الشِّعر، كانوا مأخوذينَ بسِحرِ لبنى كلِّها، وليس بسِحرِ كلماتِها وحسب. لا بدّ أنها كانت في الثلاثين من عمرها الآن، ولكنها لم تنجب أطفالاً. كان جسدها لا يزال مرناً ومشدوداً منذ سنواتِ طفولتِها في الرَّعي على سفوحِ الجبالِ الشاهقة، قبل وقوعِها في الأسر. حملَ صوتُها أيضاً النبراتِ الحادّة الخشنةِ والمثيرةِ للُغتِها الأمِّ الإسبانية ... وانطلقَ صوتُها تنادي عليه الآن ... نعم، كانوا جميعاً واقعين في حبالِ سِحرِ لبنى؛ ولكن الغَيرةَ لم تجد طريقَها إلى قلبِ عليّ أبداً. كانت لبنى جاريتَه، وقَينَتَه، ومغنِّيتَه، ولكنّ هذه الملكية كانت متبادلة. لقد كانت مُلكَهُ قانونياً، ولكنه مُلكُها بمعاني التملّك الأخرى كلّها، بكلِّ معنى يكتنفه الحبّ.

لقد عشقَتهُ بشدَّة تلك الفتاة المَسبيَّة من سفحِ الجبل. ولكنَّ هذا

الحبَّ الشديد اكتنفهُ الحزن، الحزنُ لأنها لم تمنحه أطفالاً. وظلّلهما ذلك الحزن القاتم الذي سَكَنَ أكثر الجواري سعادة.

" ... عليّ! تعال على الفور لتجد حلاًّ لهذه العصبة الشرِّيرة الكسولة! لا تختبئ في وكرِكَ النتن .. ".

كانت عندَ عتبةِ البابِ تقريباً. فتذكّر في آخر لحظة مُنخُلَ الكُسكُس، آخر ما "استعاره" من مجموعة الأشياء التي يأخذها من المطبخ، ويفسدُها في تجربتِهِ الجديدة، فحاول إخفاءَه.

فاتَ الأوان. وقفت لبنى هناك وضّاءةً ومظلّلةً. لقد كلَّلها الظلام من المدخل المظلّل، وأطّر حاجباها الداكنان وتلك الغُرَّة الداكنة من خطّ الشَّعرِ ملامِحَها العابسة. ولكن الظلام لم يحجب النور المشعّ من وجهِهَا وصوتِها. لقد شرِبَها عليّ، شَرِبَ مرآها وصوتَها، بعطشٍ كان يعلمُ أنَّه لن يشبعَ أبداً. لبنى البيضاء كاللبن. وكان هذا نصفها فقط.

رأته يحاول إخفاءَ الغربال، فتخلَّلت ابتسامةٌ رقيقةٌ عبوسَها. كانت شفتاها داكنتَين، وأسنانها لامعة، *كما ترى في الماء نصف درهم*، مثل ما تقول الأُغنيَّة.

الفصل الثالث

تعالت قعقعةُ الأسلحة خلف البَوَّابة بينما كان الحرّاسُ يحيّون الوزير وضيفَهُ، ثمّ سادَ صمتٌ مهيبٌ وهم يحدقّونَ في العبد. أحسَّ سِنَان أن النظرات هنا في غَرنَاطَة أكثر تفرّساً فيه ممّا كانت عليه في المغرب، وانطلقت أسنانُ الكراهية الحادَّة تجاهَهُم. لذلك تجاهَلَهُم ونظرَ إلى ممرٍّ ضخمٍ آخرَ ونقشٍ نصفِ مرئيّ لم يعرف إذا ما كان بمثابةِ ترحيبٍ أم تحذير؟ لم يتمكّن من اكتشاف ذلك، ثمّ ابتلعهم الظلام. صعدوا إلى الأعلى سائرين عبر الظلام، ثمّ خرجوا إلى النهار مرّة أخرى، داخل قصر الحمراء.

غمَرَهُم ضوء النهار، ولكنَّ سِنَاناً شَعَرَ أن الضوء هنا، داخل الجدران يتمتّع بصفةٍ مميّزة، حيثُ يشعرُ بدرجاتِ الظلّ بدلاً من رؤيتها. كان الأمر كما لو أنهما ذهبا إلى بلدٍ آخر، محاطٍ بالجدرانِ الحمراء العظيمة، ويتمتّعُ بسمائِه الخاصّة، وبسكّانِه أيضاً: كان هناك موظّفون يلبسون أرديةً وقُبَّعاتٍ مطرَّزةٍ، هي نُسخٍ أصغر وأقلّ أُبّهةً من لسان الدين، يتحرّكون كلٌّ لغرضِه عبر الفِناء الأمامي؛ وكانت هناك مجموعةٌ صغيرةٌ من علماء الدين أو القضاة، والذين يتميّزون بعمائمهم التي يومئون بها، في انتظار الدخول إلى أحد الأجنحة الداخلية، وتمركزَ على فتراتٍ متقطّعةٍ حول الأطرافِ جنودٌ عرَفَ سِنَان من لباسِهِم وبشراتِهِم أنهم ينتمونَ إلى نخبةِ الحرسِ السلطاني المملوكي، أي أنهم مماليكٌ، وعبيدٌ مثله، ولكنَّهم أُسِروا في الأراضي المسيحيّة، ثمّ تحوّلوا إلى الإسلام، وتشبّعوا بالنزعة العسكرية القاسية. كان بمقدور سِنَان الشعورَ بعشراتٍ من العيونِ التي تُحدّقُ به.

جاء أحد الموظّفين، وهو كاتبٌ يحملُ مَقلَمَةً من البرونز في حزامِ خصرِه، وانتحى بلسان الدين جانباً. قال الوزير لأبي عبد الله بعد تبادل همساتٍ مع الموظّف "أرجو المعذرة، لقد استدعوني. ولكنني سأعود قريباً لأُعرِّفَكَ على المكان. أخشى ألَّا تكون جولة كاملة الآن، لأن جلالةَ السلطان موجودٌ في مكان إقامته. ولكنَّ هناك بعض المعالم الرائعة التي سأعرضها عليكَ والتي ستعوّضُكَ عن التي لا تراها. وسوف آمُرُ في هذه الأثناء شخصاً ما باصطحابكَ إلى أعلى برجِ المراقبة، فنحنُ دائماً نبدأ من هناك ... مع أهمّ زوّارنا البارزين".

أومأ أبو عبد الله برأسِهِ شاكراً هذا الثناء. وقبل أن يغادروا تحدّث لسان الدين إلى الكاتب، الذي تحدّث إلى مسؤول أقلّ منه، والذي تحدّث إلى رقيب مملوكي بأنفٍ ملتوٍ، والذي تحدّث إلى مملوكٍ أقلّ منه، والذي سار عبر بَوَّابة أخرى. تشكّل لدى سِنَان انطباعٌ بأنه موجودٌ في مستعمرةِ حشراتٍ معقّدة، داخلَ هرمٍ متعدّد التسلسلات التراتبية وجدرانٍ متَّحدةِ المركز، لا يمكن اختراقها على الإطلاق. وتساءلَ عمّا إذا كانَ سيتمكّنُ يوماً ما من رؤية ذلك الرجل، جلالته، هناك في مركزِ هذا كلِّه. لقد شعر أيضاً بعدم الارتياحِ والاختناقِ من التحديقِ والكثافة الهائلة لكلّ ما حوله.

تبدَّدَت مخاوفُه من الأماكنِ المغلقةِ، وبعدَ دقائقَ قليلةٍ قادَهُم أحدُ الموظّفين عبرَ البَوَّابة الداخليّة، عبر جسرٍ فوقَ وادٍ صغير، على طول طريق ضيّق يمرّ بين ثُكنات المماليك، صعوداً إلى درجٍ مظلمٍ فسيحٍ، وإلى ما لم يتخيّله سِنَان سوى مقدّمة سفينةٍ تَمخُرُ عُبابَ السّماء.

صاح أبو عبد الله لاهثاً من الصعود "سبحانَ الخلَّاق!" وهو ينظر من فوق حاجز المتراس، وفوقه الراية الحمراء للنصريّين، السلالةُ التي أسّسها، كما شيّدَ هذا البرج، أسلافُ السلطانِ قبلَ خمسةِ أجيالٍ، يتلاعبُ بها

النسيم فترفرف بإيقاع كأنه إيقاع طبول عسكرية. انضمَّ سِنَان إلى سيّدِهِ وحاولَ أن يستوعبَ المنظر.

انحنى الجدار الخارجي الكبير لقصر الحمراء إلى الشرق على نحو دائري، ليشكِّل بدن السفينة، معزّزاً بالأبراج المربّعة البارزة. والتفَّت أسفل الجدار مباشرة أمواجٌ خضراء مشجّرةٌ من جانب التلّ إلى الشَّمال، وهبطت إلى وادٍ عميقٍ وكثيف. وارتفعت خلفَ الوادي تلّةٌ أخرى شديدة الانحدار، ومستوياتها السفلية تغطّيها المنازل المتراكمة المتكدّسة المتداخلة، أمّا قِممها الخالية من الأشجار، فكان لونها أصفر محروقاً بفضل الصيف الحارّ الطويل. كان الطرف العلوي من الوادي محاطاً بقِممٍ أكثر يباباً وبخطٍّ أفعواني لسورِ المدينة الخارجي. تمكّنَ سِنَان على الجانب القريب من الجدار، على منحدرٍ شديد الانحدار، من رؤيةِ أكوامِ الحجارة المنتظمة التي تشير إلى المقبرة.

التفتَ وحبس أنفاسه من الدهشة. كان يوجد سهل أمامه، إلى الغرب والجنوب، وراء مقدّمة المدينة التي تتخلّلها المآذن التي تشبه علامات التعجّب. بدا السهل في البداية ممتدّاً وواسعاً وأخضر ولا نهائي مثل المحيط الهادر، ولكنَّ سِنَاناً رأى بعد ذلك أنه مملوء بالمزارع والقصور، وتحيط به سواحل بعيدة من التلال. وامتدّتِ التلالُ إلى الجنوب الشرقي وتضخّمت لتتحوّل إلى جبالٍ خشنةٍ، مُضاءةً من الخلف ومتوهّجةً، والتي كانت مملوءةً بثلوجِ الشتاء الماضي حتّى الآن، في فترة أوائل الخريف. لقد حاول استيعاب المنظر، ولكنه لم يستطع: لقد كان هذا كلّه كبيراً جدّاً، وغريباً جدّاً. حمل هذا كلّه سمة اللاواقعية الواضحة للمناظر الطبيعية التي نراها في الحُلم.

قال أبو عبد الله بهدوء: "فما رأيكَ في ذلك، يا فتاي؟ قلتُ لكَ عندما خرجتَ معي في هذه الرحلة إنّكَ سترى بعضَ المناظرِ الجميلة".

حارَ سِنَان في الإجابة. وقفوا هناك لدقائق متواصلة، فقد أخرسَهُم المشهدُ الطبيعيّ المُبهِر الذي أمامهم، حتّى أبي عبد الله، الذي كان يصدر ضجيجاً حتّى وهو صامت، كما وصفه يوماً بنوع من القساوة، حتّى لو كان مصيباً، ذلك العبد الطبّاخ هناك في أرض الوطن.

أخيراً تحدّث أبو عبد الله بعد فترة من الصمت: "لسان الدين صديقٌ طيّبٌ، فهو مؤرّخٌ وشاعرٌ وخطيبٌ وكاتبُ سيرةٍ وخطّاط، فكّر بأيّ شيء يخطر ببالكَ ستجدُه يتقنُه على أفضلِ صورةٍ ممكنة. لسان الدين .. لا أحد يتذكّر لقبي أنا، شمس الدين، فنحن "الشموس" مفلسين. لسان الدين هو الوحيد الفريد من نوعه، صاحب اللسان الفضّي والقلم الذهبي .. على عكس سيّدكَ العجوز، الذي رُزِقَ بلسانٍ مثلُ قشرةِ الموز وقلمٌ مرتبكٌ عاجزٌ .. إنها موهبةُ الحماقة، هذا ما حصلتُ عليه، يا سِنَان". ساد الصمت مجدَّداً، ولكن، للحظة فقط. "لا يهمّني بالطبع وأنا أحظى بشهرة عالمية باعتباري أعظم رحّالة في العالم. أمّا أن يكونَ المرءُ صاحبَ أسلوبٍ فريدٍ ورجلُ دولة مثلُ لسان الدين، فهذا يعني إنجازاً كبيراً أيضاً. على الرغم ..."، والتفت أبو عبد الله إلى سِنَان وأخفض صوته .. "من أنه، بيني وبينكَ وبين سارية العَلَم، مَزهوٌّ بنفسِهِ قليلاً".

فكّرَ سِنَان في ذلك القول الأخير، وكيف ينطبق بالضبط على أبي عبد الله نفسه، وكان عليه أن يطأطئ رأسَه لإخفاء ابتسامته. وتابع أبو عبد الله: "ولكن، مَن يرفض أن يحكم هذا كلّه؟" وفَرَدَ ذراعَيه، ليشمَلا قصر الحمراء والسهل والجبال "السلطان هو الحاكم، ولسان الدين هو المسؤول عن كلّ شيء".

خفّ النسيم فجأةً، فذبلتِ الراية الحمراء للسلالة النصرية وصمتَت. بادرَهُ سِنَان: "هل سيجعلكَ وزيراً حقّاً، يا مولاي؟"

مطّ أبو عبد الله قامته الضئيلة لأقصى ما يمكنه "لا شكّ، بإذن الله.

وإذا لم يكن لسان الدين ... فربّما شخصٌ آخر قريباً". نظرَ إلى التلال البعيدة، وبرزَت لحيتُه طويلةَ الشَّعر والأشبه بلحية الماعزِ فوق الشرفات. "ربمّا أتقدّم في السنّ، ولكنَّ عُمرَ المرءِ يُقاسُ بشعوره بنفسه. ولا تزال أوراق اعتمادي لا تشوبها شائبة: القاضي المالكي في دلهي، السفير المفوَّض لدى الصين نيابة عن سلطان الهند والسند، رئيس قضاة أرخبيل المالديف، وصهر سلطان قُرَمندِل ...".

ظلّ عقلُ سِنَان متجمّداً حتّى انتهتِ المعزوفة المألوفة وقال: "ولكنكَ، يا مولاي، لن تنسى وعدكَ عندما تصبح وزيراً، أليس كذلك؟ أقصد أن تعينني ..".

قال أبو عبد الله مُكمِلاً السؤالَ المألوفَ أيضاً: "كاتب سرّي، يا سِنَان، كم مرّة أخبرتُكَ؟ لا يمكن لأيّ شخصٍ آخرَ على وجهِ الأرضِ أن يشغَلَ هذا المنصب".

اشتدّتِ الرياحُ مجدّداً، واستطاعَ سِنَان رؤيةَ جيشٍ من السُّحبِ المُكفهرّة يَظهرُ فوقَ الحافَّةِ البعيدةِ للتلال، مُنذِراً بالعواصف. وارتجفَ لأوّلَ مرّة لهذا العام.

****

قادَهُم المملوك ذو الأنف الملتوي إلى الخلف عبر الفِناء الأمامي. كان لسان الدين ينتظرهم عند المدخل. كان مدخلاً عادياً في واجهة غير مميّزة، ولكنَّ سِنَاناً شعر أن شيئاً بالغَ الأهمّية يكمنُ في الداخل.

تبِع سِنَان الوزيرَ وأبا عبد الله عبرَ الممرّاتِ المُظلّلة وخلالَ الغرفِ المنخفضة، حيثُ كان يشعرُ فيها جميعاً، ولكن، دون أن يرى بعينَيه، بأعين الحرّاسِ المماليك، حتّى دخلوا غرفةً كبيرة. لم تَظهَر أبعادُ الغرفة كاملةً في البداية، فقد تخلّلها الضوء من خلال الشبّاك. وعندما اعتادت عينا سِنَان

إضاءةَ الغرفة، رأى أنماطاً وألواناً متراقصة من الفُسَيفِسَاء على الجدران، وأعمدةً رخاميةً رفيعةً مزدانةً بتيجانٍ منحوتةٍ، وعليها رسوم جميلة تدعم سقفاً خشبياً مغلّفاً ومطعّماً تطعيماتٍ وزخارفَ فارهة. بدا السقفُ وهو يستقرّ عليها، مثل غطاء صندوقِ جواهرِ باذخٍ متقنِ الصُّنع، أو نعشٍ ... فكّر سِنَان في تلك الكهوفِ، مخابئ اللصوص والجنِّ، التي سمع الرواة يصفونَها في سوقِ فاس، مظلمةً ومتلألئةً وخطيرة.

قال لسان الدين: "هنا المَشوَر. لا بدّ أن نعودَ عندما يكون جلالتُه جالساً مع العامّة وأبوابُ المجلس مفتوحة. لقد زيّنَ المجلس بحكمَتِهِ المباركة منذ سنوات قليلة. ولكنّ الكثير ممّا تراه الآن من أعمال والده الراحل، السلطان يُوسُف، رحمه الله تعالى وقدّس ذِكراه، والذي قُتل في أثناء الصلاة كما سمعتُم ...".

"بيدِ عبدٍ أسود". جاءت الكلمات هامسة موحية واضحة من زاوية مظلمة. وكان يتبعُها وجهٌ ما، وجهُ رجلٍ طويلٍ نحيلٍ يرتدي ثوباً فخماً مهيباً مثل ثوب لسان الدين تقريباً. كان الوجه حادّاً وشاحباً ويلتمعُ بقطراتٍ من العَرَقِ أو الزيت. اتّسعت فتحتا أنفه وارتعشتا، كما لو كانتا تشمّان رائحةً عفِنَة. وكانت عيناهُ مثبّتتَين على سِنَان. وارتجفَ العبدُ للمرّة الثانية.

"نعم. بالتأكيد" قال لسان الدين بصوت خال من أيّ عاطفة وعلى نحو مُتعمَّد "اسمَح لي أن أقدّم لكَ زميلي الموقّر ابن زَمرَك، كاتب السرّ السلطاني" أومأ الوافد الجديد برأسِهِ بإيماءة خفيفة "وهذا هو صديقي وضيفي الأكرم، أبو عبد الله، ابن بَطُّوطَة الطَّنجيّ الرحَّالة المشهور. لم ير أيّ بشر يوماً مثل ذلك القدر من أرض الله، كما تعلمون بلا شكّ" ولم يُظهِر الكاتب السلطاني أيّ إشارةٍ، حتّى لو كان يعلم. فَوَاصَلَ لسانُ الدين تلاوةَ إنجازات صديقهِ بفخرٍ هادئ وواضح: "لقد كرّس أبو عبد الله ثلاثين عاماً لرؤية بلادٍ غريبةٍ، ومشاهدة عجائبِ الخلق وغرائبه، وطلبَ فضلَ السلاطين

وبركاتِ الأولياء، من أقصى غرب بلاد السودان إلى الرؤوس الشرقية الأقصى للصين. لقد وطئ طرفيَ الأرض، وأبحر في البحر المحيط. ولم يعانِ سوى القليل من الرجال مثله من التقلّبات الكثيرة مثل غَرَق السفينة، والاختطاف، والقرصنة، والحرب، والمرض القاتل، وتعاويذ السَّحَرَة، وغضب الطُّغاة - وعاشوا ليرووا الحكاية. يمكن للمرء القول باختصار إنّ أبا عبد الله هو التجسيد الحيّ للشخص الخالد في عصرنا .." توقف قليلاً ثمّ تنحنَحَ وتابع: "لسيّدِنا الخَضِرِ الخالد".

سادَ الصّمت. كان أبو عبد الله خلال هذا الحديث كلّه مغمِضَ العينَين بشيءٍ من التواضع، يفكِّرُ في المجاملات، وتأمّلَ لسانَ الدين صديقَه، ومقارنتَه المزعجة عن غير قصد: الخَضِر، الرحَّالةُ العظيم في الأسطورة الإسلامية، كان واحداً من حَفنَة من البشر الذين مُنحوا الخلود الأرضي. لقد تحدّى أبو عبد الله المسافات، مثل الخَضِر ... ولكن، هل تحدّى الموتَ أيضاً؟

أخيراً، مدّ ابن زَمرَك وبتردّدٍ واضحٍ يداً شاحبة نحيلة عبر الصمت: "لقد سمعتُ عنكَ بالفعل، يا سيّدي، وعن تقلّباتِكَ، أو ربّما ينبغي للمرء أن يقول، مغامراتكَ؟" لم يكن هناك أي أثرٍ للدفءِ في كلماتِه، وكان هناك قدرٍ أقلّ من الدفءِ في مصافحَتِه. ولم يحاول إخفاءَ قطعةَ القُماش الصغيرة التي سحبَها من كُمِّهِ ومَسَحَ بها يدَهُ اليمنى بعنايةٍ، وشمَّ سِنَان في أثناء قيامه بذلك رائحة خَلّ لاذعةٍ مميّزةٍ لا تفسير لها. ثمّ التفَتَ كاتب السرّ السلطاني إلى لسان الدين وتحدّثَ بصوتٍ منخفضٍ، ولكنّهُ مسموع: "أحثّكَ بشدّة على مراقبة صاحب الأشغال هذا. الوقت ينفد. والمال ينفد - لقد تجاوز الميزانية بكثير. لقد تجاوز الميزانية كثيراً في الواقع لدرجة أنني لا أستطيع التفكير في مصير ذلك الفائض، باستثناء .." وتضاءل صوته إلى هسهسة "أن يكون قد اختفى في أعماق طيّات كُمَّيه

الواسعَين" ثمّ استدارَ كاتب السرّ السلطاني وابتعدَ، وألقى نظرةً أخرى من الازدراءِ السافرِ على سِنَان.

قال لسان الدين عندما تأكّد من أنه لم يعد يسمعه: "أنا أعتذر، يا لهُ من وقحٍ ليتحدّثَ بهذه الطريقة ... ولكن، على المرء أن يبقى متسامحاً. فأصولُ ابن زَمرَك متواضعة إلى حدٍّ ما، ولديهِ علامةٌ واضحةٌ على كونه من الدهماء تظهر على كتفِهِ المُقصَّبة. ناهيكَ عن وجود الكثير من القُرادِ في عِمامته، كما يقولون. نعم، وبعض أنواع الهوس الغريبة للغاية بشأن النظافة. ولكنّه ذكيّ أيضاً. قد يبدو هذا القصر وكأنه قطعة من الجنّة على الأرض، ولكنها جنّة ملوّثةٌ بالفساد، ومليئةٌ بالفئران، ناهيكَ عن حيوانات الخُلد وغيرها من أشكال الهوامّ والحشرات. والتي تُعدّ كلّها فاسدة متعفّنة حتّى *النُّخاع*".

أسكَتَ الوزيرُ نفسَه بسوَرَة عُنفِه. واقتحمَ أبو عبد الله الصمت "عندما كنتُ قاضياً مالكيّاً في دلهي، وجدتُ أن السياسة الأفضل الارتقاء فوق كلِّ شيء".

لم يُجِب لسان الدين، بل واصلَ سلسلةَ أفكارِه "وماذا في ذلك؟! حتّى إن زاد راتبه زيادة غريبة من الاختلاس - والله أعلم - فإن زيد صاحب الأشغال رجل عظيم وموثوق، ويمكن الاعتماد عليه، سوف تقابله لاحقاً. ولكن، أوّلاً تعال معي". قادهم عبر باب صغير إلى فِناءٍ صغير بجدران عالية. كانت جوانبه الطويلة فارغة، أمّا نهايته البعيدة، فكانت مجموعة فوضوية من النقوش المنحوتة والمرسومة والخطوط الهندسية المتناظرة والنباتات التي تؤطّر بابَين آخرَين. اقتربوا من الأبواب، ثمّ توقّفوا. قال الوزير: "لا يجوز لنا أن نذهب أبعد من ذلك، فجلالته في الداخل".

شعر سِنَان بوجودِ جلالتِه، فقد أحسَّ به فجأةً في أحشائِه، تماماً كما كان يشعرُ منذ زمنٍ بعيد، بوجود *البوليو* – خرجت الكلمة من أعمقِ طيّات

الذاكرة، من لسانٍ منسيٍّ اعتادَ التحدّث به يوماً. لقد نسي *البوليو* الذي كان يسكنُ خلفَ بابِ كوخ مطليٍّ بالطين، حيث اصطحبه والدُه ذاتَ مرّة. منذ زمن طويل، بعيداً هناك، في حياة أخرى غارقة في الماضي السحيق. ما هو *البوليو*؟ لم يعد يعرف. لقد تراجعت معاني تلك الحياة وذكرياتها مثل الأشباحِ عند الفجر، فجر وجود آخر، باستثناء الذكرى الحادّة المرعبة التي لم تَغِب أبداً.

"ولا غالب إلّا الله"، قال أبو عبد الله، وهو يقرأ نقشاً مكرّراً إلى ما لا نهاية في الجبس: "ولا غالب إلّا الله". قال لسان الدين: "شعار دولتنا النصرية المجيدة. أمّا الآن، فاتبعاني، أريد أن أُريَكُما طفليَ الجديد". أضاءت ابتسامته النادرة الأخرى للحظةٍ ملامحَ الوزيرِ الكئيبة.

عاد الرجال الثلاثة من الطريق نفسها، وغادروا من ذلكَ المدخل الأوّل الخفيّ. كان هناك الكثيرُ من الناس في الخارج الآن. الموظّفون والمماليك أنفسهم، ورأوا مجدّداً ذلك الرقيب المملوك ذا الأنف الملتوي، ولكن، مع آخرين أيضاً يشبهون المواطنين العاديّين الذين يتجوّلون هنا وهناك. لقد أدرك سِنَان أنه أصبح هنا خارج القصر، ولكن، داخل الأسوار الدفاعية المنيعة العظيمة لقصر الحمراء، حيثُ توجدُ مدينةٌ كاملةٌ داخلَ مدينة، أو بالأحرى فوقَ مدينة، جاثمة فوقَ غَرنَاطَة على حافَّة السهل الممتدّ تحتَها. قادهم لسان الدين شرقاً، بعيداً عن القلعة وبرج المراقبة. ومرّوا بقَينَة من الطبقة العليا، حيث حكموا على ذلك من خلال مِشيَتِها الغنِجة وسحابةِ الرائحة التي تُخلِّفُها وراءَها والخَدَم الذين كانوا يتبعونها. دار رأس أبي عبد الله ليتبعها، ولاحظ سِنَان إيماءة رأس المرأة أيضاً، وتضيّق العينَين على نحو غير محسوس تحت المنديل.

عاجَلَهُ لسان الدين أيضاً: "يسعدُني أن قلبَكَ ما يزال شابّاً، يا صديقي العجوز" وتنهّد الوزير في داخله. كان يعلمُ جيّداً أن قلبَه هو نفسه لم يعد

شابّاً ولا أيّ شيءٍ آخر فيه أيضاً، وبالتأكيد ليسَ جسده. كان أبو عبد الله في منتصف الستّينيات من عمره، أي أكبر منه بعشر سنوات. ولكنّهُ كان يتصرّف كشابٍّ في العشرينيات من عمره. وما فائدة الرغبة عندما لا تستطيع استثمارَها؟ ربّما كان عليه أن يحظى بدماغ أبي عبد الله، والذي كان يعلم أنه مملوء بالمنشّطات الجنسيّة الغريبة، وهي مجموعةٌ من الوصفات التي جمَعَها في أثناء رحلاته.

هكذا كان لسان الدين يفكّر عندما وصلوا أمام باب آخر، أنه على الأقلّ كان يمتلك *هذا كلّه* بين يدَيه، ليُبقيَه متماسكاً. عبروا الباب مارّين بمدخل شبه مظلم متتبّعين رائحة الجصّ الطازج الرطبة المغبرّة، ثمّ بعد لحظات قليلة غشيت أبصارهم: فقد ارتدّ الضوء على أعينهم من الرخام، وتدفّق عليهم عبر الأعمدة. كان ضوءاً شديداً، لدرجةٍ حجبَت السماء فوقهم. ثمّ أخذ سِنَان في تحرّي التفاصيل. كانوا على عتبة بهوٍ مستطيلِ الشكل، ربّما بطول ستّين ذراعاً تقريباً، بدا على الفور واسعاً وحميماً. وكان على جانبَيه أعمدة رخامية رفيعة، بل بالأحرى المئات منها أو أكثر، تنضمّ في مجموعاتٍ ثمّ تتباعدُ في رقصةٍ إيقاعيةٍ متقنةٍ من الضوءِ والظلامِ، والأشعّة والظِلال. رُصِفَ الفِناءَ بالرخامِ الأبيضِ الناصع، ولكن، من أين جاء هذا الضوء كلّه؟ فقد كانت السماءُ ملبّدةً بالغيوم تماماً، وقد قُطع الفِناء بقنوات جافَّة ضحلة. ورأى سِنَان قناةً واحدةً تنطلقُ من منتصفِ كلّ جانبٍ من جوانبِ البهو الأربعةِ نحو خيمةٍ نُصبَت في وسط البهو بالضبط. كان منظرُها غريباً للغاية.

ثمّ أدركَ سِنَان سببَ وجودِ الخيمة هناك. لقد امتلأتِ الأروقةُ خلفَ صفوف الأعمدةِ بالسقّالاتِ الخشبيّة، وكانت الحركة خافتةً، ولكنّها هادفةٌ ومنظّمة. عَمِلَ الرجالُ بصمتٍ تامّ تقريباً، في التجصيص والتلييس، والنقش، والنحت، والتلوين، وترى في كلّ ربع من أرباع البهو مرحلةً مختلفةً

من عمليات التطعيم. كان الأمر أشبهُ بمراقبةِ النحلِ يعملُ على قرصِ العسل. وفكّرَ سِنَان في تلك الخيمة المركزية التي لا بدّ أنها تُخفي المزيد من العمّال. هل كانوا يجهّزون غرفة اليَعسُوب ملك النَّحل، السلطان؟

قال الوزير وهو يتأمّل المنظرَ أمامهم: "هذا هو طفلي المُدلَّل". وأشرقَ وجهُهُ الحزين بالفخر. "إنك تراه في مرحلة الجنين، إذا جاز التعبير، ولكنّني آملُ أن تتمكّن من البقاءِ أكثر ورؤيته مُكتمِلاً".

فسأله أبو عبد الله: "ومتى يكون ذلك؟"

ورأى سِنَان الكآبة المعتادة تعود إلى وجه الوزير "هذا هو السؤال .. ولكنه يجب أن ينتهي بحلول المولد النبوي خلال أقلّ من ثلاثة أسابيع. لم يعد لدينا وقت، كما ذكّرَنا للتوّ ابن زَمرَك".

قال أبو عبد الله: "ولكن، لماذا العجلة؟ فالقاهرة نفسها لم تُبنَ في يومٍ واحد".

"لأن المولد النبوي يتزامن مع حدثٍ آخرَ يحملُ أهمّيةً أكبر، سامَحَني الله، أعني أهمّية كبيرة لمستقبل هذه السلطنة".

من الواضح أنه لم يكن يريد أن يفشي سرَّ الحدثِ الوشيك. وقفوا هناك لبعض الوقت، وتعلّقت أسئلةٌ غير مطروحة في الهواء متمايلةً مع غبارِ الجصّ. ثمّ أشار لهم لسان الدين وقادَهُم إلى غرفةٍ جانبية.

كانتِ الغرفةُ مملوءةً بغابةٍ من السقّالات الخشبية، ورفعَ سِنَان نظره إلى الأعلى نحو القُبَّة، وكان تحت القُبَّة منصّةٌ استلقى عليها عدد من الرجال أو جلسوا القُرفُصَاء. كانَ الرجالُ منهمكينَ بالفُرَشِ والرسم. وتفاجأ سِنَان عندما رأى أن ملامحَ الرسّامين وبشراتهم تشبه ملامحَ جنودِ حرس المماليك .. فهل كان هؤلاء الرجال أيضاً من العبيد المسيحيّين؟ وتبِعَ أبا عبد الله ولسانَ الدين إلى الجانب الآخر البعيد من القاعة. واعتلت هذا الجانبِ

قُبَّةٌ أصغر، حيثُ كان الرسّامون قد انتهوا بالفعل. وتمكّنَ من رؤيةِ الرجال والحيوانات على السطح الداخلي للقُبَّة في مشهدٍ تمثيليّ للصيد. لم يرَ سِنَان شيئاً مثل ذلك من قبل طيلةَ حياته الحاضرة.

أوضح لهم لسان الدين: "لقد استعرنا الرسّامين من جارِنا دون بِدرو، ملك قَشتَالَة، وقد اعترضَ ذلك العجوزُ البائس ابن زَمرَك، الذي حظيتُم للتوّ بمتعة لقائه البائسة، على المشاهدِ التي يرسمونُها لأسبابٍ عقائديّة". وابتسم أبو عبد الله، فقد كان الوزيرُ يقلّد صوت كاتب السرِّ السلطاني الأشبه بالصفير.

أدرك سِنَان سبب اعتراض ابن زَمرَك. فقد رأى البعض أن تصويرَ الكائناتِ الحيَّة يُعدُّ تعدّياً على قدرات الله تعالى في الخَلق. ولكنَّ الكائناتِ الموجودة على القُبَّة كانت أقلّ بكثير من كمالِ الخَلقِ الإلهي، فقال للوزير: "أستميحكَ عذراً، يا سيّدي. هذا الحصان صغير جدّاً بالنسبة إلى راكبه".

التفتَ لسان الدين إلى العبد، يا إلهي، كيف يجرؤ؟! ولكنه أُعجبَ بذكاءِ الأسود ووقاحتِه. وتابعَ سِنَان: "إن الحيوانات جميعها، يا سيّدي، في الواقع أحجامها خاطئة .. رغم محاولات الرسّامين خَلقَ وَهمِ المسافة النسبية ووَهم القُرب".

هزَّ لسان الدين رأسَهُ غيرَ مصدّقٍ لما سمعه: "إنه جوهرة، سِنَانك هذا!"، وقال لأبي عبد الله دون أن يرفع عينَيه عن العبد: "هل يمكنني أن أقدّم لكَ عرضاً فيه؟" فاضطربت أحشاءُ سِنَان من الخوف، على الرَّغم من معرفتِهِ ردَّ سيّدِه.

أجابَ أبو عبد الله: "إنّه ليس للبيع". فاسترخى سِنَان. "ولا بأيّ ثمن. أعلمُ أنه يبدو كما لو أنه قد تربىّ على بيضِ التماسيحِ ولحمِ البشر. ولكنّني

لا أستطيع الاستغناءَ عنه. وبصرفِ النظر عن أيّ شيء آخر فهو يستطيع أن يحضّر طاجن لحم خروف كطعام الجنّة. ويمكنُه القراءة والكتابةَ بثلاثةِ خطوطٍ مختلفةٍ، بيدٍ أدقّ من يدِ مفتي فاس".

ابتسمَ سِنَان في نفسه. كان معلّمُه يتباهى دائماً بقدراته كنسّاخ. ولكنّ أبا عبد الله كان معلِّماً جيّداً. تذكّر سِنَان دروسَه الأولى في القراءة، متى؟ ربّما قبل أربعة عشر عاماً. وتذكّر كيف أعادتهُ تلك الدروس إلى دروسٍ سابقة، بالكادِ يتذكّرها اليوم، حيث كان يخرج للصيد وتقفّي الأثَرَ مع والدِه. كانت القراءةُ تقفّياً للأثر وصيداً لطرائد من الكلمات.

قال لسان الدين وهو يقودهم إلى الخارج ليعيدهم إلى تلك الساحة المتلألئة: "حسناً، إذا غيّرتَ رأيكَ يوماً ما فالعرضُ قائم".

وظهرَ في هذه الأثناء من شقٍّ في الخيمة المركزية رجلٌ في الثلاثينيات من عمره يرتدي عباءةَ مسؤولٍ متوسّط الرتبة. درَسَ سِنَان ملامحه: وجهٌ عريضٌ ببشرةٍ فاتحة، وعينان عسليّتان ولحيةٌ بنّية محمرّة، فعرَفَ على الفور أن دَمَهُ أمازيغي. لقد رأى ذلكَ الوجه في أنحاء المغرب جميعها تقريباً.

قال لسان الدين دون أن يحاول إخفاء نبرة محاولة النزول إلى مستواه:

"آه، زيد صاحب الأشغال، بتوقيتكَ المثالي كما العادة" وقدّم الشابُّ لأبي عبد الله. وسأل الوزير صاحب الأشغال: "ما هي أخبار مفاجأتنا السلطانية؟"

"أظنّ أننا سنجهّزها بفضل الله في الوقت المناسب، يا سيّدي".

فردّ لسان الدين: لا تظنّ، يا رجل، بل افعل" بالكاد رفع صوته، ولكنَّ سِنَاناً عرَفَ فجأةً لماذا كان صديقُ سيّدِه هو صاحب السلطة في هذا المكان.

بدا الانكماش واضحاً على زيد صاحب الأشغال وقال بصوتٍ رقيقٍ قبل أن يغادر: "كما تأمر سعادتكَ".

أسرّ لهم الوزير عندما رحل زيد "رجلٌ طيّبٌ، كما أخبرتُكَ، إنه من نسل الزيريّين، سلالة البربر التي أسّست غرنَاطَة، وهو يبذل قصارى جهده للارتقاءِ إلى مستوى أسلافه. أعلمُ أنني قاسٍ عليه بعض الشيء، ولكنني أحبّ إبقاءَهُ متيقّظاً."

تمتَمَ أبو عبد الله: "سوف أجرؤ على السؤال. ولكن، كفاكَ، يا لسان الدين، لا تتركني متشوّقاً هكذا. ما الذي يوجد داخل هذه الخيمة؟ وما هي مفاجأتُكَ السلطانية هذه؟ تبدو وكأنها نوعٌ جديدٌ من الحلوى. ربّما تكون كذلك .." واستدار واتَّجه نحو الشقّ في قماش الخيمة.

وضع الوزير يداً ثقيلة على كتف الرجل الضئيلة قائلاً: "لا تفكّر في الأمر، يا صديقي. سوف يبقى الأمر سرّاً حتّى يُكشَفَ عنه النقابُ في المولد النبويّ".

قال أبو عبد الله بعد أن أفلتَتهُ قبضةُ الوزير: "هيَّا، يا لسان الدين، يمكنكَ بالتأكيد أن تثق بي. ولا بدّ أنكَ فخور جدّاً بهذا العمل كلّه الذي قمتَ به، ولن يضاهيَكَ في هذا سوى سليمان نفسه عليه السلام".

قال لسان الدين بلطف: "حسناً، أعترفُ أن الاختيارَ الفعليّ لموضوع مفاجأة السلطان كانَ خيارَ زيد صاحب الأشغال. ولكن المفهوم الأصلي المهمّ للغاية كان فكرتي وحدي. ومجدّداً اعترضَت تلكَ العجوز الغولة ابن زَمرَك عليه لأسباب دينية، ولكن ..." وانطلق أذان العصر، خافتاً في البداية من المسجد خارج الفناء الجديد، ثمّ أخذت تردّده أصوات حادّة ثاقبة حول القصر بصوت أعلى.

سأل الوزير نفسه: "أين ذهب الزمن هذه الأيّام؟ الوقت كالسيف: إن لم

تقطعه قطعكَ .. إلّا إذا كنتُ أبا عبد الله. هذا ما قاله لنفسه وهو يحدّق في صديقه. الرجل الذي يبدو أنه قد أبرم صفقته مع الزمن، بشروطه هو.

قال أبو عبد الله وهو يتسمُ مُشجِّعاً: "كلّي آذان صاغية، يا لسان الدين. وأنتَ تعرفني. لن أخبر أحداً أبداً". تجاهل الوزير صديقَه. لن يستمرّ هذا السؤال الاستثنائي بعد الآن. نظر الوزير مباشرة في عينَيّ صديقه: "يا أبا عبد الله، من المستحيل أن تنال منّي هذا السرّ. قد ينجحُ تملُّقُكَ مع البرابرة مثل سلطان الهند والسند. أمّا أنا، فمحصّن. لذلك اسمح لي بدلاً من ذلك أن أتعمّق في سِرّكَ. أليس من المفترض أن تكون ميتاً؟"

الفصل الرابع

سمع عليّ، في الجهة الأخرى من الوادي في رَبَض البَيَازِين، آخِرَ ضيوفِه يخرجُ مترنّحاً من الباب الأمامي على الشارع. انتهت صلاةُ المغرب قبل فترةٍ، فقد كان الغَسَق قد نسج شباكاً من الكآبة في زوايا مختبره. وأدركَ عليّ لأوّل مرّة في ذلك العام أن الليالي قد أخذت تطول. وَضَعَ ذبالة في الفحم المتوهّج في الموقد، ثمّ أشعلَ المصباح الموجود على الرفّ فوق طاولة عمله. لا يحتاج سوى القليل من الانتظار حتّى جفاف المحلول. وهكذا عاد إلى مهمّته الأخرى، وهي كتابة النسخة النهائية من وصفة الدواء بالشِّعر.

لقد كانت فكرة رائعة من جانبه أن يدسّها في حُجُبِ الشِّعر، فتفاصيل وصفة الدواء دقيقة وخطيرة للغاية على أن يتمّ الاحتفاظ بها في الذاكرة وحسب. وسوف تكون كتابتها في نثر مكشوف بمثابة جنون محض. ربّما كان بإمكانِه بالطّبع تحويلَها إلى شَفرة. ولكنّها قد تقعُ في الأيدي الخطأ، وهناك الكثير من الأيدي الخطأ في غَرنَاطَة، وقد تجذُبُ إليها العقول المخادعة كلّها في ديوان كتّاب السلطان.

لا، الشِّعر أكثر أماناً بالطبع. إذ يمكنكَ بالشِّعرِ إخفاءُ أخطرِ الأسرارِ في أجمل الأشياء، حتّى لو كانت غامضة، وأن تسلّمها للشخص المطلوب بيدِ مغنّيتكِ الجميلة .. لقد كرِهَ نفسَه لاستخدامِه لبنى على هذا النحو. ولكنّها مثّلت الأداة المثالية للتآمر، فهي رسولٌ خفيّ وغير مرئيّ بوصفها

جارية وامرأة، ولكن، ليس لديها على الأقلّ أيّ تواصلٌ مع ليث البغيض. فقد كان كلّ شيء يتمّ عبرَ وُسطاء.

عادَ إلى الشِّعر، إلى تلك الرسالة المهمّة، ليكتُبَها على بحر الرجز، وأخذ ينقر الإيقاعات على الكرسي وهو يشكّل الكلمات، مقسّماً لحظات الزمن إلى مقاطع صوتية:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن ...

سادَ الظلامُ في المختبرِ ولم يبقَ سوى جزيرةٍ من ضوءِ المصباح، حيث كان عليّ يصيغُ الكلمات بصمتٍ. سعى علي لتحقيق الكمال بعيد المنال، ولكن، ربّما كان ينبغي عليه أن يستسلم: فالكمال لله. وَمَضَ المصباحُ ووَمَضَتِ الكلماتُ، والأفكارُ. والتمعَ شيءٌ ما عبر الشبكة، لا بدّ أنه كان برقاً، نعم، كان هناك قعقعةُ رعدٍ بعيدة. وأدرَكَ عليّ وجودَ وميضٍ آخر، وهو فراشة جاءت في غير أوانها، تطارِدُ لهبَ المصباح، ثمّ وميضٌ آخر هو التماع خفيف لمخلبٍ رماديّ، يطارِدُ الفراشة. شَتَمَ عليّ القطّة بصمت. ثمّ وَمَضَ مصباحٌ آخر وتعالى صوتُ لبنى.

"هيَّا، يا علي ... أين هو؟"

عرفَ عليّ مقصدَها بالضبط. كان عليه توخّي الصّدق .. "حسناً، لقد أتلفتُ واحداً آخر". مدّ غربال الكُسكُس، وكانت ثقوبه مسدودة بالمادّة السوداء الجافّة.

"كيف تتوقّع مني إطعامَكَ وأنتَ تدمِّرُ مطبخي؟ هل عُدتَ مجدّداً لإعداد فطائرَ الطينِ ... قد يظنّ الكثيرون أنكَ في الرابعةِ ولستَ في الأربعين من عُمرِكَ".

قال: "هذه آخر مرّة" وهو يعلم أنها كانت فعلاً المرّة الأخيرة على الأرجح. نظرت إليه لبنى غير مقتنعةٍ، ثمّ استدارت لتذهب.

قال عليّ: "انتظري، اسمعي هذا". وتلا الأبيات التي كان يعمل عليها، وعندما انتهى أغمضت لبنى عينَيها وكرّرتِ الأبيات بصمت محرّكةً شفتَيها بالكلمات. كانت تمتلكُ تلك المقدرة الرائعة والتي لم تنقرض بعد بين الشعراء الحقيقيّين، على حِفظِ الشِّعر بسماعِهِ من مرّة واحدة.

"هناكَ تفعيلة مكسورة في البيت الذي يحتوي عبارة (رُجمُ أرَغون)".

حدّق فيها مرعوباً من خيميائها الخاصّة: لقد علّمها حِيَلَ الشِّعر، وقد تخطّتهُ الآن، بل سبقته. يبدو أنها قد قرأت أفكارَه فقالت وهي تبتسم في ضوء المصباح:

"*لقد علَّمتَني الرماية كلّ يوم*"

فردّد مُكمِلاً البيتَ القديم: "*ولمّا استدَّ ساعِدُكِ رميتِني في قلبي*".

مدّت لبنى يدَها داخل ياقته المفتوحة وتركتها تنزلقُ على خط الشَّعر المؤدّي إلى سُرّته، واستقرّت هناك، باردة وناعمة. لفَّ ذراعه حول خصرها، فوق برزخ وركها، فقالت فجأة وهي تبتعد:

"وقصيدتكَ، ماذا تعني؟"

"إنها تعني ما تقوله، وتعني أكثر من ذلك بكثير، كما ينبغي للقصائد أن تكون دائماً".

أومأت برأسها، ومدّت يدها نحو الغربال التالف. وتعالى صوت المؤذّن من المئذنة القريبة:

"اسمع، هذا أذان العشاء، فلا تتأخّر".

فرد عليها: "سأحاول" ثمّ نادى عليها: "هل يمكنكَ فعل شيء ما حيال قطّتكِ هذه؟ لقد فَقَدَت بالفعل إحدى أرواحها السبعة. أنا التي أفقدتُها

إيَّاها عندما قلبت إناء الماء في ذلك اليوم ودمّرت عملي."

وقال لنفسه: "*ولو لم تفعل ذلك فلم أكن لأتوصّل إلى ...*" وقد حفّزت هذه الفكرة ذاكرته. خاطبَ ظلَّ محبوبته عند المدخل:

"سوف نحتاج إلى المزيد من الفتيل للمصابيح" ومدّ ذيل فأر من القطن المبروم "هذا كلّ ما بقي لدينا. فالليالي قد أصبحت أطول".

ارتجفت لبنى، ونادتِ القطة التي بقيت في مكانِها صامّةً أُذُنَيها عن نداء سيّدتها، كما كان عليّ صامّاً أُذُنَيه عن نداء المسجد، مفتونة برقصةِ الفراشةِ حولَ اللهب.

الفصل الخامس

اختتَمَ الرجلُ الذي يُدعى ليثاً صلاةَ العشاء بقائمةٍ من الأدعيةِ الصامتة لربّه، هناك في الجانب الآخر من الوادي في مكانٍ خفيّ لا يعرفُهُ الكثيرون. وكانت إحدى هذه الأدعيةِ مخصّصة له كالعادة، والباقي كلُّها لعناتٌ وحسب.

والتفتَ عندما انتهى لمواجهة السِّباع الآخرين الذين كان بعضهم ما يزال راكعاً يهمِسُ بطلباته وأدعيته الخاصّة لله تعالى. ولكن، سرعانَ ما تفرّقَ الصفّانِ لتشكيلِ دائرةٍ، وعدّلوا جلستَهُم متربّعينَ على الأرض الصلبةِ الوَعِرة. لطالما تحدّثَ إليهم في هذا الوقت بالذات عن العنف والعبادة والشهادة والطهارة بصوته اللطيف الرخيم. ولطالما حمّسَهم وجعلهم مستعدّين للموت في سبيل الله كما ظنّوا، ولكنهم كانوا يموتون في سبيل ليث في حقيقة الأمر.

أمّا الليلة، فلم يعد بإمكانِه تجاهُلَ غضبِهِم المتزايد. لقد تنامى هذا الغضب لأيّامٍ وأسابيعَ حتّى، بينما كان يحاول تجاهله. أمّا الليلة، فقد تغلّبتِ السوداء المتقيّحةُ في أكبادِهم، والتي كان يستطيع شمّها حرفياً، على جاذبيّتِه. سوفَ يسمحُ لهم بالتحدّثِ أوّلاً. نظرَ إليهم، وضوء المشعل الذي يتصاعَدُ منه الدخان يومِضُ في عينَيه الخضراوَين، ومَسّدَ على اللحية التي بدت وكأنها لا تنتمي إلى هذا الوجه الأشبه بوجه الجان. تنقّلت نظراتُه بين الأشخاصِ المتحلّقين حول الدائرة، ثمّ ثبّتَها على عينَي أحدِهِم، فطأطأ رأسَهُ في الأرض على الفور ... "تفضّل، يا ضِرغام ... ما الذي يدورُ في ذهنكَ؟"

تجرّأ صاحب الوجه الطفولي الذي ما زال في منتصف طريقه للرجولة على النظر في وجهه:

"لا شيء، يا شيخ ليث". أومأ ليث برأسه موافقاً، فقد كانت إجابة صادقة. كان هذا الذي يُدعى ضِرغاماً من عائلة حرفيّين فقيرة من رَبَض البيَازِين مثله. ولكنّه على عكس ليث لم يكن يتمتّعُ بالكثيرِ من الذكاء، بل كان رأسماله كلّه الوفاء. فكلّما أصبحتِ الأمورُ على المحكّ، كان ضِرغام أوّل مَن يضحّي بنفسه.

التفتَ ليث إلى وجهٍ آخر، وكان هذا الوجه متطاولاً وكئيباً. "وأنتَ، يا حَطّام؟"

كالعادة، لم يكن حَطّام طويل القامة شاحب الوجه كالجثّة بحاجة إلى أيّ شيء يدفعه للتحدّث. فانبرى مباشرة:

"يا شيخ ليث، انظر أين نحن". رفَعَ يدَيه وأشار بكفَّيه إلى السقفِ الصخري المنخفض "نحن نسمّي أنفسَنا السِّباع. فلماذا نختبئُ هنا في هذه الحُفرةِ، مثل الثعالب؟"

لم يسمع ليث أيّ همهمة بالموافقة، ولكنه شعر بواحدة. فحتّى لو كان قلبكَ منشرحاً للشهادة والجنَّة، فإن هناك حدوداً لما يتحمّله سائرُ جسدكَ على الأرض، أو تحتها. ما يزالون هنا منذ أشهر، ولم يخرجوا إلّا نادراً من هذه الأنفاق والغرف التي تفوح منها رائحة البول والجرذان والخفافيش. على الأقلّ كان هذا الجزء المركزي من مقرّهم تحت الأرض جافّاً، مثل مخزن التبن. ولكنّهم كانوا يرتجفونَ من البرد ويتخبّطون في الظلام، وعندما كانوا يصعدون ويخرجون للتموين وجَلبِ الإمدادات، كان يخرجون في الليل دائماً. وكان حَطّام على حقّ.

أخذ ليث ينظرُ ببطءٍ إلى عينَي الرجل المُربكتَين العميقتَين المرتبِكتَين:

"لأنّ السَّبع يا حَطّام يكمنُ في عرينِهِ حتّى تحين اللحظةُ المناسبة. ولن نجدَ والحمد لله عريناً أفضلَ من هذا، وذلك كلّه بفضلِ أسد. ولولاهُ لما كنّا عثرنا على مكانٍ مثل هذا أبداً". وتفرّس ليث في الوجوه الأخرى وتابع: "هنا نحن آمنون، وبعيدون عن العيون، وقريبون منهم تماماً في الوقت نفسه. وهل هناك أيّ مكانٍ آخرَ يمكننا أن نجدَ فيه الإمدادات المطلوبة من أهمّ الموادّ التي نحتاجها؟ بدون هذا المكان، لن يكون هناك دواء"، ونظر إلى الأعلى وتفرَّسَ في الصخور "ولا يعدو القليل من المعاناة الجسدية جزءاً بسيطاً من الثمنِ الذي ندفعُهُ مقابل الخلود في الجنّة".

"كلامكُ صحيح، يا شيخ ليث". كان هذا صوت صارم الذي يشبه صوت الفقهاء وطَلَبَة العلم، أكبر السِّباع سنّاً. "ولكنّ السؤال الذي ينبغي أن نتجرّأ على طرحِهِ هو: إلى متى؟ هل تعلم ماذا قال الشاعر:

وَالأُسُدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ما اِفتَرَسَت
وَالسَهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ

صارم هو المتعلّم الذي رفضوه عندما تقدّم لوظيفة في البلاط. كان ليث يعلمُ أن خيبةَ الأمل تمثّل في كثير من الأحيان الحافزَ الأقوى للانتقام. وتابع صارم: "أنتَ تأتينا بتقارير من أسد، من قلب قصر الحمراء، عن الفجور المتفشّي الذي يصيب غرنَاطَة من قلبها بالعفن، وعن بناء قصر ترفيهي آخر في موقع تمّ تخصيصه لمدرسة، المدرسة التي كانت مخصّصة لتعليم كلمة الله، وعن رسم الكائنات الحيّة وتصويرها وحتّى البشر والعياذ بالله ..." وتلاشى صوته مذهولاً من هذا الكفر. "... صور مرسومة، كما يخبرنا أسد، بأيدي عبّاد الصليب الكَفَرَة الخاطئين الذين أرسلهم حليف الشياطين، الطاغية بِدرو!" بدا حَطّام وكأنه يبصق الاسم "إن هذه الصداقة التي تربط

سلطاننا مع النصارى، هي التي ستؤدّي إلى تدمير غَرناطَة، والأندلس، والإسلام! يجب أن نفعل شيئاً الآن!"

التمعت حبّاتُ البصاقِ المتطايرِ من فمِهِ عبر ضوء الشعلة، وأسكتت ليثاً حتّى أجفَلَهُ حَطّام من شروده: لقد وصل إلى نقطة التحوّل تلك بين العقل والجنون. ولكنه كان يزمجر على الأقلّ مع السِّباع الآخرين متعطِّشينَ للصيد. كان السِّباع متطابقين مع أسمائهم. يا لهذه الأسماء: نظر ليث مجدّداً في وجوههم واحداً تلو الآخر: حَطّام الهزيل المجنون، صارم الغاضب الشاعري، ضِرغام المؤمن المخلص المخبول، والبقية. اتّخذَ الرجالُ العشر الموجودون أمامه، إضافة إليه وأسد الغائب، أسماء عربية مختلفة لملكِ الوحوش. وكان هذا أكثر أماناً. فليثُ الوحيد الذي يعرفُ هوياتِهم الحقيقية كلّها. قيلَ إن للأسد أكثر من مئة اسم، أي أكثر من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين.

قال ليث بهدوء: "نحن اثنا عشر شخصاً" وتوقّفَ قليلاً ثمّ تابَع: "ولكنّنا بألفٍ ومئتَين من الأشرار .. واثنَي عشرَ ألفاً من الكفّار". والتمعت عيناهُ الخضراوان، ورأى أنّهم معه الآن، كرجلٍ وكسبع. "لا تكمن قوّة مجموعتنا وفخرنا بالعدد، ولا بالقوّة الغاشمة، بل بتضامننا ومكرنا وتخطيطنا أم هل أحتاج إلى تذكيركم بأن مجرّد خنجرٍ قاتلٍ لا فائدة منه هذه الأيّام؟ كان الخنجر بالطبع ممتازاً، في الأيّام التي كان فيها أمن البلاط متساهلاً، في القضاء على والد السلطان الحالي، السلطان يُوسُف ...".

وللحظة، سمحَ ليث لعقله بالعودة إلى الدّورِ الذي لعِبَهُ في تلك الفترة التاريخية المجيدة والدنيئة، ثمّ لجم نفسه. كان يعلم إلى أين ستقوده تلك الذكريات.

وتابع كلامه: "لا، وكما تعلمون جميعاً، لدينا طريقة أخرى ... للوصول إلى الأحمر". ابتسم للرجال، ثمّ ركّزَ نظرة عينَيه الخضراوَين على حيدر. "ما الأخبار؟"

كان حيدر هو العقل العلمي المدبّر، ذلك الشخصُ الهادئ صاحب الإيماءاتِ الصغيرة الدقيقة، والعقل الدقيق، واليدَين الثابتَين اللتَين كانتا مثاليَّتَين للقياس والتركيب (والاختلاس: فقد حصل على عكس صارم على وظيفة حكومية، ثمّ فقدها، لأنه فشل في تقاسم الغنائم مع رؤسائه). "لقد زاد معدّل إنتاجِنا اليومي، يا شيخ ليث. إن مخزون الدواء يرقى، كما رأيتَ، إلى مستوى التوقُّعات". وجّه حيدرُ نظرةَ مرتجفاً إلى الحجرة الجانبية المرتفعة "هذا كلّ ما يمكنني قوله في الوقت الحالي. ولا أرغب الآن بالطبع بالضغط على ..." وارتجف جفناه قليلاً "ولكنني ليس بمقدوري سوى اتّباع الوصفة السورية ... حتّى يفي الخيميائي بوعده".

وهنا برزت المشكلة. إذ لم يكن حيدر الدقيق والفعّال أكثرَ من متّبعٍ ومقلّدٍ للوصفاتِ يفتقرُ لشرارةِ العبقرية، أو ربّما الحظّ، التي يتميّز بها العالِم الحقيقي، والتي يتمتّعُ بها عليّ الخيميائي. وهكذا أصبحَ الخيميائي، ذلك الزنديقُ الشهيرُ الذي يشربُ الخمر، الشخصَ الذي يعتمدونَ عليهِ جميعاً. فعليّ هو الذي اكتشفَ التحسينات في وصفة الدواء، والتعديلات التي من شأنها جعل الدواء فعَّالاً على نحوٍ مدمِّرٍ ومرعِب.

قال ليث: "لن يطولَ انتظارُنا بإذن الله، فآخر الأخبار من الخيميائي تقول إنه لا يحتاج سوى إلى عدّة أيّامٍ أخرى. ولمعلوماتكم، سوف أذهب الآن لرؤيتهِ شخصياً ... لممارسة القليل من الضغط عليه".

فردَّ حَطّام: "الضغط! أليس كذلك؟ تقصد أنكَ سوف تضغطُ بعض الذّهبِ في يدِهِ النّتنة، لينفِقَهُ على الخمر والحشيش والزنا و ...".

قاطع ليث حَطّاماً بهدوء وبنظرة باردة: "الغاية تبرّر الوسيلة".

****

وشدّ ليث طيلسانه، وهو نصف شال ونصف خمار، على رقبته بشدّة.

لقد اقتربت نهاية العام وجاء البرد. وخاصّة هنا، حيث كانت هناك رعشة تسري في الشِّعب المظلم، تعبث بالنهر غير المرئي وأوراق الشجر الطافية عليه. وقد انتصبتِ الجدران فوقه أيضاً، وكان حضورَها الهائل محسوساً للحظة في وميض البرق ولم يُر إلّا الآن. شدّ ليث طيلسانه بقوّة وزاد من سرعته.

الغاية تبرّر الوسيلة. لقد حدث ذلك بالتأكيد قبل أربعة عشر عاماً. وكان هناك في الواقع نهايتان: مقتل السلطان السابق، وموت قاتل السلطان، وهو مبروك، العبد الأسود الذي منحَهُ ليث مثل هذا الألم.

وهذه المتعة ... أطلق ليث العنان الآن لذكرياته، وشَعَرَ بتدفّقِ الدّم في جسده حتّى أصبح كلّ عِرقٍ من عُروقه ينبضُ بذلك الاسم: مبروك، مبروك. ولا يهمّ مدى توبة دماغه، بل قلبه أحياناً. ولا يمكن أبداً لجسده، تلك الكومة الحقيرة من الغبار والرماد، والعظام والدماء، كبتَ ذكريات تلك المتعة التي سكنت في كلّ خليّةٍ من خلاياه.

وسكنه كذلك الذنب. فقد وجد ليث أن قتل عدوّ بشري، حتّى لو كان محبّاً لبني البشر، أسهل بكثير من قتل ندمه المزمن. وهكذا تعلّم أن يتعايشَ مع هذا الندم، وأن يستمتعَ به.

ولكنَّ كلَّ شيءٍ سوف يتطهّر قريباً ... سرّع ليث من خطواته مجدّداً، وشدّ الطيلسان بقوّة أكبر. قال الخيميائي أحتاج بضعة أيّام أخرى وسيكون الدواء الجديد جاهزاً، وسوف يحصلون على الطهارة والقوّة والقدرة.

القدرة على تدمير الفجّار والكفّار. وربّما القوّة لحُكم العالم، بل تدميره أيضاً.

الفصل السادس

وضع أبو عبد الله الكأس الثقيل وقال: "هذه هي الحياة!". وظهرَ على الفور خادمٌ مسيحيّ صامت من العبيد وأعاد ملئه. في الكأس شراب بلون الدم، يُتَّخذُ من الرمّان من ضيعة لسان الدين ومخلوطة بالثلج من جبل شُلَير، كانت تلتمعُ في ضوءِ عشراتِ المصابيح. "لقد أخبرتُكَ أننا سوفَ ننضمُّ لعلية القوم وللدوائر العليا، يا بني".

نظر سِنَان الذي كان ما يزال جالساً حيث صلّى صلاة العشاء بجانب أبي عبد الله، من حوله. لم يحلم يوماً بوجود مثل هذه الدوائر تحت السماوات السبع. كان الجدار الطويل لجناح ضيوف لسان الدين مجرّة من مصابيح بلّورية موضوعة في كوّات، تحيط بها جِرار كبيرة مذهّبة في مظلّات وتجاويف. وقد عُلِّقت على الجدران الجانبية منسوجات نفيسة من المُخمَل المصري، والحرير الصِّقِلّي المطرّز بصور غزلان متقافزة، وبالخطوط العربية المتعرّجة، والأقمشة الدمشقية المزركشة من الديباج. وقد غطّت الأقمشة الباهظة النفيسة المراتب والوسائد المبطّنة على الجدران. وقد نُشرت قطعُ شطرنجٍ منحوتةٍ بجمالٍ أخّاذ على طاولة خشبية مطعّمة واطئة أمامَ سيّده على استعداد لخوض المعركة. كانت الأبواب الكبيرة القابلة للطيّ التي شغلت الجدار الرابع للجناح مفتوحة. كان الجوّ في الحقيقة بارداً بعض الشيء، ولكن الروائح التي كانت تنبعث من الحديقة خارج الأبواب تستحقّ فدية سلطانية، كما قال أبو عبد الله، من الياسمين الهندي والمنثور، والآس وزهر العسل، واختلطت روائح هذه الورود كلّها بصوت نافورة تغذّيها "عين الدمع" القريبة.

قال أبو عبد الله: سأبني ذات يوم عندما يضعوني في منصبٍ وزاريّ مكاناً مثل هذا. وسأجلبُ بعض العبيدِ البيضِ المُحترمين ليحلّوا محلّكَ، يا سِنَان ...".

فتحَ سِنَان فمه مدهوشاً.

"... لا تخف، يا سِنَان، فعندما تصبح كاتب سرّي، سوف ترتقي أنتَ أيضاً". مُلِئَ إبريق الشراب مجدّداً، ولوّح به أبو عبد الله عالياً. "لن ينقصني أيّ شيء يمكن شراؤه بالمال. وستمنحني السلطة أيّ شيء آخر لا يستطيع المال شراءه. أيّ شيء باستثناء .." وسكتَ فجأةً وحدّق في الظلام العَطِر.

وفجأة، طغى صوت النافورة على الكلمات التي لم تقل.

"باستثناء ماذا يا مولاي ؟"

"تعرف، يا سِنَان".

أومأ سِنَان موافقاً.

كان يفقدُ الخيطَ دائماً في محاولاته لتجميع قطع أُحجيَّة الحياة العائلية السابقة للرجل العجوز، إذا أمكن تسميتها بالأُحجيَّة، إذ يتوقّف العَدّ بعد زوجته رَقم عشرة. سِنَان متأكّد تماماً من أنه خلال عقود سفر أبي عبد الله، كان هناك خمسة أطفال معروفين، منتشرين في أنحاء آسيا جميعها من دمشق إلى دلهي. متناثرون هنا وهناك ومتروكون وربّما مات جميعهم الآن. وأمّا الخمس عشرة سنة التي قضاها منذ دخوله بيت أبي عبد الله، فقد كانت هناك ثلاث زوجات أخريات - مطلّقاتٍ كسائر نسائه - وطفلان آخران ماتا في سنّ الطفولة. ولم يعرف سِنَان شيئاً بالطبع عن هؤلاء النساء الثلاث اللاتي سكنّ المنزل نفسَه الذي كان يعيش فيه. فقد كنّ بالنسبة إليه موجودات فيما وراء الهوّة الاجتماعية العميقة مثل الفجوة الفاصلة بين جهنّم والجنّة. أمّا المفاجئ أنه لم يكن يعرف شيئاً

عن مشاعر سيّده تجاه هؤلاء النساء، وبقي استنتاجه الوحيد غيابَ أيّ نوعٍ كان من المشاعر.

فكّر سِنَان في أنه كان يعرف السبب. فقد كان بصفته عبداً شخصياً بمثابة صدى صوتِ سيِّدِه. وكما يستجيب العود الجيّد الصنع بفعالية ويردّد الأصوات التي يريدها عازفه مع مرور الوقت، كذلك بدأ سِنَان أيضاً في التفكير، بل باستباق التفكير في أعمق أفكار سيّده.

كان الأمر كلّه يتعلّق بالمحظيّات. وإذا كان قد تخلّى عن إحصاءِ زوجاتِ أبي عبد الله، فإن سِنَاناً لم يحاول حتّى تعداد الجواري. هؤلاء هنّ النساء اللواتي كان يتحدّث عنهنَّ سيّدُه، سواء منحه إيّاهنّ أحد ما أو اشتراهنّ أو تبادلهُنَّ مع أحدٍ ما على طول الطريق في رحلاته.

هؤلاء اللواتي وجدهنّ مؤثّراتٍ بكلّ معنى الكلمة، أمّا الزوجات، فقد كنَّ أشبه بقيد عليه ولم يثرنَ مشاعره على الإطلاق. كانت حياة أبي عبد الله تتأرجَحُ بين قطبَين: الحركة والركود، المتعة والواجب، التخلّي والانخراط والتورّط. وهناك في مكان ما، حيث تلتقي الأضداد وتتلامس، كانت السعادة الكاملة. تلك النقطة العابرة كانت موجودة فقط على الطريق في الرحلات، ولم يصل إليها أبو عبد الله إلّا مرّة واحدة.

تنهّدَ الشيخ، وقد تلاقت أفكارهما: "في تلك المرّة فقط كما تعلم، في جزر المالديف. لا أزال أسمعها تضحك ... ولكنني بعد ذلك أفسدتُ الأمور واضطُرِرتُ إلى الهرب". حدّقَ في الظلام المعطّر خلف المدخل. وتلا بصوت رتيب منخفض وواضح:

تأبــى النفوسُ الضيــمَ إلّا في الهوى
فالحُـــرُّ عبــدٌ والعزيـــزُ ذليــلُ

ولكنكَ لن تفهم، يا سِنَان. لن تفهم ... هذا الشعور بالحاجة إلى

المرأة. كم مرّة عرضتُ عليكَ شراء زوجة صغيرة لطيفة؟ سوداء أو بيضاء أو حتّى مخطّطة إذا أردتَ. وكنتَ تهزّ رأسكَ المفلفل فقط". فجأة التفتَ وابتسمَ ابتسامةً عريضة. "أعتقد أحياناً أنكَ يجب أن تكون خصي سرّ بدلاً من كاتب سرّ ... لنفكّر في الأمر، لم يفت الأوان أبداً لقصّ تلك الأعضاء. ستكون قيمتكَ أكبر بدون خصيتَيكَ عندما أعرضكَ في سوق العبيد".

"مولاي"

ضحِكَ أبو عبد الله وهزّ رأسه. "أنتَ تعرفني أكثر من ظَهرِ كفّكِ السوداء، يا سِنَان، ولكنّكَ حتّى اليوم لا تميّزُ عندما أحاول استفزازكَ. على أيّ حال، تكفينا هذه الكآبة. هيَّا بنا لنذهب في نزهة إلى البيَازِين. فأنتَ تعرف ماذا قال النبي صلّى الله عليه وسلم: "استعينوا على كبركم بالمشي ..".

كان سِنَان على وشَكِ أن يذكُرَ احتماليةَ هطول الأمطار، ولكن الرّعدَ وفّرَ عليه ذلك وأطلق تحذيراً.

قال أبو عبد الله: "يبدو أننا سنبتَلُّ بالأمطار. لا أحد يعرف، فقد نلتقي بامرأتي المثالية، ولا زلتُ أمرِّرُ في خيالي ما رأيتُهُ حتّى الآن في غَرنَاطَة. وإذا لم نجدها ... يمكننا أن نعود ونلعب الشطرنج. بل يمكنكَ أيضاً أن تدع سيّدكَ العجوز يفوز لمرّة واحدة".

خرجَ سِنَان لإحضارِ مصباحٍ مغطّى من مساكن العبيد. وأحسّ في الخارج، في غمرة عطر الليل المُسكِر، برائحة مميّزة للغاية. لم يعرف مثل هذه الرائحة من قبل في حياته مع أبي عبد الله، الحياة التي عاش معظمها في المقاطعات الخارجية القاحلة من المغرب: رائحة الأرض الرطبة من رذاذ النافورة. وفي لحظة أسرع من الفكرة أعادته إلى ضفَّة النهر العظيم وإلى الذكرى التي لم تغادره أبداً.

قال أبو عبد الله إن سِنَاناً لن يفهم. بل يفهم. فهو أيضاً قد أحبَّ مرّة

في يوم ما. ولكنّهُ كان يعلم، على عكس أبي عبد الله، أنه لن يستطيع أن يحبّ مرّة أخرى.

****

لم يكن هناك الكثير من الناس في الخارج، وليس الوقت المتأخّر والظلام فقط ما أبقى سكّان غَرنَاطَة في بيوتهم، بل بوادر العاصفة أيضاً. تذكّرَ سِنَان عندما رأى في الصباح على قمّة برج المراقبة، السُّحبَ تغلي فوق حافّة التلال. أصبحت العاصفة الآن طليقةً في السهل بالأسفل، تهزُّ الأغطية وتُلقي أشواكاً حادَّة من البرق. ضرب رمح ثلاثي الشعب رأس جبل شلَير المُغطّى بالثلوج، ليشكّل ظلّاً لأبراج قصر الحمراء بإضاءة خلفية ساطعة. فقال أبو عبد الله: "يا الله، يا أكرم الأكرمين. يبدو أنها سوف تُمطر أمطاراً غزيرة حقيقية". وصلت إليهم زمجرة رعدٍ متأخّرة، وكأن الجبل على وشك أن يئنّ من الضربة. وكانت غَرنَاطَة في حالة من الترقّب، في انتظار الطوفان.

لكن المطر لم يهطل حتّى الآن في أثناء سيرهم في أزقّة البَيَازين شديدة الانحدار والاشتباك، وهما يجتازان السلالم وأكوام الرَّوث على الضوء الخافت لمصباح سِنَان الذي استعاره. ظهرت أضواءٌ خافتة أخرى من ثقوب في جدران المنازل العالية الفارغة، إلى جانب الأصوات الخافتة والشكاوى والتملّق والصلوات والأدعية. وكان الأشخاص القلّة الذين صادفوهم يحملون مصابيح أيضاً، وبدوا جميعهم لسِنَان بوجوههم المضاءة باللهب والبرق أقرب إلى الغيلان من قربهم للبشر. لقد تصوّرهم وهم يَنسِلُون من صفوف القبور التي رآها من البرج ... ثمّ تساءَلَ كيف بدا هو لهم. ربمّا أسوأ من الغول، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار عبارات الخوف التي أطلقوها وتمتمة أحدهم الذي استعاذ بالله من الجنّ والشيطان الرجيم. لا بدّ أن هذا كلّه بسبب موت السلطان السابق "على يدَي عبد أسود" كما قال ابن زَمرَك، زميل لسان الدين بن الخطيب البغيض. وهكذا أُلبِسَ العبيدُ السودُ جميعُهم هنا لَبُوس القاتل.

ولكنَّ سِنَاناً يتذكّر أن ظهورَهُ غير المعتاد في وَضَحِ النهار قد أثار أيضاً ردود أفعال أخرى، نظرات ماكرة من فوق نُقُب الوجوه، ومرّةً نظرات تقييم متلصّصة من خلف ستارة. حتّى إنه سمع تعليقاً بصوت نسائي، تمّ التأكيد عليه بدَفعَةٍ خفيفة من المتحدّثة على صَدرِ صديقتِها "... وأنتِ تعرفين ماذا يقولون عن السود ... أقصد عن *أشيائهم* ..." تلاها موجاتٌ من الضحك. فكّرَ سِنَان في الزَّرَافَة التي أرسلها إمبراطور مالي إلى سلطان المغرب كهدية ليتعرّف على هذا الحيوان، وأدرك كيف كان شعور ذلك الحيوان، فقال معزّياً نفسه، *إن الله مع الصابرين*.

ولكن سِنَاناً لم يختبر في هذه المدينةِ الجميلةِ الخطيرةِ شيئاً مثل النظرةِ التي تنتظره. كان قد دخل مع أبي عبد الله ممرّاً ضيّقاً للغاية، هو فجوةٍ عميقةٍ مظلّلةٍ بين الجدران العالية. سَلَكَا طريقَهما بحذرٍ شديدٍ متجنِّبَين المُخلّفاتِ والنفاياتِ عند أقدامهما، فتحرّك أمامهما ظلٌّ صار رجلاً لا يحمل مصباحاً. ولكنَّ وجهه ظهرَ للحظةٍ عندما كشفهُ ضوءُ مصباحِ سِنَان، فبدا مثل حيوانٍ مفترسٍ ليليٍّ قُبِضَ عليه وهو يصطادُ بين المنازل، كان رجلاً يرتدي طيلساناً ملفوفاً حول رقبتِه، ولديه لحيةٌ كثيفةٌ على وجهٍ رقيقٍ للغاية، وعينان خضراوان أعادتا سِنَاناً لرحلتِهِ الأولى عن طريقِ البحرِ مؤخّراً، عبر مياهِ المضيقِ المروّعة التي لا قرار لها. ورأى سِنَان في تلكَ اللحظة، في تلكِ العينَين المُضاءَتَين بنورِ المصباح، الاشمئزازَ والشهوة.

سمعا خطواتٍ تسرِعُ مبتعدةً. فهَمَسَ أبو عبد الله: "*حمانا الله*. لن ترغب أبداً في التعثّر بهذا الشيء ليلاً في زقاقٍ مظلم."

قال سِنَان: يا معلّم، لقد فعلنا ذلك للتوّ".

جعلتهُ ضحكةُ أبي عبد الله العصبيّة يشعر بالهدوء. كما جعلتهُ يدركُ مدى اهتزازِه بسببِ نظرةِ الكراهيةِ المطلقة والشوق. كان هناكَ شيءٌ آخر

أيضاً في تلك العينَين الخضراوَين، شيءٌ شدَّهُ إلى أعمق خبايا ماضيه، إلى ما وراء الذاكرة.

تابعا المشي واتَّسع الزقاق أمامهما، ورأى سِنَان في ومضةِ برقٍ أخرى أن المنازل هنا تبدو أكثر ثراء. تنبثق الشبابيك الأشبه بالصناديق من الجدران العمياء، وتغمر الشارع بالضوء المتقطع وتحوّله إلى صورة سلبية ليلية لفُسَيفِسَاء الغابة. هناك شيءٌ ما في هذا المشهد أعاد سِنَاناً إلى الوراء ...

وندّت صرخةٌ مفاجئةٌ وحادّة من إحدى الشبابيك. انفتح أحد المصاريع وقفز مخلوق طويل ورشيق أمامهما في الطريق.

حدث الباقي في لحظة مثقلة للغاية، لدرجة أنها بدت وكأنها أخطأت خطوتها، وترنّحت، وتوقّفت.

ضربَت صاعقةٌ بجانبهما في وميضٍ من الصوتِ والضوءِ والنارِ ممّا جعلهما يترنّحان. أمسك سِنَان بسيّدِهِ وسقَطَ معه عندما اصطدم الشبّاك الثقيل بالجدار الذي كانا يقفان بحذائه. استلقيا هناك بلا حَرَاك، ودون نَفَسٍ حتّى، في ذلك الصمت المروّعِ الذي لا ينتهي والذي أعقب ذلك.

بدأتِ الأصوات: خفقان قلبَيهما، فقد كانا على قيد الحياة، وأوّلُ أنفاسِهما المتصاعدة، وطقطقةٌ قاسية من الشظايا المتساقطة، وطقطقة ناعمةٌ من تساقط المطر.

استلقيا هناك منتظرَين حتّى يستعيد الوقت توازنه.

ثمّ انطلقت صرخة. كانت صرخةُ امرأةٍ، وبدا أنها نَفَرَت راكضة وهي تهذي صعوداً وهبوطاً بين المنازل. انتفضَ كلاهما من الصوت، ورأياها واقفةً في ضوءِ اللهب الذي يضيءُ الفجوة، حيث كان الشبّاك، وشَعرُها مكشوفٌ يتطايرُ منفوشاً، ويداها متشبِّثتان برأسها كما لو كانت تريد أن تحافظ عليه مثبّتاً على جسدها، ووجهُها الأبيض قد فغرت فيه فُوَّهة سوداء مصمتة، ولم

يندّ عنها إشارة للألم. اختفت ثمّ عادت للظهور في الشارع، ونظرت حولهَا يميناً ويساراً، مذعورةً كما لو أنها تلاحق صرختَها الضائعة، ثمّ طارت خلفَها بلا صوتٍ وابتلعَها الظلام.

كان أبو عبد الله جالساً ينظر في اتِّجاه ذلك الطيف، نحو الزقاق الضيّق الذي جاؤوا منه. ثمّ بدا وكأنه يستعيد رباطة جأشه. "انطلق إلى المنزل. ربّما لا يزال هناك شخص ما على قيد الحياة".

نهضَ سِنَان مترنّحاً. لقد ضربَهُ شيءٌ ثقيلٌ في مؤخّرة رأسه. وجد مدخل المنزل مفتوحاً على مصراعَيه، والباب الضخم وإطاره قد تحطّما تماماً وانفصلا عن الجدار.

دخل وهو ينادي. "هل من أحد هناك؟ هل من أحد في الداخل؟"

ولا جواب، سوى الرائحة .. قال سِنَان لنفسه إنها رائحة أشبه برائحة ... الجحيم. رائحة كبريت وعظم محترق.

كان الحريق في الغرفة الواقعة على جانب الشارع من الفناء الداخلي. نجح سِنَان في الدخول عبر المدخل، ولكنه لم يتمكّن المضي أكثر من ذلك. غطّى وجهه من الحرارة ورأى من تحت يده أن هناك شخصاً ما هنا. كان هناك رجلٌ على الأرض يحدّقُ في وجهِه.

لم يستطع الاقتراب أكثر فقد كانت الحرارة شديدة للغاية، وكانت ألسنة اللهب تقترب، ولكنه لم يهتمّ. كانت نظرة الرجل فارغة باردة عمياء. وأدرك سِنَان من اعوجاج رأسه أنه ميت. كيف ذلك؟ كان هناك غدير من الدماء على الأرض تلتمع في وهج النيران متّجهة نحوه آتية من الجثّة.

في اللحظة الأخيرة قبل اشتداد الحرارة، لدرجة لا يمكن معها تحمّلها، رأى سِنَان سبب انحراف الرأس ومصدر الدم، الذي جاء من جرح مائل وحشي مزّق رقبةَ الرجل بقوّة بهيمية وحشية، كاد أن يفصِلَ الرأس عن الجسد.

الفصل السابع

كانت قدما ماريا خشِنَتَين في يوم من الأيّام. لقد قاست هاتان القدمان من آثار طُرُقٍ ومساراتِ رعي الماعز ومن أرضيات البيادر، ومن أرضية الكوخ الترابيّة الممهَّدة، والذي لجأت إليهِ مع أخيها خايمي بعد أن اقتَنَصَ الطاعون والدَيهما. لطالما سبقت ماريا بهاتَين القدمَين أخاها في الركض وفي التسلّق. كان خايمي أصغر منها بالطبع، ولكن، ليس كثيراً، وكان صبيّاً بالطبع.

لقد أدركتِ الآن مدى الألم الذي تعانيه تينكَ القدمَين اللتَين كانتا قدمَي ماريا. لم تكن قد ركضت كلُبنى في حياتها أبداً حتّى هذه الليلة. تحوّلت قدما ماريا إلى قدمَي لبني، مختفيتَين في نعالِ قُرطُبيٍّ تداعبُهما السجاجيد، وتندسّان تحتها عندما تجلس أنيقة كقطّة على وسادة، حيثُ تتابعُ أصابعها التقسيمات على أوتارِ العودِ صعوداً وهبوطاً.

ولكن لبنى قد ركضتِ الليلة كثيراً حتّى هَشّمتِ الصخورُ قدمَيها الحافيَتَين. لم تكن تعلمُ إلى أين هربَت. كلّ ما عرفَتهُ أن قدمَيها تؤلمانِها بشدّة، لدرجة أنها حاولت تخيُّلَ أنهما قد انفصلتا عن جسدها. وأنهما *لم تعودا قدمَي لبنى على الإطلاق*.

ولكنها عرفَت في الحقيقة أن الألم كانَ في كلِّ شبرٍ في جسدها، وأنها لم تعد لبنى بعد الآن. عليّ هو الذي سمّاها بهذا الاسم، عندما منَحَ الجاريةَ التي اشتراها هويّة. كانت تلك هي الكلمة التي حاول أن يهمِسَ

بها وهو يحدّقُ في عينَيها والدمُ ينزفُ من ذلك الجرح في رقبته: لبنى، *بيضاء كاللبن*. لقد تلاشى اسمها مع أنفاسه الأخيرة.

حَدّقَت في الليل. لا شيءَ يمكنُ أن يقيسَ مدى الظلامِ الحالك، ولا شيءَ قادرٌ على جعلِهِ يتلاشى وينتهي. حتّى صلاة *أبانا الذي في السماوات* لن تخرج من شفتَيها. لذلك استلقت هناك تائهة في الزمان والمكان.

وتساءلت: إذا لم تعد لبنى موجودة؟ فهل بقي أيّ شيء كان من ماريا؟

كان لا يزال هناك شخصٌ واحدٌ يعرفُ ماريا: شقيقُها الأصغر خايمي، الذي سُبِيَ معها من سفح الجبل. الصبي الذي اعتنت به عندما مات والداهما، والذي احتضنته لتدفئه ونظّفت ملابسه عندما سقط من ذلك الجدار، والذي صفعت وجهه ... لقد تخيّلت أنفه الملتوي المحبَّب وتساءلت عمّا إذا كان قد استقام الآن. كان خايمي قريباً جدّاً منها مكانياً، ولكنهُ قد تحوّلَ إلى شخصٍ آخر أيضاً. لقد كان بعيداً عن المنال بكلّ معنى الكلمة، باستثناء البُعد المكاني. لقد انتهى خايمي، وكذلك انتهت ماريا أيضاً.

استلقَت هناكَ ضائعةً تائهةً في الزمان والمكان وذاهلةً عن نفسها مُحدّقةً في الظلام. وقد غمَرَها شعورٌ غريبٌ على نحو ما بالتحرّر.

****

لم تلاحظ أن قطعةً من الليل قد أصبحت رماديةً سوى عندما ظهرَ عليها شبحٌ بشريٌّ ببشرةٍ أغمقَ من سواد الليل وانحنى نحوها. لم تشعر بالخوف، فقد تغلّبَ الألمُ تماماً على أيّ خوف. استدار الشبح ببطء وغادر.

وفجأةً عرفت مكانَها: إنها هنا في الكهف، فوق القبور. وفكّرت للحظةٍ في الموتى الممدّدين كلّهم تحتَها. ولكنها لم تخَف منهم أيضاً. ربّما انضمَّت إليهم ... ربّما كان هذا ما حدثَ فعلاً. ولكن، لا: لقد أخبرها عليّ ذات مرّة

أنَّ أوَّلَ ما يحدثُ عندما يدفنونكِ، أن يأتي ملَكان ويسألانكِ عن اسمكِ ودينكِ. وسألها: "وماذا ستقولين لهما؟ لبنى أم ماريا؟"

فقالت: "كلاهما على ما أعتقد. وسأخبرُهما أنني مسيحيّة".

فضحِك عليّ "أعتقد أن الملائكة مسلمون صالحون. ولكن، هذا شأنُكِ إذا ما أردتِ تصعيبَ الأمورِ على نفسِكِ".

وتابع عليّ أنّ ما سوفَ يحدثُ تالياً أنكِ ستسمعينَ وقعَ أقدامِ الأشخاصِ الذين شيّعوكِ ودفنوكِ وهم يغادرون.

لم يكن هناك أيّ ملائكة، ولا أيّ صوتٍ لوَقعِ أقدامٍ تغادر. لم تتذكّر سوى ذلك الشبحَ الصامت الذي انحنى عليها، وهو تلك المرأة العجوز التي تعيش في الكهف المجاور. وتذكّرت الآن أنَّ العديدَ من الكهوف هنا كان بها قاطنون مختلفون: فقراء ومجانين ومتوحّدون ومنبوذون. وكانت لبنى ترى أحياناً أعينهم ترنو إليها من جوف الظلام، مثل أعينِ الحيوانات المذعورة. أمّا المرأة العجوز، فقد كانت مختلفة. كانت تأتي دائماً إلى مدخل مخبئها، وتحدّقُ فيها مثل المشعوذة.

لقد تذكّرَت الآن السبب الذي دفعَ بقدمَيها الملطّختَين بالدماءِ إلى هنا: لتطلبَ المساعدة. ولكن، ممَّن سوف تطلبها، لم يكن لديها أيّ فكرة.

كانت خيوطُ الصباحِ الرماديّة تغزو الليل الحالكَ ببطءٍ مع نُذُرِ الفجر. وأخذتِ التفاصيل تتكشّف داخل الكهف: كوّاتٌ خشنةٌ منحوتةٌ في الجدران، وكومةٌ من الخِرَقِ التي لم يحرّكها أحدٌ من مكانها أبداً منذ عاد الطاعون إلى المدينة في السنة الماضية، عندما ترك الناس هذه الملابس والخِرَقِ المهجورة هنا دون مساس. فقد انتشرت إشاعةٌ قوية تقول إن الطاعون كامنٌ في طياتها، وقيلَ إنّ نصفَ جامِعِي الخِرَقِ في غَرنَاطَة قد ماتوا في تلك الزيارة الأخيرة.

وظهرت تفاصيلُ أخرى من ذاكرتِها. الطاعون ... لهذا السبب قال عليّ إنَّ هذا الكهف كان مكاناً مثالياً. فقد كان آخر قاطنيه ضحيةً لذلك الطاعون، وهكذا لن يتجرأ أحد على الجَوس هنا. قال لها عليّ: "لا تحضري معكِ سوى ما أعطيتُكِ إيّاه، وخذيه إلى الحجرة الداخلية" وها هو مدخلها الذي ما زال مظلماً بين الصخور المضيئة "وضعيهِ تحتَ الحجرِ الموضوع في الكوّة الأعمق".

سألَتهُ مدركةً أنه لا يفترض بها أن تسأل:

"ولماذا؟"

فتفرّس فيها عليّ وقال: "هناك شخصٌ ما يساعد، ولا تسألي مَن هو، ليس الآن على الأقلّ".

فاضت عليها المعرفة فجأة، وتحوّلت عبارة "ليس الآن" التي قالها عليّ إلى "أبداً".

وأخيراً بكت وأطلقتِ العِنان لنفسها بالنحيبِ مستلقيةً هناك في غمرةِ ذلك الضوء القويّ البارد، ولم تعرف المزيد حتّى جاؤوا لها.

الفصل الثامن

قال أبو عبد الله: "يا عزيزي سِنَان، لا أنكر أن ظاهرة الرعد شيء غريبٌ حقّاً". كان ذلك في الصباح التالي لتلك الصاعقة من السواد في رَبَض البَيَازِين. "يرى بعض العلماء على سبيل المثال أن شجرة الكادي لا تزهر إلّا عندما يضرب البرق الأرض بالقرب منها".

"نعم، ولكن، يا مولاي ..."

تجاهَلَ أبو عبد الله من على سرج بغلته المتهادية فتاهُ سِنَان الذي كان يسيرُ بجانب الدابّة "وقد سمعتُ مرّة عن قطّةٍ في جبالِ اليمن ضَرَبتها صاعقةٌ وهي مسترخيةٌ على طبلة. فوجدوها محبوسةً داخل تلك الطبلة سليمةً معافاة تماماً".

"ولكن، يا مولاي، أُقسم أنني رأيتُ ذلك بأمِّ ..".

"هذا مجرّد هراء، يا فتى. كان ذلك مجرّد خدعةٍ بالضوء، أي ظِلّ سببُه لهيبُ النيران. فمتى حصل أن ذَبَحَتِ الصاعقةُ رجلاً؟"

فاحتجّ سِنَان قائلاً: "ولكنَّ شخصاً ما قد فَعَلَ ذلك. أو ربّما ... شيءٌ ما". وتصوّرَ مُجدّداً ذلك الجرح الرهيبِ الذي أصابَ الرجلَ بوحشيةٍ لا تنتمي للبشر.

"ماذا، أتقصد ذلك الشيء الذي قفزَ في طريقنا؟ لقد كانت قطّةً، أيها الأحمق، مجرّد قطّة منزلية عادية. قطّة تافهة".

وغَرِقا في الصّمت. لقد فكّر كلّ منهما في ذلك المخلوق الآخر، ذلك الرجل ذو العينَين الخضراوَين وتلك النظرة الملغومة بالحقد الخالص، والذي انطلق هارباً مسرعاً، قبل كم من الوقت؟ دقيقة أو دقيقتان من ضربة الصاعقة؟

قال سِنَان: "مولاي، لقد أخبرتَني ذاتَ مرّة عن ... ممارسي اليوغا في الهند الذين يمكنُهمُ التحوّل إلى وحوش".

"تقصد المُستَنمِرينَ في باروان. نعم، لقد سمعتُ أنهم قد عثروا على أشخاص ميّتين، مقتولين على أيديهم، وقد نزفَت الدماء كلُّها من أجسادهم. والله أعلم ... ولكنّ هذا كان في الهند، في الشرق حيث خلق الله تعالى تسعة أعشار عجائب الدنيا. نحن هنا، يا سِنَان، في الغرب، أي تقريباً أقصى ما يمكنكَ الذهاب إليه في الغرب دون السقوط من حافّة العالم في البحر المحيط. نحن على أرض صلبة من الحقيقة التجريبية الواضحة".

أدركَ سِنَان مع نفسِهِ أنَّ أبا عبد الله لم يبدُ مقتنِعاً تماماً بما قالَه. فإذا كانت الأمور تبدو واضحةً صلبةً ملموسةً في وضَحِ النهار، فإنَّ أحداثَ الليلة السابقة تبدو أقربَ لأرضِ الأحلام، وليس إلى الرؤيا الصالحة التي تأتي من الله، بل إلى وساوس الشيطان. أرادَ سِنَان محوَ تلك الصور كلّها من ذاكرتِه، وحاولَ أن يتركَ حواسّه تسكنُ اللحظة الحاضرة، على هذا الطريق الذي يلتفُّ حول محيط الوادي عبر هواء الصباح المغسول بالمطر، ويأخذهم من البَيَازِين إلى قصر الحمراء.

لكن إخفاءَ الحقيقةِ في ضوءِ هذا النهار الساطعِ شبهُ مستحيل. شقَّ هناكَ فوقَهم، على سفح التل المصفرّ، موكبٌ صغيرٌ بين القبور المصفوفة أسفل سور المدينة، متتبّعاً نعشاً مترنّحاً. قال سِنَان: انظر، يا مولاي. "لا بدّ أن هذا هو الذي يدفنونه."

هزَّ أبو عبد الله رأسَهُ وقال: "لم يتبقَّ الكثير لدفنِه، يا لهُ من فتى مسكين ..".

غرقا في صمتِهما وكلاهمُا يسترجعُ الكابوسَ الذي مرّا به قبل ساعاتٍ فقط: تذكّرا وجوهَ الجيران الشاحبة المصدومة، والعُصبة التي تشكّلت لاحقاً بعدَ فواتِ الأوان، لجلبِ الماء من خزّان مسجد الحيّ، فحتّى أبي عبد الله مدَّ يدَ العون بحمل الأواني، ورائحةَ المياه اللاذعة الحلوة النفّاذة على اللحمِ البشريِّ المتفحّم. كانت الجثّة محترقةً بشدّة عندما وصلوا إليها، لدرجة لم يبدُ عليها على الإطلاق أنها جثّة بشريّة.

ونطَقَ أبو عبد الله مجدّداً أخيراً عندما دخلا الشقّ الذي يفصِلُ قصر الحمراء عن حديقة قصر السلطان في قصر جنّة العَريف. وقال: "إذا ما كان هناك أيّ شيءٍ آخر ينعمون به هنا في غرَناطَة، فهو بالتأكيد ليس حسن الظنّ. ما الذي قاله جاره الليلة الماضية عندما كنّا نغمر الجثّة بالماء؟: "منقوعاً في النبيذ ومتفحّماً بضربةِ صاعقة! هذا هو العدل الإلهي الذي يستحقّه".

"هذا ما قاله، يا مولاي. ولكنني أؤكّد لكَ أن الرجلَ كان ميتاً قبل أن يحترق. لقد رأيتُ ذلك بأمّ ..."

"كافٍ! هل ينبغي أن أُذكِّرَ حماراً مثلكَ بأنني كنتُ القاضي المالكي السابق لسلطنة دلهي؟ وقاضي القضاة السابق لسلطنة أرخبيل المالديف؟ هل أذكُّركَ بأنّكَ مجرّد عبد؟ وأن قيمتَك كشاهدٍ مساوية لقيمةَ المرأة وحسب؟"

"إذن أنا أساوي نصفَ رجلٍ حُرّ ...".

"اصمت! عندما أرسلُكَ ليخصوكَ وتلتهمُ الكلابُ بيضتَيكَ، فلن تكونَ رجلاً على الإطلاق. سوف تستحقّ مبلغاً كبيراً من المال كحارسِ حريمٍ

بدون خصيتَين، ولن تستحقّ شيئاً البتّة". رفض سِنَان هذه المرّة الطُّعم، فنظرَ إليه أبو عبد الله محاولاً عبثاً إخفاءَ ابتسامتِهِ تحتَ قناعِ الغضب المزعوم. "لنفكّر مليّاً في الأمر، ما قيمة شهادة العبد الخَصيِّ؟ إذن ... لقد أصبحَ الموضوع مُعقّداً ... لا بدّ أن تبحثَ عنه في كتاب المُوطّأ ..".

احتفظَ سِنَان برأيه حتّى توقّفَ سيّدُه عن استطراداته وانعطفا عند الزاوية ليتبعا الجدار الجنوبي الطويل لقصر الحمراء والمملوء بالحصون. قال سِنَان: "سوف تَدعمُ رأيي، يا مولاي، حولَ وفاةِ الرجلِ قبلَ أن تضرِبَ الصاعقة. أعني تلك الجارية التي رأيناها تفرُّ راكضةً من المنزل".

قال أبو عبد الله وهو يمسّد على لحيته البارزة: "هكذا إذن، يا لهما من شاهدَين: عبدَين، أحدهما امرأة والآخر رجل أسود على وشك الخصاء. ولكن، لمَ لا؟! ينبغي أن نحاول العثور على تلك المرأة. وبصرفِ النظرِ عن أيّ شيءٍ آخر، فقد بدَت .. مبشّرة بالأمل للغاية".

ابتسمَ سِنَان لأوّل مرّة منذ أحداثِ الليلة الماضية. فقد عادَ سيّدُهُ إلى طبيعتِهِ السابقة.

****

"هيَّا، يا رجل. تحدّث".

نظرَ أبو عبد الله إلى صديقِهِ لسان الدين بسذاجة: "عمَّاذا أتحدّث؟"

"سيّدي العزيز، أنتَ تعلمُ جيّداً ما الذي أتكلّم عنه بالضبط، وإلّا فلن أكونَ وزير غرنَاطَة".

نقّل سِنَان ناظرَيهِ بين سيِّدِهِ، الذي كان يبدو بريئاً جدّاً لدرجة يصعب تصديقها، كصبيّ تمّ القبض عليه وهو يسرق التين، وبين ملامح لسان الدين المتغضّنة والكئيبة.

إذا عاد الوزير إلى قصره بعين الدمع الليلة الماضية، فلم يمرّ بضيفه أبي عبد الله. ولكنَّ سِنَاناً سمعَ من عبيد لسان الدين أن الرجلَ العظيم كان يعمل في كثير من الأحيان لوقت متأخرٍ ثمّ يبقى في مكتبه، مستيقظاً حتّى الساعات الأولى من الصباح الباكر، يصنّف في الوقت نفسه العديد من الأعمال التاريخية الكبيرة. ولهذا السبب أطلقوا عليه في دوائر القصر لقب "الرجل ذو العُمرَين". لقد أحرقَ الشمعة كاملة ولم ينَم سوى سويعاتٍ قليلةٍ قبل أذانِ الفجر بساعةٍ أو ساعتَين. وها هو الآن يقف أمام ضوء الشبكة في مكتبه المظلّل، وسقفُه الخشبي الداكن المزخرف بورق الذهب الكامد الباهت والمحمرّ، وقد بدا أكثر استياءً من المعتاد.

مطّ الوزير شفتهُ السفلى قائلاً: "إذا كانت هذه رغبتُكَ فسوف أوضّح الأمر. وصلتني رسائل منذ وقت ليس ببعيد من عدد من أصدقائنا المشتركين، ابن خلدون وابن مرزوق على سبيل المثال لا الحصر، يبلغونني فيها بوفاتكَ". أحضر أحد الموظّفين ورقة ما. ورأى سِنَان لسان الدين يكتب عليها كلمة "مرفوض"، دون أن يرفع عينَيه على ما يبدو عن أبي عبد الله. "وها أنتَ تجلسُ أمامي، وتبدو حيّاً وبصحّةٍ جيّدة. بل تبدو في الواقع مَرِحاً ومبتهجاً كرجل في نصفِ عُمرِكَ".

قال أبو عبد الله وهو يتحرّك في كرسيّه ويرطّب شفتَيه بلسانه: "آه، نعم، وفاتي ... يمكنني شرحُ كلّ شيء". لم يرَ سِنَان سيّدَهُ مضطرباً إلى هذا الحدّ أبداً.

قال لسان الدين: "إن تكرّمتَ سعادتكَ، يا صديقي العزيز. أفترض أنكَ لم تُرزَق الخلودَ الأرضيّ".

"الخلود؟ أنا؟ بل الموت أهون عليَّ من الخلود! أقصدُ ... يمكنني القول ... أعني، عندما انتهت رحلاتي، رحلاتي السابقة، ورحّبوا بعودتي كأحدِ الأشخاصِ البارزين المشاهير، وقد كرّمني السلطان الراحل في فاس

وأحسنَ وفادتي، وقرّبني إلى خاصّته.. وأودّ أن أشيرَ هنا إلى أنه لم يرَ أيّ شخص، على حدّ علمي، الكثير من العالم الذي خلقه الله مثلي. لقد التقيتُ ذاتَ مرّة في بلاد الروم برحّالة مصري زَعَمَ أن .. ".

فقاطعه الوزير: "هيَّا، ادخل في صلبُ الموضوع، يا رجل! من المفترض أن تكون ميتاً، بحقّ السماء"!

"طيّب، بعد اغتيالِ سلطانِنا السابق، والذي خُنق، إذا كنتَ تتذكّر، على يدي ...".

"على يدَي وزيره، نظيري. أعرفُ القصّة".

كانت هذه أوّل مرّة يرى سِنَان سيّده يَحمرُّ خَجَلاً.

وتابع أبو عبد الله: "الأمر ببساطة أنني بعد تلك الحادثة الحزينة قد فقدتُ نفوذي كلّه في البلاط وانتهى بي الأمر لأعيشَ في أماكن بعيدةٍ نائيةٍ مُهمَلة. صدّقني ليس هناك أيّ متعة على الإطلاق في أن تكون قاضياً في أقاصي الأرياف، عالقاً في بلدة كاملة ليس فيها سوى جملٍ واحدٍ بين جبال الأطلس والمحيط. أصبحت روحي آسنةً راكدة. وأنتَ تعلم بالطبع ما يقولونه: إني رأيتُ ركودَ الماء يُفسدُه ... إن سالَ طابَ وإن لم يجرِ لم يَطِبِ. والحقيقة أنني بدأتُ أفسدُ مجازياً بالطبع. كنتُ أتعفّنُ من رأسي حتّى أخمص قدمَي. وصل الأمر إلى مرحلة إنني إذا ما سمعتُ نزاعاً أحمق آخر على الأرض أو فلاحاً وضيعاً آخر يُطلّقُ زوجتَه المتهالكة العجوز، فسوف أخلع عِمامتي، وأتشقلب على رأسي بكلّ سهولة وأصرخ هناك في قاعة المحكمة. وكان هناك بعض العوامل الأخرى ... التي يمكن أن نسمّيَها العوامل المؤهِّبة".

تفحّصت نظرة لسان الدين الأشبه بنظرة كلب الصيد عينَي صديقه تذرعان الغرفة:

"*العوامل المؤهّبة*"؟ هل ترغبُ بالمزيد من التوضيح؟"

ابتلع أبو عبد الله ريقه بصوت مسموع: "طيّب، الالتزامات المالية، أي الديون بصراحة في فاس.

كنتُ أعلم أنني لن أتمكّنَ أبداً من سدادِ ديوني بواسطةِ راتبِ قاضٍ ريفي. وكانت فرصتي الوحيدة هي الانطلاق وطلب فضل الله على طريق الرحلات. وكنتُ أعلم في الوقت نفسه أنني إذا ما فعلتُ ذلك فدائنيّ في العاصمة سوف يظنّون أنني أتهرّب. لذا كتبتُ إلى صديقٍ موثوقٍ وحثثتُهُ على نشرِ الإشاعة في أنحاء فاس جميعها، والتي تقول بأنني ... قد مِتّ".

ورأى سِنَان لُغدَي الوزير يرتجفان، ولم يستطع تحديد ما إذا كان هذا ناتج عن الصدمة أو عن تسليته بما يسمع.

"وهكذا يصعب عليهم الذهاب إلى آخر الدنيا وراء آخر الدنيا للتحقّق من الخبر، أليس كذلك؟ نعم، هكذا أسمّي ذلك المكان البائس، حَلّ جيّد، أليس كذلك؟ آخر آخر الدنيا وراء آخر الدنيا ...".

نقَرَ لسان الدين على مكتبِهِ مُتبرّماً. "طيّب، على أيّ حال، خرجتُ في أحد الأيّام، قبل الفجر، إلى الطريق وليس معي شيء سوى آخر ما أملك من نقود. وغلامي الأمين سِنَان".

هزّ لسان الدين رأسه ببطء شديد: "وتفاؤلُكَ الجامح. الانتحار، يا أبا عبد الله، خطيئةٌ مهلكةٌ وكبيرة من الكبائر. هذا ما كان ينبغي عليّ أن أتخيّلهُ، محاكاةُ الانتحار، أي انتحار مزيّف، ولكننا ينبغي أن نحصل على فتوى بشأن ذلك من شخصٍ مؤهّلٍ أكثر منّي. على كلّ حال: الحقيقة أنكَ هنا الآن، تتجوّل مثل طالبِ صوفي انطلق ليبحث عن كنزه في عمرٍ تقاعَدَ فيه معظم الرجال الذين بمثل عُمرِكَ، ليحظوا بدعمِ ومحبّةِ زوجاتِهم وأطفالِهم الحنونين".

أطرَقَ أبو عبد الله للحظة، ثمّ نظر مجدّداً إلى صديقه:

"لقد وجدتُ الحظوة، كما تعلم. أو هي التي وجدتني. وجاءتني الثروة وذهبت".

قال لسان الدين: "وماذا عن الثالثة؟"

قال أبو عبد الله مبتسماً: "وما هي الثالثة، الشهوة.." أو بعبارة واضحة: "النسوة ونَيـ-".

غطّى السعال المتصاعد من حَنجَرة الوزير على تلك الكلمة. واحمرّ وجه سِنَان خجلاً نيابة عن سيّده هذه المرّة. فقال لسان الدين: "كنتُ أفكّر في شيء آخر أكثر تهذيباً، أي الأبوّة والحياة العائلية، أترى المصادفة؟".

قال أبو عبد الله: "آه" وابتسم ببراءة شديدة. "يا للمصادفة! يا لسان الدين، كنتُ سأقول ونَيل الرضا بفعل الخير لهنّ لو لم تقاطعني ... أعترف أن النساء كُنَّ إحدى متع حياتي في أثناء رحلاتي". كانت! فكّر مع نفسه إذا ما كان قد اختارَ الزمنَ الصحيح للفعلِ في الجملة، فتلاشَتِ الابتسامة من وجهِهِ عندما مرّت صورةُ تلك المرأة التي أرّقَتهُ في الليلة السابقة في ذهنِهِ.

تنهّدَ لسان الدين: "لا أعرفُ كيف تحافظ على قدرتِكَ في عمرِكَ هذا". فقد اتّضح أنه كان يرى أن قدرات أبي عبد الله ومَلَكَاته لا تزالان حاضرَتَين وفعّالتَين.

"أوه، أعتقد أن الأمر يتعلّق بحسّ الفكاهة. فأنا أميلُ نحو التفاؤل. أظنّ أنكَ من النوع الذي يميل أكثر إلى الكآبة والسوداوية؟ مع ميل أكبر للمزاج البلغمي المتقلّب، أليس كذلك؟"

قال الوزير: "لقد أخبرني طبيبي بذلك. تذكّرتُ الآن، هل ما زلتَ قادراً على ...؟ هل توصي بأيّ شيء مفيد من منطلق تجربتكَ الواسعة؟ هل هناك شيء ما لتجديد شباب ذلك العضو المعنيّ؟"

"ماذا، هل تقصدُ أن مملوكَكَ العجوز لا يقفُ باستعداد منتصباً؟ وكأنكَ تبارزُ بحبلٍ، أليس كذلك؟"

لجأت عينا سِنَان إلى السقفِ المرصّعِ فوقه.

تنحنَحَ وزيرُ غرنَاطَة: "نعم، يمكنكَ قول ذلك، أقصدُ يمكنكَ التعبيرُ عن الموضوعِ بهذهِ الطريقة".

قال أبو عبد الله وهو ينقُرُ على أنفِهِ: "برادة الحديد، وصفةٌ مضمونةٌ لتقوية ... وتؤخَذ من الفم طبعاً مع القليل من شَحمِ التمساح. ولكن، مهلاً انتظر، هذا ما حدثَ مع صهري في الهند، سلطان قُرُمَندِل. لقد تسبّبت له هذه الوصفة بحادثة سيّئة، نعم ..." وحبسَ سِنَان أنفاسَهُ، فقد سَمِعَ هذه التفاصيل كلَّها من قبل. واسترخى قليلاً عندما امتنع أبو عبد الله عن التحدّث عن التفاصيل. وتابع وهو يمسّدُ لحيتَه: "هناك تلكَ السمكة الجميلة من بحر الآرال. ولكن، عليكَ أن تأكُلَها طازجةً، بل نيئَةً في الواقع. معكَ حقّ. سوف تقوم كُليَتا سِحلِيَّة الإِسقَنقُور بالمهمّة على أحسنِ وجه".

صاح لسان الدين: "كُليَتا سِحلِيَّة الإِسقَنقُور؟" فأومأ أبو عبد الله موافقاً بقوّة. أراحَ الوزيرُ رأسَهُ إلى الخلفِ وأطلقَ صريراً غريباً أدركَ سِنَان حينه أنه كان تعبيراً عن تسليته بما يسمعه. وقال:

"يا أبا عبد الله، الحمد لله أنكَ لم تمت!"

رأى سِنَان ظلَّ شخصٍ واقفٍ في الباب. كان هذا زيد صاحب الأشغال، بملامِحِهِ البربرية الجميلة، يحاولُ جاهداً أن يخفي مفاجأتَه من الظاهرةِ الغريبة المتمثّلة في ضَحِكِ الوزير. فقالَ لسانُ الدين وهو يتمالك نفسَه: "نعم؟ ماذا هناك؟"

"بعد إذنكَ، يا سيّدي، هذه أحدثُ دفعةٍ من الفواتير والتي تحتاجُ إلى توقيعِكُم الموقّر".

قال لسان الدين صارفاً على أسنانه وقلمُه يخدشُ الأوراق: "يا إله السماوات ... لن أفكّر حتّى في تكلفة هذا كلّه".

قال زيد: "لقد طلبتُ من الحرفيّين والميكانيكيّين اتّباع التعليمات الواردة في كتاب الجَزَرِيّ حرفيّاً. ولهذا السبب ... تتزايد المبالغ إلى هذه الدرجة".

قال الوزير مادّاً يده بالأوراق وكأنها منتنة: "خذ هذه الأشياء اللعينة إلى الحسابات ولا تدعني أراها مرّة أخرى أبداً". فأخذها زيد صاحب الأشغال وانحنى، ثمّ خرجَ مُسرعاً من الغرفة بحركةٍ واحدةٍ أنيقة. فسأل لسان الدين أبا عبد الله: "هل تعرف كتاب الجَزَرِيّ؟"

"ليس على نحو ...".

قال سِنَان: "بعد إذنكَ، يا سيّدي، أعتقد أنكَ تقصد كتابه (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحِيَل)".

همس الوزير: "ما شاء الله! إلى متى سأبقى أقولُ لكَ إن هذا الفتى معجزةٌ حقيقية .. أين اطّلعتَ على كتاب الجَزَرِيّ، يا سِنَان؟"

"في مكتبة جامع القرويّين بفاس، يا سيّدي". يتذكّرُ سِنَان الوقت الذي كان فيه سيّده يبحثُ في سجلّات أسفاره، وكان سِنَان لا يزال صبياً صغيراً، يستكشفُ خلسةً قسم الكُتُب المصوّرة في تلك المكتبة الشهيرة. تبادر إلى ذهنه أحد رسوم الجَزَرِيّ الحيّة، وهي الساعة المائية على شكلِ فيل.

"في مكتبة جامع القرويين ..." كرّر لسان الدين وهو يبتسم لسِنَان ويهزُّ رأسَهُ غيرَ مصدِّقٍ وهو يتذكّر زياراته إلى أكبر مركز للتعليم في العالم الغربي:

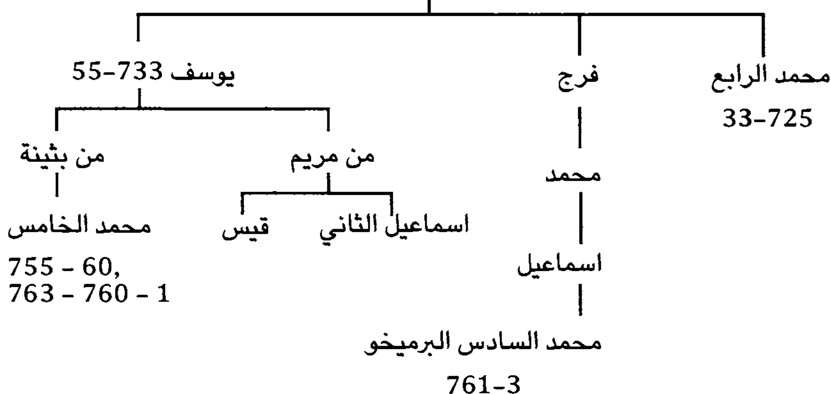
"أبا عبد الله، هل أنتَ متأكّد من أنني لا أستطيع إقناعكَ بالتخلّي عن سِنَان، أعجوبة الخلق هذه؟".

"الجوابُ لا، يا لسان الدين. أمّا الآن، فالحقّ حقّ، لقد أفرغتُ ما في جَعبَتي. ماذا عنكَ؟ هل ستخبرُني عن هذا الشيء؟ ... عن الجهاز المبتكر الذي تصنعُهُ للسلطان؟"

"وسيبقى جوابي أيضاً بالنفي، يا صديقي العزيز. وعادت ملامحُ الوزير إلى وضعها السابق، وتساءل سِنَان عمّا إذا كان سيضحك مجدّداً. "ولكن، بما أنكَ كنتَ صريحاً معي على نحو مثير للإعجاب بشأن ما يخصّكَ... أي حيلة وفاتكَ البديعة، فسوف أوضّح لكَ المزيد عن خلفية مفاجأتي السلطانية". وقال وهو يشير نحو فجوة في الجدار:

"خذ قلماً وورقةً، يا سِنَان، ويمكنكَ استعمالُ الحبر الخاصّ بي، تفضّل. والآن اكتب في الأعلى وفي الوسط (إسماعيل) آه! كما قلتَ، يا أبا عبد الله، الصبيّ خطّاطٌ حقيقي! "إسماعيل الأوّل" لكي أتوخّى الدقّة. ثمّ تاريخ فترة حُكمه، "25 - 713".(1)والآن خطٌ عمودي للأسفل ...".

وهكذا وصل بالتدريج الجزء الأحدث من شجرة العائلة لسلالة النصريّين إلى أسفل الورقة:



1) 713-25 هـ يقابل 1314-25 م. وهذا ينطبق على التواريخ أدناه في شجرة العائلة.

قال لسان الدين وهو يسند ظَهره إلى الخلف: "البرميخو، كما رأيتُم بالأمس، هو المغتصب الفاسد الذي يشكّلُ رأسُه الآن القطعة الزخرفية الرئيسة لبَوَّابة هذا الحصن المرموق. ويؤلمني أن أشمله في هذه الشجرة وكذلك إسماعيل الثاني ذلك النموذج المتأنّث من سلاطين هذه السلالة النبيلة. ولكن، هذه هي الحال على الدوام، فالأشجار كلّها تُنبت ثماراً فاسدة وثماراً سليمة أيضاً".

فسأل أبو عبد الله: "ولكنني لا أفهم. أقصد، هل يتناسب هذا كلّه مع مفاجأتكَ الغامضة للسلطان؟"

قال لسان الدين: "تذكُرُ بالطبع أن السلطان المعظَّم يُوسُف رحمَهُ الله قد مات على يدي عبد، وكما ترى، يا سِنَان، سواء كنّا عبيداً سوداً أو وزراء، فنحن جميعاً قَتَلَةُ ملوكٍ محتملون، ليخلفهُ ابنه، سلطاننا المحبوب، محمّد الخامس". هزّ أبو عبد الله رأسَه وقد فرغَ صبرُه. "والآن، وبعد الأعوام الخمسة المجيدة الأولى من حُكم سلطاننا، فقد دبّرت مريم، زوجة أبيه، وهي مسيحيّة سابقة، ومحظيّة سابقة، مثل معظم والدات السلاطين، مؤامرة مع البرميخو. باختصار، لقد أطاحوا بسلطاننا المبارك من العرش، ونصّبوا مكانه ذلك الأخ غير الشقيق البائس إسماعيل، ذلك الجِنّي السمين الذي يضفر شَعرَهُ بشرائط حريرية ...". ارتجفَ لسان الدين. "لا بدّ أن أعترف أن الانقلاب قد خُطِّطَ له بمهارة. ولم يفلت السلطان إلّا بشقّ الأنفس. وقد تبعتُهُ، ووصلنا بعد العديد من المغامرات إلى المغرب، كما يعلمُ سيّدُكَ".

قال سِنَان: "أنا أعلم ذلك أيضاً، بإذن سعادتكَ. فلا زلتُ أتذكّر رؤيتكَ في فاس، يا سيّدي لثلاث مرّات". ربّما يتذكّرُ لسان الدين العبد، والذي لم يكن حينها إلّا صبياً ... نعم، يمكنه أن يتخيّلَ تلك العينَين، وهما تتفرّسان فيه من الظلّ.

قاطَعَهُ أبو عبد الله: "يا لسان الدين .. أنا أعرف هذا كلّه بالفعل ...".

رفع الوزير يده. "إن بناء التاريخ، يا عزيزي أبا عبد الله، مثلُ تشييد المبنى. ولن ينتصب هذا المبنى إلّا إذا وضعتَ الأساسَ أوّلاً. أين كنتُ أنا؟ نعم، ثمّ وكما تقول الآية، فقد جعل الله كيد مريم في نحرها: استولى ابن العمّ الفظّ الكريه البرميخو على العرش بدوره، بعد أقلّ من ثمانية أشهر، ممّا أسفر عن مقتل إسماعيل وأخيه قيس في هذه العملية". ظهَرَ موظّفٌ صغيرٌ ومعه مجموعةٌ من الأوراق. فقالَ الوزيرُ متبرّماً: "أوه، يا لهذه الأشياء المُتعبة المبتذلة".

وبالكاد تعثّر السرد. فقد اندهش سِنَان عندما قام الوزير بمسحِ الأوراق بعينَيه، وعلّقَ عليها ووضَعَ بعض الحواشي، مواصلاً سردَهُ، عن عودة محمّد الخامس السرّية إلى إسبانيا، وحملتُهُ ضدّ البرميخو المغتصب، واستعادة أرضه، مدينة بعد مدينة، وقلعة بعد قلعة. "حتّى هرب المغتصبُ أخيراً إلى جارنا ... دون بِدرو، ملك قَشتَالَة ... والذي لقّبه منتقدوه بـ (القاسي) ..." وقع الوزير توقيعاً أخيراً" ... وبِدرو بحكمته خلّصَ البرميخو من بؤسه. ويقالُ إن الضربة الأولى كانت برُمحِه. وبعد فترة وجيزة، وصلت هديةٌ ملكيّةٌ إلى غرَناطَة: رأس الخائن ورؤوس أتباعه الذين كانوا معه على الشرفة. ربّما يكون عابداً ضالّاً للصليب، ولكنَّ دون بِدرو صديقٌ حقيقيٌّ للمسلمين".

بدا سِنَان محتاراً تماماً. "ولكنني ظننتُ أننا يُفترض أن نكون أعداء، يا سيّدي، وخاصّة هنا في الأندلس. أعني أن جحافل المسيحيّين الهمجية تحرمُنا نحن المسلمين من أرضنا الشرعية".

فابتسم لسان الدين: "نعم، نحن أعداء في القلب. وربّما من وقت لآخر في ساحة المعركة. ونحن حلفاء على الورق من الناحية النظرية. وفي الممارسة العملية فنحن ... دعنا نقول، أعداء ودودين أو أصدقاء لدودين".

"أنا لا أفهم، يا سيّدي، فهذه مفارقة".

"هذه هي الحال، يا سيّد سِنَان. أهلاً بكَ في عالم السياسة". ونظر الوزير إلى أبي عبد الله الذي كان يحدّق في مشغولات التذهيب الموجودة في السقف.

"هل تأخذ هذا كلّه في الاعتبار، يا صديقي القديم؟"

فقال أبو عبد الله بانفعال: "اسمع، يا لسان الدين، أنا لم أفقد عقلي بعد. لقد سمعتُ ذلك كلَّه من قبل. أخبرني أرجوكَ ما علاقة هذا كلّه بذلك الشيءِ الذي تحتفظ به طَيَّ الكتمان في البهو الجديد".

فقال لسان الدين: "اصبر، يا صديقي. أصبحنا على حافَّة الخاتمة. والآن، أصبح بِدرو يعاني من مشكلة خاصّة به مع أخ غير شقيق وهو "هنري ترستامرا الزنويّ" كما يشير إليه القَشتَالِيّون على نحو يفتقد إلى اللباقة. وعندما ضحك أبو عبد الله رفع الوزير يده: "وكما تعلمون، فإن جيراننا المسيحيّين يقتصرون على زوجة واحدة، لذلك يُولَد لديهم الكثير من الأبناء خارج إطار الزواج".

قال أبو عبد الله بعينَين متلألئتَين: "على الأقلّ، إن كثُرَ الزنويّون، قلَّتِ الحموات، وفي ذلك فائدة".

قال لسان الدين بضجر: "نعم، هذا مضحك جدّاً. على كلّ حال، استولى زنوي تراستامرا المذكور على عرش قَشتَالَة بانقلاب على منوال البرميخو عندنا، ولكنّ بِدرو استعاده بالقليل من المساعدة، ويا للعجب، من ابن ملك إنجلترا "الأمير الأسود"!، أعتقد أنهم يدعونه بهذا الاسم ... غريب! أليس كذلك؟! لقد تولّى سلطاننا الحبيب ودون بِدرو الكافر العرش مع فرق أربع سنوات بينهما، وكان كلاهما في سنّ السادسة عشرة. وعُزِلَ

كلاهما مؤقّتاً على أيدي إخوة غير أشقّاء عديمي الضمير. وكلاهما عادا منتصرَين إلى عرشَيهما. ولهذا السبب يشعران بأُلفة خاصّة بينهما، حتّى لو كان أحدهما طاغيةٌ وضالّ من عبّاد الصليب".

"أين هي ... الخاتمة، يا لسان الدين؟ أنتَ لم تخبرني بعد ما علاقة هذا كلّه بسرِّكَ السلطاني الغامض أو بالحلويات أو بالزبدة أو بالخلاصة ... أو مهما أردتَ تسميتها؟".

"آه، إذا طلبتَ رواية من أبرز مؤرّخي عصرنا، فسوف تحصل على الخلفية الكاملة، يا عزيزي أبا عبد الله. سواء أحببتَ هذا أم لا".

"الخلفية الكاملة لماذا يا لسان الدين بحقّ السماء؟"

"حسناً، يا صديقي الذي نفد صبرُه، سأدخلُ في صلبِ الموضوع. والآن بعد أن عاد بِدرو بأمان إلى عرشِهِ، أرسلَ له السلطان التماساً، أو طلباً كما يمكن للمرء أن يقول. وكما ترى، عندما هرب البرميخو إلى إِشبِيلِيَة، أخذ معه أغلى المجوهرات من خزانة قصر الحمراء. وعندما قَتَلَ دون بِدرو البرميخو، قام بدوره بأخذ المجوهرات "وحفظها في مكان آمن"، على حدّ تعبيره. بعض هذه المجوهرات ثمينة جدّاً بالفعل، وكان السلطان يُوسُف، على وجه الخصوص، خبيراً عظيماً في الأحجار الكريمة. وكانت واحدة من أثمن هذه الأحجار الكريمة، الياقوتة العظيمة".

توقَّفَ عن الكلام وطوى ذراعَيه المقصّبتَين والمطرّزتَين.

قال سِنَان: "الياقوتة العظيمة؟ لقد ذكرتَها لنا من قبل، يا مولاي".

"نعم لقد فعلتُ".

وتوقَّفَ الوزير مرّة أخرى عن السرد. ثمّ مدّ كفَّ يدهِ الفارغة ونظرَ إليها وكأنّ الحجر قد تجسّد فيها. "إنها ياقوتة هائلة الحجم، لا نظير لها في

الحجم والنقاء، ولا مثيل لها في الاحمرار الشديد لألوانها، اللون القِرمِزي العميق المشبَّه لدم الغزال. كان أصلها في جبال بدخشان البعيدة، حيث تمتدُّ ثغور أراضي التركمان والطاجيك والأفغان والصينيّين والكشميريّين والخوتانيّين، وحيث ترتفع الأودية عالياً عالياً حتّى تضيعَ في هوامش السماء. فنظر لسان الدين إلى صديقه. وحتّى أنتَ، يا أبا عبد الله، لم تطأ تلك المناطق قطّ. ولا حتّى في أحلامكَ".

لم يكن لدى الرحّالة العجوز أيّ ردّ. حدّق وسِنَان في الوزير مندهشَين. وتابع لسان الدين: "والآن، قال بعض الأشخاص الأكثر خيالاً وجهلاً بالطبع من شعبنا هنا في غَرنَاطَة إن الياقوتة ملعونة. وكما ترى، لقد حصل عليها السلطان يُوسُف الراحل قبل وقت قصير من نهايتِهِ المروِّعة. كما قُتل الغاصب إسماعيل بعد وقت قصير من ادّعائه ملكيّة الحَجَر. في الواقع، كان المغتصب التالي البرميخو، الذي لا تسعف الكلمات في وصفه يحملها في رقبته عندما قُتل. يحجب ضباب آسيا الوسطى تاريخها السابق، ولكن، يقالُ إنها كانت في السابق ملكاً لخوارزم شاه، ذلك الملك سيّئ الحظّ الذي لقيَ نهايتَهُ على أيدي جحافلِ جنكيز خان المغولية. الياقوتة باختصار غارقة بالدم وَفقَاً للإشاعاتِ المبتَذَلة. وهي تمثّلُ التجسيدَ المادّي *للموت الأحمر*".

قال سِنَان: "اغفر لي، يا سيّدي ... *الموت الأحمر*؟"

فأوضح لسان الدين: "تعبير اصطلاحي لوصف الموت العنيف وغير الطبيعي. ومهما كان الأمر، فإن سلطاننا الحبيب، على الرغم من رغبته في التنازل عن الجواهر الأخرى لبِدرو مقابل الخدمات الودّية المقدَّمة، فقد طلب إعادة الياقوتة. كانت حُجَّتُه، بحكمته المعتادة، بأنه هو نفسه امتلك الحجر لمدّة خمس سنوات دون أيّ آثار ضارّة. كما أراد أيضاً بحكمته الراشدة

المهتدية المستنيرة إقناعَ الجاهلين بحقيقة واضحة لكلّ مَن أنار الله قلوبهم، وهي أنه لا يمكن لأيِّ كائنٍ جامدٍ أن يكونَ لهُ أيّ تأثيرٍ كان على مصائرنا. لأن مصائرنا جميعاً باختصار بيدِ الله عزَّ وجلّ، وهو القادرُ والمقتدرُ، وأن إسباغَ خصائصَ ضارّة تؤثّرُ على المصائرِ مجرّد نوعٍ من الشرك".

انقضَّ طائرٌ وراء الوزير رأوه عبر الشبكة على مخلوقٍ صغيرٍ أسفلَ التلَّ، وكان صقراً، فقد عرفه سِنَان من صرخته الكئيبة الوحشية.

وتابع لسان الدين: "لقد قمتُ بالطبع بصياغة طلب إعادة الياقوتة". واختتمتُ الطلب بعبارة: (نودّ تنبيهكم، *يا جارنا المحترم، إلى أن ملوكاً* شنّوا *العديد من الحروب من أجل أشياء أقلّ من هذا* بكثير).. ليس سيّئاً، أليس كذلك؟ فالكثير من الكلمات الحقيقية، كما يُقال، تُلقى على سبيل الدعابة، حتّى في الدبلوماسية. لقد وافق بِدرو بشكل طبيعي على هذا الطلب اللطيف. وسيقوم سفراؤه بإحضار الياقوتة وإعادتها إلى السلطان، وسط الأُبَّهَة المناسبة لمثل هذا الحدث، في حفل افتتاح البهو الجديد، تزامناً مع المولد النبوي. وستكون المناسبة برُمّتها تعبيراً ملموساً عن روابط حسن الجوار والمصالح المتبادلة التي تربط دون بِدرو هداه الله إلى الدين الحنيف بسلطاننا الحبيب". ونظر لسان الدين إلى أبي عبد الله نظرة جِدّية. "والآن، يا صديقي، احتفظ بهذا كلّه تحت عِمامتكَ. لأن استعادة الياقوتة برُمَّتِها جزءٌ من المفاجأة. ولا أحد يعلم بهذا حتّى كاتب السرّ السلطاني. وكما ترى، فقد وجدنا أن مثل هذه المبادرات تحملُ تأثيراً أكبر على العامّة عندما تكونُ غير متوقّعة ... أمّا بالنسبة إلى طبيعة القطعة المركزية في البهو، فينبغي لروحكَ اللجوجة، يا عزيزي أبا عبد الله، أن تتجمَّلَ بالصبر. لم يبقَ سوى أسبوعينَ ويومَين آخرَين على موعدِ الحفل. وتابعَ لسان الدين عابساً: "طبعاً على افتراض أن زيد صاحب الأشغال يستطيع إنهاء العمل في الوقت المحدّد".

فتحَ أبو عبد الله فمَهُ ليحتجَّ، فأسكتَهُ الوزيرُ بنظرة. وقال بحزم: "لنتكلّم في موضوع آخر مختلف تماماً، لقد سمعتُ أنكَ وفتاكَ العجيب هذا كنتُما في موقع حادثة الليلة الماضية في رَبَض البَيَازِين. يهمُّني سماعُ رواياتِ شهودِ العِيان".

مرّ طيفُ الجاريةِ الهاربةِ الأشبه بالشبح بذاكرةِ أبي عبد الله مجدَّداً، ولكنّ هذا لا يعني أنها قد غابت تماماً عن ذاكرتِه.

الفصل التاسع

" .. *أنَّ ملوكاً شنّوا العديد من الحروب من أجل أشياء أقلّ من هذا بكثير ... أشياء أقلّ من هذا بكثير* .." كان دون بِدرو ملك قَشتَالَة يمشي بخطى سريعة قرب البركة الطويلة التي عكست واجهة قصره في إِشبيلِيَة، قصر المورَّق، يرفُلُ بالحرير المغاربي، مكرّراً الكلمات عاضّاً على أسنانه. عكست صفحة المياه الهادئة الأروقة حيث زقزق الحَمَام وأعلنه النصّ العربي المكتوب والمعلَّق في الأعلى "السلطان دون بِدرو ". ذلك كلّه قام به حرفيون من غَرنَاطَة، مطابقون لرسّاميه القَشتَالِيّين الذين يعملون الآن في قصر الحمراء لصالح صديقه القديم وعدوّه السلطان محمّد. وقد وضع بِدرو في هذا الفِناء العاكس لأقنية الحمراء شعار عائلة محمّد على الجصّ تحت الأقواس: "*ولا غالب إلّا الله*".

فكّر بِدرو في الشعار الآن، واستبدل به تلك العبارة الغاضبة الأخرى. هدّأته الأصوات العربية الحلقية مثل تعويذة "*ولا غالب إلّا الله ... ولا غالب إلّا الله*" لقد جعل هذا الشعار نزاعات الملوك الأرضيّين تبدو تافهةً لوهلة. ولكن، وكما هو الحال دائماً، سرعان ما ذكَّرَتهُ الكلماتُ بصباحِ ذلك اليوم الربيعي قبل ستِّ سنوات، عندما تولّى شرفَ غرسِ رمحِهِ في صدرِ البرميخو كخِنزير. رأى نفسه، يرفعُ الياقوتة التي تقطرُ دماً، وأعاد مجدّداً تلك العبارة، ولكن، مع نزعة انتقامية هذه المرّة: " .. *أنَّ ملوكاً شنّوا العديد من الحروب من أجل أشياء أقلّ من هذا بكثير ... أشياء أقلّ من هذا بكثير* .."

قال صوتٌ ناعمٌ لاهثٌ يلاحِقُهُ "سيّدي. لا أعرف ... لماذا تعيد سموّكَ

... هذه الكلمات". اضطرّ إبراهيم بن زَرزَر للهرولة لمواكبة حركة الملك الأشقر طويل القامة. كان بِدرو قد أدخل الطبيب اليهودي في خدمته عندما فقد محمّد عرشه قبل تسع سنوات. وقد أصبح منذ ذلك الحين لاعباً أساسياً في البلاط والطبيب، والمبعوث في العديد من المباحثات والمناسبات، والمستشار الدائم والأُذُن الصاغية. "لقد كانت مجرّد ممازحة ... من لسان الدين ... وإذا كان المقصود منها التهديد ... فأؤكّد لسموّكَ أنه مجرّد تهديدٍ فارغ".

توقَّفَ بِدرو فجأة واستدار ليواجه إبراهيم. "ولكننا ذهبنا إلى الحرب لأسباب أقلّ من ذلك! أقلّ بكثير. أكثر ممّا يمكنني أنّ أتذكّر".

"سيّدي، كما يعلمُ صاحبُ السموِّ الجليل، فهذا كلُّهُ جزءٌ من طبيعةِ الصراع، في لعبة الشطرنج الدائمة التي تُلعَبَ على رقعة الشطرنج الإيبيرية الواسعة. تخسرُ بضعَ عشراتٍ من جنودِ المشاة، وربّما فارساً أو فارسَين، وتفوز بالقلعة. والسلطان محمّد يفعل الشيء نفسه".

قال بِدرو، وهو ينظر إلى البركة، متمنّياً أن ينعكسَ هدوؤها على نفسيّتِهِ: "بينما نتبادل خارج الرقعة الأطبّاء والمعماريّين والمصمّمين".

قال إبراهيم بمسحَةٍ من اللطفِ والمجاملة: "الرمحُ الحادّ لمزحةِ سموّكِ يخترقُ الهدف، كما هو الحال دائماً، كلّ شيء مجرّد تسلية وهواية بين الأصدقاء، يا مولاي. وقد وصلنا إلى حالة تعادل منذ وفاة الملك الراحل ألفونسو".

قال بِدرو وهو يصلّب: "فليتغمّده الله برحمته". كان والدهُ هو الملكُ المتوّجُ الوحيد حتّى الآن الذي ماتَ بسبب الطاعون. لقد حدث ذلك عندما كان يحاصر المغاربة في جبل طارق في عام 1350، في تلك الجمعة العظيمة المروِّعَة التي عمَّ فيها الوباء. تذكّر بِدرو الصفوف الصامتة من

المسلمين والمسيحيّين الذين يصطفّون في طريق تشييع الجثّة الملكيّة إلى إشبيلِيَة، تكريماً للنعش خلال تلك الهدنة الصامتة الغريبة. وما تزال هذه الهدنة قائمةً على الرغم من المناوشاتِ الحدوديّة المتقطّعَة. يبدو أن إرادة الله قد منعت الانزلاق إلى أسوأ مظاهر الحرب.

ولكنَّ الهدنة لم تتحقّق إلّا مع المغاربة. أمّا على الجبهات الأخرى، فكانت الأمور سيّئة وتزداد سوءاً. قال بِدرو: "إبراهيم، سأخبركَ بالحقيقة". ونظرَ في عينَي طبيبه: "أخشى ما أخشاه ألّا يذهب محمّد إلى الحرب معي". وأخذ الملك يسير بخطى سريعة مجدّداً.

"اغفر لي، يا سيّدي، ففهمي لا يرتقي إلى سموّ حكمة سموّكَ التي تتَّسِمُ بالكثير من المفارقات".

قال بِدرو مباشرة وبصراحة: "لقد جاءت الأخبار الأسبوع الماضي. وقد تستّرنا عليها حتّى لا ... نهيّج العامّة". كانت كلمة "نهيّج" مجرّد تعبيرٍ ملطَّف، والمكافئ الواضح والصحيح لها هو: نشعل غضبهم. عمل ناشرو الدعايات التابعين لهنري الزنويّ لسنوات على إقناع القَشتَالِيّين بأن بِدرو ملكهم كان من محبّي المغاربة واليهود وغيرهم من الكفّار والزنادقة، وأن هنري أمير ترستامرا سيكون ملكهم الحقيقي والمسيحي. ربّما طَرَدَ بِدرو أخاه غير الشقيق من العرش قبل عام، ولكنَّ المغتصبَ كان بانتظار الانقضاضِ مجدّداً.

قال إبراهيم "ما هي هذه الأخبار، يا مولاي؟" دون أن يرغب بسماعها حقّاً.

"لقد عاد الزنويّ. وقد تسلَّلت قوّاتُه إلى حدودنا ... بتواطؤٍ من الأرغونيّين الملاعين". تجهَّمَ وجهُهُ من مجرّد التفكير باسم جاره وعدوّه الذي يحمل اسمه نفسه، الملك بِدرو ملك أرغون.

صَمَتَ إبراهيم. لم يكن الخطر الحقيقي في هذه الجولة الحالية من لعبة الشطرنج الأيبيرية العظيمة من القطع السوداء، من المغاربة، بل كان من الملوك والملوك المحتملين من لونهم نفسه.

توقّفَ بِدرو واستدارَ وحدّقَ في نجيِّه. "وأنا متأكّدٌ من أن فطنتكَ لا يمكنُ أن تغفِلَ أنني لم أعد أملك الأمير الأسود في جَعبَتي لإنقاذي".

أومأ إبراهيم برأسه ببطء. تذكّر الخلاف الرهيب بين بِدرو وحليفه الإنجليزي، بعد أن صَدًّا هنري في العام السابق. فكّرَ إبراهيم بأن هذا الأمير الشَّمالي من تلك البلاد الخالية من الشمس بخوذته السوداء ودرعه الأسود لم يكن فارساً بدرعٍ لامع. بل كان يتصرّف في الواقع مثل مرتزق عادي يضربُ بقدمَيهِ على الأرض مُطالباً بقبضِ المال. كان كلّ شيء فيه أقلّ شبهاً بالأمراء، كان مجرّد وغد. وبما إن خزائن إِشبِيلِيَة كانت فارغة أكثر من المعتاد في تلك الفترة، فقد كان ذلك بدون جدوى. فغادر الأمير في النهاية غاضباً دون أن يقبض أجره كاملاً، وأعاد جيشه الجوّال إلى فرنسا. ورغم سلوكه الذي لا يتَّسِمُ بالفروسية على الإطلاق، فقد أقسم على عدم القتال مرّة أخرى لصالح بِدرو، لأنَّهُ رجلٌ يتّبعُ أساليب في الحرب أبعد ما تكون، على حَدّ تعبيره، عن قِيَم الفروسية المسيحية المتعارف عليها، ولكن، كان هناك سبب وجيه لهذا الاشمئزاز ... وفكّر إبراهيم بعد أن تجمّد الآن بسبب الضراوة الزرقاء الباردة لنظرة ملكه في الاسم الذي كانوا يطلقونه عليه في هذه الأيّام، بِدرو القاسي.

"وبدون الإنجليز، أحتاجُ إلى محمّد والغرناطيّين أكثر. فالزنويّ سوف يحطّمنا إذا لم يكونوا معي، يا إبراهيم. لا بدّ أن نُبقي محمّداً راضياً".

قال إبراهيم بمقدار استطاعته من اللطف: "إذن، يا سيّدي، أليس من الحكمة قبولُ طلبِ السلطان محمّد؟ فإذا كان الخيار واضحاً جدّاً، إمّا الحجر أو العرش، فالإجابة واضحة بالقدر نفسه. لذلك فإني أحثُّ سموّكم

مع كامل احترامي على إعادة الياقوتة. كما إن سموَّكَ قد أخبرتَ محمّداً بالفعل أنكَ سوف تقوم بذلك".

قال بِدرو بهدوء: "إبراهيم، أنا ملك ممسوح بالزيت المقدّس. أقول ما أريد، وأفعل ما أريد. ولكنني حتّى لو أردتُ إعادتها فلن أستطيع على أيّ حال ..". ولكنَّ إبراهيم كان يرى فوران الغضب قادماً، فقد كانت نوبات الغضب تتكرّرُ في كثير من الأحيان هذه الأيّام. نظرَ الطبيب إلى الجليد المتصدّع في العينَين الملكيَّتَين وسأل: "لمَ لا، سموّكَ؟"

"*لأنني لا أملك الياقوتة العظيمة!*" فانطلقت الحَمَاماتُ نحو السماء. "*لقد أعطيتُها للأمير الأسود اللعين!*"

ثمّ سادَ الصمتُ الذي لم يقطعهُ شيءٌ سوى همساتِ الماء في البركة.

وضع إبراهيم يدَهُ على ذراعِ سيّدِهِ المطرّزة: "ينبغي على صاحب السموّ أن يفكِّرَ في خطورة تغلّب الصفراء على غيرها من الأخلاط في مزاجه النبيل".

قال بِدرو وصوتُهُ يكادُ أن يختفي: "كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لحملِهِ على الصّمت. ولأقول الصدق، يا إبراهيم، فلم يعجبني ذلك الشيء اللعين أبداً. لطالما كان هناك شيءٌ غريبٌ ما بخصوصِهِ ..".

لقد كان ذلك مجرّد تخريف امرأة عجوز، أليس كذلك؟ ولكنَّ تلك الذكرى لم تفارقه أبداً. ذلك الملك الشابّ الفخور الذي قتل عدوّه للتوّ، رأى نفسه يخطّط للاحتفال بتاج جديد ورائع ليحلّ محلّ الإكليل الذهبي البسيط لأسلافه. مرّ على أحجار البرميخو الكريمة مع ممرّضته العجوز المحبوبة، رحمها الله ... "القطعة الأهمّ، الجوهرة الواسطة، يا سيّدة مارغريتا، ما رأيكِ؟" كان يحملُ الياقوتة ويرفعُها إلى الأعلى في الضوء. نظرت إليها المرأة العجوز مجرّد نظرة واحدة وقالت: "لا، يا بِدرو، يا بديري، يا أميري. ليس هذه. ففيها دم".

قال الملك: "والآن، يا إبراهيم، ماذا سنفعل؟"

"سموّكَ، أعتقد أنه يمكننا تزييفه ..." لَعَنَ إبراهيم الكلمات حتّى وهي تنطلقُ من شفتَيه. كان يعلم أن دون بِدرو سوف يتحمّس للفكرة. وكان يعرف بالضبط مَن الذي سيكون مسؤولاً عن تزييفها، والأسوأ من ذلك بكثير، مَن الذي سيكون مسؤولاً عن تمريرِ الخدعة على السلطان محمّد: إنه هو نفسه بالتأكيد، إبراهيم بن زَرزَر. ذاب جليد بِدرو في ابتسامةٍ مفاجئةٍ "ربّاه، يا لكَ من يهوديّ لامع". "ولكن، اسمح لي، يا مولاي، أن أُضيف أننا قد نواجِهُ مشاكلَ تِقنِيَّة لا يمكن التغلُّبُ عليها ...".

"لا أريد ان أسمع أيّ حجج، يا إبراهيم، ولا أيّ مشكلات. ابدأ العمل الآن، ليس لدينا وقتٌ نضيّعُه".

الفصل العاشر

"آه ... يا لها من حَنجَرةٍ بيضاءَ جميلة ..."

جاءَ الصوتُ رقيقاً وبطيئاً وملطَّفاً، ممّا زادَ من درجةِ الرعب. لم يكن أمامها أيّ طريقةٍ أخرى لتقاوم سوى أن تقولَ لنفسِها إنها في وسط كابوس.

كُمِّمَت لبنى، وغطّوا رأسَهَا وسَحَبُوها من الكهف الذي فوق المقبرة. ولكن، إلى أين؟ إلى مكان آخر تحت الأرض، ولكنه أعمق بكثير. أدركت ذلك من درجة الحرارة، ومن الطريقة التي يتردّد بها صدى الأصوات ومن رائحة الهواء المعبّأ بالموت. ولم يكن لديها فكرةً إذا ما كانوا في النهار أم في الليل. لذلك قالت لنفسها إن روحَها قد غادرت جسَدَها وتركتهُ نائماً، ودخلت في الهوامش المشوّشة الحدود لعالم الأحلام. نعم: لا بدّ أن أصوات الهمهمةِ التي تسمعُها هي أصواتُ كوابيسِ النائمين الآخرين. أقنَعَت نفسَها بأنها لا بدّ أن تكون كذلك. وإلّا ...

انتُزِعَ الكيسُ من رأسِها، وأخذت تتفحَّصُها العينان الخضراوان من بين طيّات قماش العِمامة. انتابتها رغبةٌ شديدةٌ بالصراخ، ولكنَّها لم تفعل. *تماسكي وسوف تستيقظينَ قريباً بين ذراعَي عليّ.*

بدأ شيء ما يضرب حلقَها بلطفٍ وعلى نحوٍ متكرّر. كان الأمر أصعب وأبرد وأكثر واقعية ممّا يحدث في الأحلام: إنه نصل. وانطلقَ الصوتُ مجدّداً: "نعم ... يا لهذه الحَنجَرةِ البيضاءِ الجميلة ...! ويا للأغاني التي انطلقت منها ...! ويا للشِّعر ..! *خسارة!*". وابتسمت العينان الخضراوان،

وهمست الشفتان غير المرئيّتَين بصوتٍ أكثرَ برودةً من الفولاذ. "*خسارةٌ أن تُذبَح*".

أشاحت بعينَيها بعيداً عن عينَيه لترى عيوناً أخرى تطالعها، وتلتمعُ خافتةً في ضوءِ المشعَلِ الذي يتطايرُ منه الدخان. *إنه يريد إخافتي. ويريد موتي. ولكنني لن أكون ضحيَّتَه.*

رأت لبنى بريقَ النصلِ يتراجَع. وقالَ الصوتُ بأسلوبٍ عادي وكأنه يخوض محادثة طبيعية: "أخبريني بما حدَثَ بالأمس". ميّزت شيئاً ما مألوفاً فيه، فلبنى لا تنسى الشِّعرَ ولا تنسى في حياتها صوتاً سمِعَتهُ. ولكن، أين سَمِعَت هذا الصوت؟ *أين يا تُرى؟*

"لقد جاؤوا ... الضيوف". فاجأها صوتها الذي كان متوازناً. ولكنها قالت لنفسها بعد ذلك، أنا أتحدّثُ بإرادتي الحرّة. وليس لأنه يريدني أن أفعل ذلك.

"أيّ ضيوف؟"

أخبرَتهُ بالأسماء.

فأومأ برأسه مؤكّداً معرفته بهم. "ومَن أيضاً؟"

"لا أحد. لحظة، لقد جاءَ شخصٌ ما. لا أعرفه. لقد سمعتُهما يتكلّمان. سمعتُ صوتهُ وصوت ... عليّ. ثمّ عادَ عليّ إلى مختبره".

"ثمّ ماذا؟"

"تحدّثا عن شيءٍ لهُ علاقةٌ بالمال. ونشَبَ بينهما الصراخ. وسمِعتُ صوتَ إغلاقِ البابِ المُفضي إلى الشارع بعنف".

تضيّقت العينان الخضراوان واخترقتا عينَيها: "وماذا كان عليّ يفعل في المختبر؟"

"عمل"

"عمل؟" وشعرَت بالنصلِ يضغطُ على حَنجَرتِها مجدّداً بضغطٍ أكبرَ هذه المرّة.

" أيّ عمل هذا؟"

وتردّدت الكلمات على الجدران الصخريّة ورنّت كما رنين السَّندَان. *جاري الوضع*، هذا ما قاله الصوت الخفيض الذي حارب شعورها بالرعب.

ولكنها لم تستطع. لم تكن تعرف الإجابة.

قال صوت آخر وكان صوت رجل أكبر في السنّ، صوت عالم: "يا شيخُ ليث. هذه جاريةٌ وقَينَة، كيف لها أن تعرف أيّ شيء كان؟"

فقال الذي يستجوبها على نحو أكثرَ عقلانية تقريباً مجدّداً: "أخبريني فقط بما رأيتِ في المرّة الأخيرة التي ذهبتِ فيها إلى المختبر".

فردّت لبنى: "لقد رأيتُ ... مُنخُل الكُسكُس". كان هناك شيء عبثيٌّ سخيفٌ في إقحامِ مثل هذا الغرض العادي في هذا الكابوس.

"*مُنخُل الكُسكُس*؟"

كادت أن تسمحَ لنفسِها بابتسامة: "لقد أفسَدَهُ عليّ. فقد سدَّ ثقوبَ المُنخُل بأشياء ...".

"أيُّ نوعٍ من الأشياء؟"

"أشياء، أشياء عليّ ... إكسيرُ الحياة على حدِّ علمي!"

اتّسعت العينان الخضراوان على مصراعَيهما بغضب، ولكنَّ الصوت كان ما يزال بارداً ومضبوطاً: "لا تسخري منّي" وضغط نصلُ السكّين لدرجةِ خدرَتِ الألمَ الذي تسبّبَ به. ثمّ سمِعَت همسة سمعتها هي فقط: "*أريد إكسير الموت*".

أدركت أن هذه هي النهاية. مجرّد حركةٍ صغيرةٍ من يدِهِ وينفجرُ الدم، وترتقي روحُها. ولكنَّها انتصرت. كانت ستموت، ولكن، ليس كأُضحيَّة بيده. وسوف تخرجُ من الكابوسِ لتكونَ مع عليّ.

ولكنها سمعت الصوت الآخر مجدّداً، صوت العالم: "إنها لا تعرف شيئاً، يا شيخ ليث".

أُحبِطَ النصلُ والعينان وسألَ دونَ أن يرفَعَ رأسَهُ: "أخبريني عن الصاعقة".

وبعد أن تحرَّرَت من تلكَ النظرة، تراءى عليّ للُبنى الآن على الأرض وعيناهُ تتوسّلان، وشفتاهُ تحاولان النُّطقَ باسمها. لم ترغب في مشاركة ذلك مع أحد. ولكنَّها قالت لنفسِها مجدّداً أن تساير الكابوس وأن تتغلّبَ عليه. وبعدها سيكونان في حضن بعضهما البعض مجدّداً، مستيقِظَين أو مَيِّتَين، لا يهمّ. قالت بلا أيّ خوف أو حزن في صوتها: "كنتُ في المطبخ عندما ضربتِ الصاعقة، فركضتُ إلى المختبر، ورأيتُهُ: كان مذبوحاً، كما تعلم، أليس كذلك؟ لقد نحَرُوا عنقَهُ".

ولكنه لم يكن يعلم. فحدّقَت العينانِ الخضراوان مذهولتَين.

لقد تغيَّرَ شيءٌ ما، بل انهارَ شيءٌ ما في الأجواء. سمِعَت لبنى بعضَ الكلماتِ والأصواتِ تكسِرُ الصمت.. "... لقد كان مهمِلاً ... لا بدَّ أنَّهُ قد تحدَّثَ ... وعملاء البلاط ..." وكان هناك أحد الأصوات أعلى من الأخرى على نحوٍ مختلٍّ ملآنٍ بالغضب: "يا شيخ ليث، لن تستطيعَ فعلَها. دعني *أقتُلها ... . على الفور*!".

التفتَ الشخصُ الذي يستجوبها: "اصمتوا!" فتوقّفت الأصواتُ الأخرى. إذ يمكِنُهُ على الأقلّ السيطرة عليهم، إن لم يتمكّن من السيطرة عليها. ثمّ نظَرَ إليها وتحدَّثَ بلطفٍ ونعومةٍ وهدوء: "هناكَ شيءٌ ما لم تخبريني به".

لقد كانَ على حقّ. لقد تذكَّرت كلَّ شيءٍ فجأة، وعرفت أنها إن لم تتحدّثَ الآن، فسوف يختفي الموضوع للأبد. كان عليها أن تحوّل تلك الكلمات إلى أصوات، لتُثبّتها في ذاكرتها، حتّى لو كانت تلك الذاكرة لم يعد لديها لتعيش سوى لحظات. قالت لبنى: "كان عليّ يعمل بعد ظُهرِ ذلك اليوم على قصيدة. وهي قصيدتُهُ الأخيرة والأغلى عليه. فَتَلَت لبنى القصيدة، وهي تتلفّظُ الكلمات مثل التعويذة:

يـــا أســـود كالليـــلِ يُفنـــي فَحـــمَهُ
بالنـــارِ تســـتولي عـــلى وَهـــجِ الـــسُّرى
يـــا أصفـــرَ الحَليَـــا كمـــا شـــمسِ الضُّحى
أحرقـــتَ صُبـــحَ الصيـــفِ في عـــينِ الـــورى
يـــا أبيـــض أنقـــى مـــن الـــــنار التـــي
منهـــا دواءُ الـــداءِ أو نـــورُ القِـــرى
عـــن أَســـوَد عـــن قلـــــعة بطليلطـــة
لا تكـــــــــــثر التســـآل كيـــلا تخـــسرا
جَبَـــل قـــادِس يـــا قـــــمة مرصـــودة
صفـــــراء أغـــوت قلبـــه كـــي يحـــذرا
ذا رُجـــمُ أرغـــونٍ ونـــورٌ باهـــرٌ
بيـــضُ الـــرؤى مـــن نـــارهِ فـــوقَ الـــذُّرى
النـــارُ بـــرقٌ قاتـــلٌ في دِيمـــــةٍ مـــرَّت بها
هَونـــاً ريـــــــــــــاحٌ صَرصَرا
هـــا كلُّ مـــا تطحَنـــهُ يغـــدو حـــبَّةً
إذ عـــادَ في الأيّـــامِ غيمـــاً ممطـــراً

فَسَادَ الصمت. ثمّ سمِعَت لبنى صوتَ أحدِ الشباب: "هذا مجرّد هراء!"

وصرخَ صوتٌ آخر: "إن العاهرة تسخَرُ منَّا!" وكان هذا الصوتِ المختلّ نفسه. "لنقتُلها فوراً!"

تداخلت الأصوات جميعها مع بعضِها البعض، وتحوّلَ القبو إلى بابل. ثمّ سمِعَت لبنى المحقِّقَ الذي قال بضع كلماتٍ هادئةٍ فتوقَّفَ الصَّخَب.

"دعوا صارماً يتحدّث".

قال الرجل الأكبر سنَّاً: "يا شيخ ليث، نعلم جميعاً ما تعنيهِ الألوان. أمّا بالنسبة إلى الباقي، فأنا أعترفُ أنني في حَيرةٍ من أمري. يبدو أن النهاية بالذات خالية من أيّ معنى ... إلّا إذا كانت تشير إلى القول المأثور حول الجهد الضائع مثلاً (كلّ ما طحنّاه عاد حبّاً). نعم: يبدو الأمر كما لو أن مَن قام بتأليف هذا ... هذا الشِّعر الهزلي، كان يريدُ إخبارَنا أنه مهما حاولنا ومهما بذلنا من محاولاتٍ، فلن نتمكَّنَ من فهمِه. أو ربّما تستطيعُ الجاريةُ نفسُها إفهامَنا إيّاه؟"

حدّقت لبنى بنظرةٍ متحدّية في وجهِ صارم. "هذا ليس شِعراً هزلياً. إنها قصيدةُ حبيبي عليّ. وهي تعني ... ما تقوله، وتعني أكثر من ذلك بكثير".

"إذن هل يمكنُكِ مشاركتَنا المعنى الباطني الخصب لقصيدةِ حبيبِكِ عليّ؟ فنحنُ على اطّلاع على إنجازاتكِ الطريفة كنَظّامَة للشِّعر، حتّى هنا، في أحشاء الأرض" وسمَحَ صارم لنفسِهِ بضحكةٍ جافّة.

فصمتَت لبنى.

تحدّثَ المختلُّ أو ربّما بَصَقَ: "يا شيخ ليث، دعني أُقنعها. سأجعلُ هذه العاهرة تتحدّث".

فقال صارم: "لا داعي لتصرف طاقتكَ، يا حطّام، رغم أنكَ ترغبُ بذلك. انظر إليها إنها مجرّد قَينَة، جاريةٍ تغنّي، أي مجرّد ببغاءٍ مبهرَجٍ يصيح.

إنها لا تفهم شيئاً ممّا تقوله. أمّا إذا ما رغبتَ في سماع رأيي الحقيقي، يا شيخ ليث، فإني أعتقد أن الخيميائي قد ترك علامة. ومهما كان رأينا بمقدرته الشِّعرية، أو عدمها، فمن الواضح أنه يعرف بحور الشِّعر جيّداً. ولكنَّهُ أدخلَ مع ذلك خَلَلاً في وزن البيت عند كلمة أرغون". ورأيي أنه ربّما هناكَ بعضُ الرسائلِ المخفيَّةِ هناك".

سمعت لبنى صوتاً جديداً دقيقاً ومُهتاجاً: "أنا أتّفق مع المعلّم صارم. فهذه العبارات الثلاث: قلعة بطليطلة، وجبل قادس، ورُجَمُ أرغون، هي أكثر من مجرّد تشبيهات متعلّقة بالألوان. أقترحُ أن الخيميائي كان يشيرُ إلى مصادرِ موادّه".

قال صارم: "يا حيدر، لم أكن أعرف أنّكَ تتمتعُ بمواهِبَ شِعرية. لقد أخذتَ الكلماتِ من فمي. أعتقدُ أيضاً أن الخيميائي الزنديقَ كان يشاركُ فيما يسمّى بشكلٍ مبتذل "خدعة مزدوجة"، ولأكون دقيقاً أقصد أنه كان يخفي المعنى الحقيقي داخل المجاز. ولكن، يبقى السؤالُ عن هويّةِ الأماكنِ المُشار إليها. لن تشكّلَ القلعة والجبلُ أيَّ مشكلات. ولكن، ماذا عن "رُجَم أرغون"، فأنا في حَيرةٍ من أمري حقّاً ... فالكلمةُ المستخدَمة، رُجَم هي كلمة غير عادية، وهي الحجارةُ الموضوعة على قبر، على شكل ركام، لتشكيلِ كومةٍ محدّبةٍ أو حدباء. ربّما يشير هذا إلى أن القبور المَعنيَّة تعودُ إلى ما قبلِ عصر القوط الغربيّين، بل وحتّى ما قبل الرومان ...".

قال ليث بحزم: "كفى تكهّنات، يا صارم. دوِّن الأبيات كما تقولها المرأة. وسوف نتشاور مع شركائنا ومخبرينا من عبّاد الصليب في إِشبيلِيَة عن تلك الأماكن، لأن جميعها في بلاد الكفر، أعادَها الله تعالى إلى ديارِ الإسلام!"

فقال الجميعُ آمين بصوت عالٍ، ثمّ انطلقَ صوتُ حَطّام: "هل يمكنني أن أقتلها الآن، يا شيخُ ليث؟"

تجاهَلَهُ ليث وانتظرَ انتهاءَ صارم من كتابةِ القصيدة. وعندما صَمَتَ قلمُهُ، خاطَبَ ليث لبنى: "يا امرأة، نحن نعرفُ كيف نجدُكِ. وإذا ما أخبرتِ أيَّ شخصٍ كان، فسوفُ تعانين العواقب".

قالت لبنى متحدّية: "اقتلني الآن إذاً".

ابتسمت عينا ليث، ولكن، لم يكن هناكَ أثرٌ للبسمةِ في صوتِه: "دماؤكِ الكريهة سوف تلوّثُ طهارتنا. كما أنكِ قد تكونين مفيدة لنا. وحتّى ذلك الحين ... خذوها من هنا". غطّوا رأسَها وكمَّموا فمَها مجدّداً. وناداها ليث وهم يقودونها إلى النفق: "وتذكّري، أنتِ لا تستحقّين حتّى القتل، ولكنّ، مجرّد كلمةٍ واحدة لأيِّ شخصٍ كان، فسوفَ ننبش قبرَ حبيبكِ القذر، ونستخرجُ جثَّتَهُ ونحرقُ ما تبقّى منها. وسوف نصنع رماداً من رماده. سوف نجعلهُ يموتُ ميتةً ثانية".

****

يـــا أســـود كالليـــلِ يُفنـــي فَحـــمَهُ
بالنـــارِ تســـتولي عـــلى وَهـــجِ الـــسُّرى

"قرأ ليث الكلمات وعادَ الألمُ القديمُ، حادَّاً مثل عذاب حكّةِ أحد الأطراف المبتورة. لا يعني ذلك أن ذلك الألم قد غابَ عنهُ لحظة، ألمُ مبروك، الساقي الأسود صاحبُ النظرة المتلألئة، والذي صبَّ النبيذَ المُرصَّعَ بالنجوم في تلكَ الليلةِ قبلَ عشرين عاماً في رَبَض البيَازِين، حتّى أغرَقَ الفجرُ والسُّكرُ الشاربِين الآخرِين، وأخَذَ العبدَ إلى سريرِه، أخذهُ لنفسه. تنبُضُ الآن تلك الذكرى مع القصيدة في عروقه، مثل الكحول. كانَ كلاهُما شابَّين. وكانت تلك لحظةٌ عابرةٌ استمرّت لسبعِ سنوات. وأغلَقَ ليث أُذُنَيه ليصمَّهما عن ذلك المدّ البطيء من الهمسات.

ولكنَّهُ لم يستطع أن يَصُمَّ أُذُنَيه عن همساتِ والدِهِ على فراشِ الموت:

"تُب، يا بنيّ، قبل أن تضيعَ إلى الأبد". كان الرجل العجوز يعرف، بالطبع ... ولكن، كيف؟ كان هناك ذلك الواعظ المتجوّل الذي انزلق إلى موكب جنازة الرجل العجوز، وتلا بهدوءٍ كلماتِ الله في أُذُن ليث "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .." فتساءل ليث للحظة، مَن هم؟ ثمّ تذكّر: رجالُ سَدُوم ..." فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ".

رأى ليث مبروكاً في ذلك الفجر البارد بطريقة جديدة مخيفة: فلم يعد حبيباً، بل غواية. سعى إلى الخلاص في لهيبِ تطهيرِ الحربِ المقدَّسة، وحوّلَ مبروكاً إلى أداته، التي لم تعد للمتعة، بل للقتل. تصوَّرَ ذلك الشابّ مغسولَ الدماغ، والذي كان أداة، والذي تخلّصوا منه ... ودماءُ السلطان يُوسُف المحبّ للكفّارِ لا تزالُ على يدَيه، حيث مزَّقوا أطرافَهُ السوداء الجميلة وأحرقوها في النار.

سوف تمرّ القرون حتّى يوم القيامة، بالنسبةِ إلى الغبارِ والرَّمادِ الذي ذَرَتهُ الرياح والذي أصبحَ الآن مبروكاً، بلمحِ البصر. ثمّ سيكون شهيداً في السماء، وتتطهّر خطاياه بأُضحيَّته التي كانت سلطاناً ساقطاً. ولكن، ماذا عنه هو: هل يمكنُهُ تقديمَ تضحيتِهِ الخاصّة والانضمامَ إلى مبروك مجدّداً في فردوس أبديّ، وفي متعةٍ تفوقُ الخيال الأرضي؟

ليسَ وعقلُهُ غارقٌ هناكَ في هذا العالم السفلي، في زقاقٍ في رَبَض البيَازِين، ومتعلِّقٌ بنظرةِ عبدٍ آخر، أسود كالليل.

****

لم تعد تشعرُ بألمِ الطريق في قدمَيها الآن. لأن لبنى عرفَت أن الكابوسَ ليس له نهاية. فلن يكون هناك فجرٌ ولا موتٌ، سوى الموت في الحياة. لقد اختفى حبيبُها عليّ. كان شقيقُها خايمي مفقوداً منذ ستّة عشر عاماً. وكانت الآن مجرّد متاع، قَينَة مستعملة، ملكاً لوريث عليّ، شقيقهِ الذي

انفصل عنه منذ فترة طويلة. ارتجفت بمجرّد تفكيرِها بذلك الرجل. كان متديّناً على نحوٍ مخيفٍ بقدرِ ما كان عليّ متراخياً، وعرَفَت أنَّهُ يراها المصدرَ الأساسي لتراخي عليّ الديني، عابدة الصليبِ الملوّثَة التي جلبَت أبياتُها الشِّعريّة الفضيحةَ للعائلة.

قادتها غريزتُها من المكان الذي تركوها فيه، عبر الظلام، إلى قشرة الذكريات المدمَّرة التي كانت يوماً البيت. ما يزالُ البابُ مفتوحاً على مصراعَيه. شقّت طريقَها فوق الحطام في ممرِّ المدخلِ وتابعت نحو الفِناء. ظهرَت على ضوء النجوم حركةٌ ما: هل تكونُ القطّة؟ فتحت فمَها لتُنادي باسمها ...

انقضّت عليها ذراعان فجأة، وأتاها شخصٌ من الأمام. ركلت الشبحَ لاإرادياً فأصابتِ الزاوية الناعمة الصلبة بين ساقَيه، فسمعت نَفَساً حادّاً من الألمِ واللعنات. ثمّ ضربَها شيءٌ ما، فداخَت وترنَّحَت ساقطةً على الأرض.

الفصل الحادي عشر

تحقّقَ الرقيبُ حميد من الحرس المملوكي من العُقَدُ التي ثبَّتَت الراية الحمراء الفخورة لسلطانه. كان هذا وقته المفضّل من اليوم، هنا في برج المراقبة في جولته الصباحيّة المُبكِّرة.

وكانَ هذا اليوم مميّزاً عن الأيّام العادية. فمنذ العاصفة التي وقعت قبلَ ليلتَين، أصبحَ هواءُ غرناطَة صافياً تماماً. وبدت البيوت والمزارع أسفلَ السهلِ قريبةً بما يكفي لِلَمسِها. لقد انتصبت حتّى أبراجُ المراقبة البعيدةِ على الجبالِ حادّةً ناتئةً، تحرسُ ثغور الدولة بعون الله ونصره لا ينقطع. وهل يمكنُ أن تكون هناك أرض أرقى، وسلطان أنبل، وإله أكثر رحمة؟

عرَفَ الرقيبُ حميد أنه لا يمكن ذلك على الإطلاق. وكان يعرف هذا بالتجربة. لم يكن في منتصف عمره، بل ربّما لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد، ولكنّه شاهد العالم. وليس فقط الأجزاء التي رآها أيّ جندي في المناوشات الحدودية والغارات على الأراضي الكافرة. وذلك لأنه قد عبرَ المضيق لحراسة سلطانه في المنفى في فاس. وطارَ بذكرياته إلى تلك المدينة المطوّقة المتجهّمة والتي كانت مجرّد مدينة شاحبة بجانب غرناطَة العظيمة المجيدة. ثمّ عاد إلى الماضي البعيد، كما هو الحال دائماً، إلى السلاسل الجبلية الوعرة عند ولادته، إلى تلك الأرض التي يسكنُها الفقرُ ويدمّرها الطاعون. حاولَ أن يتذكّرَ وجهَي والدَيه الكافرَين، ولم يستطع، لم يتمكّن يوماً منذ ذلك.

لكنَّ وجه ماريا لطالما رافقه على الدوام.

سمع قرع أجنحةٍ فاستدارَ ليستطلعَ الصوت. هَبَطَت حمامةٌ على المتراس الشرقي. تغاوت الحَمَامَة بصدرها الذي يشكّل لوحة خلاَّبة من اللون الأزرق لِلَحظة، ثمّ نشَرَت جناحَيها للطيران مرّة أخرى، ولكنها سقطت على الأرض في موجةٍ من الريش.

ركضَ حميد إلى المكان، ونظر إلى المتراس ورأى شخصاً صغيراً يحدّقُ من الممرّ على الجدار في الأسفل، مع مقلاعٍ ضعيفٍ في يده ونظرةِ عدم تصديق ما حصل على وجهه. أنتَ هناك، ما الذي تفعله؟ وتوقَّفَ حميد عندما أخذ الصبي بالركض. كان هذا الأمير يُوسُف، الوريث الأكبر لسلطانه، وريث عرشِ غَرنَاطَة.

داعب حميد أنفه الملتوي، والذي كُسِرَ بسبب سقوطه من الحائط عندما كان طفلاً، وراقبَ الأميرَ حتّى اختفى من على درَجِ البرُج. التقطَ الطائر بلطفٍ وقد كان ما يزال على قيد الحياة، ولكنه أصيب بالدوار. فجأةً تجمّدَ حميد: فقد كانت هناك أسطوانة نحاسية كتميمة صغيرة معلَّقة بإحدى ساقَي الطائر.

****

قال الموظَّف الشابّ وهو يعقدُ أصابعَهُ ويفكُّها: "ما لا أستطيع فهمه، يا سيّدي، هو أنه لم يكن هناك أيّ إذن لاستخدام طيور الحَمَام الزاجل، وذلك لأيّامٍ عديدة. كانت المعلومات الأخيرة المسجّلة في الدفتر هي معلومات الطائر الزاجل المُرسَل إلى الحاكم في مَلَقَة، مع طلبِكَ المحترم المتعلِّقِ بالرسومِ مستحقّة الدفع على تجار جنوة".

قال الوزير وهو يقلّب الأسطوانة في راحة يده: "ولا يمكن لأيّ شخص آخر الوصول إلى الحَمَام الزاجل". لاحظَ أن ختمَ الشمعِ الصغير كان غُفلاً:

ولا توجد عليه تلك النجمةُ المثمّنة الصغيرة التي كانت تشكّل ختم إدارة البريد. "لا أحدَ غيرُكَ، وأصحابُ المناصب الوزارية، وعددٌ قليل من أصحابِ المناصب العليا الآخرين في قائمتكَ ...".

"لا أحد، بالتأكيد، يا سيّدي".

قال لسان الدين: "لنرَ ما هي الأخبار التي تحملُها حَمَامَتُك هذه". أزال الختم باستخدام ظفر إبهامه، فتفتّتَ الشمع ونقر على الأسطوانة. سقطَ أنبوبٌ صغيرٌ من الحريرِ المشمَّع، ملفوفٌ بخيطٍ حريريٍ ناعم. وتعجّب كما العادة من الخفّة غير العادية لـ "ورق الطير" الذي يصنعه هؤلاء البنادقة الشياطين، كانت اللفّة المزدوجة المعتادة، والورقة الخارجية منقوشة باسم المستلم ... فرناندو بن قُزمان.

كان الاسم مكتوباً بخطٍّ لاتينيٍّ لائق، وقد ذكّره الاسم بشيء ما: نعم، كان قُزمان من أصحاب المراتب المتوسّطة في حاشية دون بِدرو، إذا أسعفَتهُ ذاكرته بالفعل. رسالةٌ مثيرةٌ للاهتمام، ولكنها ليست مستَغرَبة، نظراً لحركة المرور بين قصرَي غَرنَاطَة وإِشبِيلِيَة، وقصرَي الحمراء والمورَّق. قامَ بفكِّ الورقة الداخلية بعناية، وألقى نظرة فاحصة على شبكة من الحروف المنمنمة.

رأى مشرف الحَمَام الزاجل سحابةَ غَمٍّ على وجهِ رئيسه. فقد بقي لسان الدين ساكناً دون حَرَاك. ثمّ تبدّدتِ السحابة بفضل تلك الابتسامة النادرة، والتي لم تعد نادرة للغاية هذه الأيّام منذ ظهر صديق الوزير القديم من المغرب. نظر الوزير إلى بصيص الذهب في السقف المرصّع وقال: "استدعِ كاتب السرّ السلطاني".

****

ابتعدَ طبيبُ الملكِ إبراهيمُ بن زَرزَر عن قَصرِ المورَّق، غيرَ واعٍ للحشودِ

المُتزاحمةِ في السوق، والتي ضغطَت عليهِ من الجوانب جميعِها. ولاحت وراءَه في الأُفق مئذنةُ إِشبيلِيَة العظيمة، أو المئذنة السابقة بالأحرى، والتي تحوّلتِ اليومَ إلى برجِ الناقوس ... ولاحت في أُفق ذهنه مشكلةٌ كبيرة، بقيت منتصبةً شاهقةً هناك منذ محادثتِهِ مع دون بِدرو. كان ابن زَرزَر طبيباً، ورجل علم، ونجيّ الملك، يمتلكُ السلطة والمعرفة. ولكن، كيف تزيّف ياقوتة؟

وليسَ أيّ ياقوتة. بل الياقوتة العظيمة. كلّ ما عرَفَهُ عنها أنها كبيرة ولونها أحمر. قال الملك: "بحقّ السماء، يا إبراهيم، كيف سأتذكّر حجمَها؟ كانت ... بحجمٍ ملكيّ، ما رأيكَ!" ولم يتوصَّل إلى أيِّ معلومةٍ أخرى أفضل مع مسؤولي القصر. لم يفِدهُ أحدٌ سوى مسؤول الخزانة الوحيد الذي زعم تذكّره ملامح مميّزةً للياقوتة. قال إنها كانت مستديرة، وعرضُها بوصةٌ واحدة؛ ولكنه عندما أعاد التفكير في الأمر قال إنها ربمّا كانت بيضاويةً بطولِ بوصتَين. والأسوأ من ذلك كلّه، كان على الياقوتة أن تُرضي مالِكَها الأصلي، السلطان محمّد، سيّده القديم. عرف إبراهيم جيّداً أن السلطان، مثل والده الراحل، كان خبيراً في الأحجار الكريمة. والأسوأ من هذا كلّه أنه علم مَن الذي سوف يضطرّ لأخذ الياقوتة المزيّفة إلى غرَناطَة: إبراهيم بن زَرزَر. لعن إبراهيم نفسه مع كلّ خطوةٍ لطرحِهِ هذه الفكرةَ اللامعةَ الغبيّة.

كانت هذه مشكلةٌ بحاجة إلى حكمة النبي سليمان ...

سليمان! توقّفَ فجأةً لدرجة أنه تسبَّبَ في تزاحم الحمّالين والمتسوّقين في الشارع الضيّق. قال شخص ما: "يهوديٌّ لعين، إنهم يعتقدون أنهم يملكون المكان، أليس كذلك". لم يُعِرهُ إبراهيم أيَّ انتباه. لقد تذكّرَ الرجلَ الوحيدَ الذي يمكنُه مساعدَتَه: أخوه في الدين، سليمان الإِشبيلِيّ، تاجر الأحجار الكريمة، والعالم في أسرار الباطنية، كما يقولون. وفي ماذا أيضاً؟ لم يرَ إبراهيم ابنَ دينِه في قصرِ المورَّق سوى في ذلك اليوم، مُنخرِطاً في

حديثٍ عميقٍ مع قُزمان. كان هناك شيءٌ ما يدورُ بينهما، ولم يكن لدى إبراهيم أيّ فكرةٍ عنه على غير العادة. تلكَ كانت مشكلةُ سليمان، إذ لم يكن يبوحُ بأيّ شيء لأحد حتّى بهويته: كان اسمه سليمان الإِشبيلِيّ، حتّى هنا في إِشبيلِيَة.

أبعدَهُ الحشدُ منَ الطريقِ دونَ أن يُدرِكَ إبراهيم ذلك. وقد أخذَتهُ خطواتُه، دونَ وعيٍ على ما يبدو، قربَ منزلِ تاجر الجواهر. صعدَ الدرجاتِ القليلةِ المتبقِّية في زقاقٍ جانبيّ، ووجَدَ البابَ وطَرَقَهُ، ثمّ قَفَزَ عندما فتَحَ البابَ حتّى قبلَ أن يتردّدَ الصدى في الداخل. وَقَفَ سليمان هناك بقُفطانه الزيتي ولحيتِهِ المُدبَّبة. لم يرَ أحدٌ من قبلُ إذا ما كان لديهِ أيّ خدم أو أيّ أُسرة. دخل إبراهيم إلى الردهة المظلمة، وأغلقَ أنفَهُ بسببِ رائحةِ البولِ والإهمال.

سأله سليمان وهو يرفعُ حاجِبَهُ الأشعث: "بماذا يُمكِنني أن أخدِمَكَ، يا أخي؟" قَرِفَ إبراهيم من أنفاسِ الرجلِ النتنة. "حَفنَةٌ من الماس؟ مجموعةٌ من الحجارة الصغيرة، ولكنَّها ذات الماء الأوّل، وما يزال غبار منجم غولكوندا طازجاً عليها. أو ما رأيكَ بكيسٍ من الياقوتِ الأصفرِ من جزيرة سرنديب؟ أو إذا لم يكن لديكَ سيولةٌ كافيةٌ وتبحثُ عن شيءٍ *استثنائيٍّ*، فقد وصلَتني للتوّ شحنةٌ صغيرةٌ، ولكنَّها شحنةٌ مختارةٌ من المَرجان. انتبه جيّداً، فليسَ أيّ مَرجانٍ كان يمكن أن يُعدّ مَرجاناً قديماً. لا أقصد تلك الأشياء الورديّة التي يعطونَها للأطفال في مرحلة التسنين ليمتصّوها. لا، على الإطلاق، بل المَرجان الأسود، الأسود كلحيتي، يا أخي، مَرجانُ جزيرة سُقُطرَى، والذي انتشلوهُ من المنحدراتِ البحريّة، من أعشاشِ طائرٍ يُدعى العنقاء، أو شيءٍ كهذا" وبَصَقَ على الأرضيّة القذرة "هكذا يقولون".

قال إبراهيمَ متردّداً: "أنا أبحثُ في الحقيقة عن ياقوتة".

داعبَ سليمان لحيتَه، وحرَّرَ منها بقايا الوجباتِ الماضية، لا بدَّ أن

سوادَها كان بفضلِ فنّ صَبغِها، وليسَ بفضلِ الطبيعة. "ياقوتة سرنديب؟ أم ياقوتة نجمية؟ أو ياقوتة بدخشانية؟"

"بدخشانية. وأريد واحدة بعينها. تلك الياقوتة التي أخذها صاحب السموّ دون بِدرو ... إلى مكان آمن ... عندما، ماذا أريد أن أقول، خَلَّصَ البرميخو من بؤسِهِ".

"*ياقوتةٌ بعينِها* ... أنتَ تتحدّثُ عن هذه الياقوتةِ لتغطّي على أنواعِ الياقوت الأخرى كلِّها! لقد أمسكتُها هنا، بيدي! ولكن، ليسَ لوقتٍ طويل. كانت ملطّخةً بالدِّماء. دمُها هو *الأوّل*، وهو الكثيرُ. المتناهي في كثرته .." وأخذَ صوتُه يتلاشى.

"ماذا تقصد؟"

"الألماسُ فيه ماءٌ، يا أخي. أمّا الياقوت، ففيه دم. أو بعض الياقوت فيه دم، وبالنسبة إلى هذه الياقوتة ... فقد كانت أروعَ جوهرةٍ وأخبث جوهرة أمسكتُ بها أو شاهدتُها في حياتي، يا أخي". وبَصَقَ مجدّداً. "كما ترى، الجواهر العظيمة مثل الرجال العظماء. إذ تجد فيها الخير والشرّ الموجودَين فينا جميعاً، وأكثر من ذلك وَفقَاً لعظمتهم. وأكثر من ذلك بكثير. الخيرُ والشرّ يزيدان بالترقية المتزايدة، كما تعلم، تماماً مثل السعر: أي قيراط واحد، خمسة دنانير، قيراطان، عشرون ديناراً، ثلاثة قيراطات، مائتان. وهكذا. يتزايدُ كلُّ شيءٍ تزايداً أسّيّاً، كما يقولُ علماءُ الرياضيات". صَمَتَ الصائغ وهزَّ كتفيه "ولكن، لم يُطلَب منّي سوى تقديم المشورة، فقد أرادها دون بِدرو أن تُوضَعَ في تاجٍ جديد. ولم يكن في يدي أن أمنعَهُ من ذلك. حتّى إنني توصّلتُ إلى فكرةٍ لتركيبها على التاج. كانت فكرةً أنيقة للغاية، رغم أنني قلتُ هذا لنفسي وحسب".

"صِف لي الياقوتة، يا سليمان".

"قلتُ لكَ، يا أخي. كان بها دماء. لقد كانت لطخة دمٍ رائعة. جلطة متخثّرة. متماسكة ومتمرّغة بالدم، حوّلَها الله خالق السموات والأرض إلى مركّبٍ مَعدِني، ليكن اسمه مباركاً من الآن وإلى الأبد".

"أقصد شكلها ومظهرها".

"إذا كُنتَ مهتمّاً بالظاهرِ فقط، فيمكنني أن أعطيكَ وصفاً دقيقاً ومفصّلاً. يبلغ وزن الياقوتة 170 قيراطاً، بالقيراط. وهذا بحجم بيضة الدجاج بالنسبة إليكَ، يا أخي. وشكلُها تقريباً كالبيضةِ أيضاً، وإن كان غير منتظم إلى حَدٍّ ما، ويميل إلى شكل المُعَيَّن. تخيّلها على خاتم في الإصبع الرقيق لمحبوبتكَ! سوف يذبلُ الإصبعُ المسكين ويسقط مع ثقلِها. ولديها على وجهها قطعةٌ زائدة، هي قطرةٍ أشبه بدمعةٍ، كما لو كانت تبكي على الشرِّ الكامن فيها". نظرَ سليمان عن كثبٍ إلى الطبيب، كما لو كان يتفحّصُ حجراً مشكوكاً فيه. "ولكن، لماذا تسألني هذه الأسئلة كلّها، يا أخي؟ وأنتَ في الحقيقة عَينَا وأُذُنا مالك الياقوتة؟"

تجاهلَ إبراهيم السؤال. "لقد قلتَ إنكَ قد صمَّمتَ طريقة لتركيبها .. هل وضعتَ مخطّطاً ما؟

"بالطبع، ولكنه ذهب مع الحجر. إلى كريستوبال المغربي. الصائغ الذي يحمل هذا الاسم. ولا تسمح لي مكانتي بمعرفة ما حدث بعد ذلك ... آه. الدم. "*كمَن يحاول عصر الدم من حجر*" كما يقولون، *ولكنَّ هذا الحجر كان مضمّخاً بالدم ...*".

تنفَّسَ إبراهيم براحة عندما أُغلِقَ البابَ خَلفَه.

لم تكن المسافة كبيرة إلى زقاق الصاغة وورشة كريستوبال. ولكن الطريق كان محفوفاً بالمضايقات: البغال المحمّلة بأحمال كبيرة، والتي تجعلهُ يلتصقُ بالحائط، والرَّوث الزَّلِقُ تحتَ الأقدام، والأسوأ من ذلك، عصبة

من الإخوان أعضاء أخوية الصامتون *El Silencio* الدينية، العابسين بقَلَنسُواتهم المميّزة. ظلّ إبراهيم بعيداً عنهم قدر الإمكان. كانوا يكرهونَ اليهودَ والمغاربة كذلك. ولن يساعِدَكَ أبداً أن تكون يهودياً من يهود المَلِك: فقد كرهوا المَلِكَ أكثر من أيّ شيء آخر، وقد قيلَ إن ذلك بسبب حبّه للكفّار. لقد أخافَتهُ نظراتهم الصامتة والعنيفة حقَّاً.

لم يفعل كريستوبال شيئاً ليُريحَه، بل صلَّب وصلّى بوضوحٍ على مَرأى من اليهودي. ولاحَ فوقَهُ على الجدارِ تمثالُ للسيّد المسيح من خشبِ البلُّوط يرتدي تاجاً ذهبياً، ويتلوّى على صليبٍ داكنٍ ضخم. نظرَ إبراهيم إلى ملامحِ كريستوبال العربية الحادَّة والسمراء، وتساءَل لماذا كان على هؤلاء المرتدّين أن يبالغوا إلى حَدٍّ بعيد في الإعلان عن إيمانهم الجديد. ثمّ فكّر في أخوية الصامتون، وأدركَ السبب.

قال إبراهيم: "جئتُكَ من طرفِ سليمان الإشبيلِيّ". وتضيّقت عينا كريستوبال. "والأهمّ أنني أتيتُكَ في الأساس من قبَل صاحب السموّ دون بِدرو".

تغيّرت تعابيرُ وجهِ الصائغ عندما تعرّفَ على يهوديّ الملك "كيف لي أن أخدم ... سعادتكَ؟"

"هل تتذكّر الياقوتة العظيمة التي أراد صاحب السموّ وضعها في تاجِهِ الجديد؟"

اتّسعت عينا المغربي الآن. "مَن يستطيع أن ينساها؟"

قال إبراهيم لنفسه هناك الكثيرون الذين قد ينسونها. "إن دون بِدرو، حفظه الله ورعاه، يرغبُ بنسخة طبق الأصل منها ... لتزيين ... خوذة جديدة". أدركَ أنه كان ينبغي أن يخطّط لذلك على نحو أفضل. "وقد أمَرَني بأن أطلبَ منكَ تزويدنا بالأبعاد والتفاصيل الأخرى المطلوب تنفيذها،

والتي وضع تصميمَها سليمان. أفترضُ أنكَ قد احتفظتَ بسجلّ لهذا كلّه؟"

والآن ابتسم كريستوبال: "سيّدي، لقد احتفظتُ بأكثرَ من سجلّ".

****

تفرّسَ الوزيرُ بابن زَمرَك، كاتب السرّ السلطاني وقال: "إذن ما الذي فهمتَهُ منها؟" وهو يرفع نسخة رسالة الحَمَام الزاجل إلى النور من نافذة حُجرتِه في قصر الحمراء. كانت طريقةُ اعتراضِ الرسالة غريبة بما فيه الكفاية؛ بل كانت الكلمات نفسها غريبة. ظهرت حركة، بل رجفة، في تفّاحة آدم الكاتب السلطاني البارزة واللامعة. رطّبَ ابن زَمرَك شفتَيه الرقيقتَين وأخذ يشكّل بهما الكلمات: "*نرسل إلى أصدقائنا، وأعدائنا، هذا اللغز اللطيف ...*".

قد يكون كاتب السرّ السلطاني مخلوقاً بغيضاً تماماً على حَدّ تعبير لسان الدين، ولكنّه كان يتمتّعُ بموهبةٍ في الشِّعر. كيف كان ذلك الجزء من قصيدته، تلك القصيدة التي كانوا يكتبونها على قطعة الزخرفة المركزية في بهو السلطان الجديد؟"

إذا مــا أضــاءَت بالشُّــعاعِ تخالُهــا
عــلى عظــمِ الأجــرامِ منهــا لآليــا
بــذوبِ لجــينٍ ســالَ بــينَ جواهــرٍ
غــدا مثلهــا في الحُســنِ أبيــضَ صافيــا

نعم، كان لديه أسلوبه الرائع في الشِّعر ابن زَمرَك هذا.

أنهى ابن زَمرَك القراءة. ورآه الوزيرُ يبتلعُ ريقَهُ مجدّداً، ثمّ تغضّنَ أنفُهُ بسخرية، لنقل بسخريةٍ مدروسة؟ "هذا مجرّد هراء! لا يعني شيئاً. وهناك مقطع لفظي زائد في عجز البيت الخامس".

"يا زميلي العزيز، أنا لستُ جاهلاً بقواعد العروض العربية".

"لم أكن أقصد ذلك، يا سيّدي ...".

فرفع لسان الدين يدَه:

"وكما تعلمون جيّداً، فإن الكثير من الشِّعر العربي لا معنى له، خاصّة في هذه الأيّام. فقد ابتعدت الاستعارات كثيراً عن مرجعيّاتها. ولا بدّ للمرء لفهمها أن يتمتّع ... بمعرفة خاصّة لا يملكها الكثيرون" حدّق بشدّة في كاتب السرّ السلطاني: كان ابن زَمرَك واحداً من القلائل الذين يتمتّعون بسلطة الاطّلاع على بريد الحَمَام الزاجل.

واجه ابن زَمرَك النظرة المحدّقة به بكبرياء. ربّما صُبَّت ملامِحُهُ البغيضة من الشّمع، ولكن هذا الشمع كان يذوب على الرَّغم من برودة الطقس: شاهدَ لسان الدين خرزةً دهنيةً من العَرَق تتركُ أثراً على وجه الرجل. قال الوزير: "لا بدّ أن أبلغكَ بأن هذا اللغز اللطيف قد اكتشفناه، بإرادة الله، على ساق إحدى الحَمَام الزاجل الخاصّة ببريد جلالته، كانت متّجهةً إلى إشبِيلِيَة. ولا تحمِلُ ختماً رسمياً".

أغمضَ كاتب السرّ السلطاني عينَيه لفترة وجيزة. "إذن ربّما يكون أحد زملائنا المحترمين يمارس، على سبيل المثال، بعض أعمال التجارة عبر الحدود؟ ليستفيد من الأفضلية في السوق؟ ويمكن أن يشير (اللغز) على نحو معقول إلى ... مختلف السلع ومصادرها".

"فكرةٌ مثيرةٌ للإعجاب. ولكن، هل يلطّخ أمثال *فرناندو دي قُزمان*" وتنحنح لسانُ الدين وتابَعَ "أيديهم النبيلة في العمل في الاستيراد والتصدير؟ إن هذا الرجل بالمناسبة، هو المرسَلُ إليه" لم يردّ ابن زَمرَك. "أنتَ تعرف كيف يتصرّف مثل هؤلاء النبلاء ... لا، أعتقدُ أن هذه التجارة ذات طبيعة مختلفة، مختلفة وأكثرَ خطورة".

"إذاً، ما الذي تنوي فعله؟"

"سوف أدَعُ هذا الطائر يتابع طريقَهُ وأحرّكُ مجسّاتي ومصادِري في إِشبِيلِيَة. ثمّ سوف أنتظر وأرى". استرخى ابن زَمرَك قليلاً بعد سماعه هذه الكلمات. "وفي الوقت نفسه، سوف أستدعي أبا عبد الله لأضيف قدراته المعروفة في الملاحظة إلى قدراتي في الاستنتاج، وأربط عينَيه بعقلي".

هسهسَ ابن زَمرَك: "أبو عبد الله رجل أحمق! وأنتَ تعرف مثلي بالاشتباه فيه بأنه جاسوس لسلطان فاس! بل ربّما ينبغي أن أقول: جاسوسٌ فاشلٌ مشتبَهٌ به. بالإضافة إلى ذلك الأسوَد الذي ..".

نهَضَ الوزيرُ من مقعده، ونظرَ مباشرةً إلى ابن زَمرَك وقال بهدوء:

"أبو عبد الله صديقي".

****

ما يزال إبراهيم مغموماً في محلّ الصائغ. ربّما كانت المشكلة في ذلك الصليب: بدا له أن العينَين المرصّعتَين بأحجارٍ كريمةٍ حمراء صغيرة، وكأنها تتبَّعُ حركاته بنظرةٍ اتّهاميّة. خرج كريستوبال من ظلام حجيرته الداخلية يحملُ بيدَيه صندوقاً وقال: وهو يفتَحُهُ بوقارٍ مثل كاهن يحمل أثراً مقدّساً: "انظر".

كان في الصندوق كتلة بنّية عديمة الشكل، مثل كتلة رَوثٍ صغيرة. فكّر إبراهيم مع نفسه بأنها ربّما كانت من البقايا المقدّسة، البقايا المقدّسة للقدّيس فلان، ولكنه لن يستغرب من مثل هذا الإفراط أمامهم. قال الصائغ: "أردتُ القيامَ بالأمر على الوجه الصحيح، ما رأيكَ؟ فنحن لا نتلقّى طلباتٍ كهذه كلَّ يوم، أليس كذلك؟ لذلك أبقيتُهُ معي كتذكار. فربّما يغيّر العقل الملكيّ رأيَهُ، لا أحد يعلم".

سأل إبراهيم: "ما هذا؟"

همس كريستوبال: "إنها الياقوتة العظيمة! مصبوبة بالشمع".

ابتسم إبراهيم ودعا دعاءَ شكرٍ صامت. لم يظنّ للحظة أن الأمر سوف يكون بهذه السهولة.

****

قرأ أبو عبد الله الكلمات مرّة أخرى في حجرة الوزير الأكبر. رفرفت الأفكار والصور في ذهنه. أمّا بالنسبة إلى المعنى، فلم يتوصّل إلى شيء. ولكنه لم يرغب في خذلانِ صديقِهِ لسان الدين. كما أنه لو تمكّن من حلِّ هذا اللغز فقد يخطو خطوة أقربَ إلى منصب الوزير. قال لنفسه: "*أتمنّى لو أنني لم أترك سِنَاناً* يذهب، فالشخص الوحيد الذي يمكن أن يتلمَّسَ طريقه خلال هذه الغابة الكثّة من الاستعارات هو سنَان، عبده النابغة اللامع، والذي كان يتصفّحُ الكُتُبَ في سوقِ بائعي الكُتُب، ولا بدّ أنه كان يدهِشُ أهل البلد بسوادِه، وبتألُّقِهِ أيضاً ...

سمع أبو عبد الله صوت لسان الدين يتحدّثُ إلى أحد الموظّفين: "نعم؟ ماذا تريد الآن؟"

قال الموظّف: "سيّدي، هناك تطوّرٌ في قضيّةِ صاعقة رَبَض البيَازِين".

تحفّزت أُذُنا أبي عبد الله.

"لقد أحضروا جاريةَ الرجلِ الميّتِ في الصباح، يا سيّدي".

شعر أبو عبد الله بتسارعِ دقّاتِ قلبِه. رفع رأسَهُ للحظةِ فتلاقى نظره مع لسان الدين، فعاد بسرعة لقراءة اللغز على الورقة:

يـــا أســود كالليــلِ يُفنـــي فَحـــــمَهُ
بالنـــارِ تســـتولي عـــلى وَهـــجِ الـــسُّرى

نعم. كان هناك معنى ما بين السطور، ولكنه لم يتمكّن من اقتناصِه.

الفصل الثاني عشر

قال صاحبُ الليل: "هيَّا، يا امرأة، أخبرينا: أين كُنتِ هذه الفترة كلّها؟"

جالَ سِنَان بنظرِهِ في أنحاء المجلس المزدحم جميعها. فقد سادَ الصمتُ فجأةً عند دخوله الغرفة مع أبي عبد الله، صمتٌ قاتلٌ، فقد التفتَت عشراتُ العيون نحو سِنَان، ذلك الدخيل الأسوَد. ثمّ سادَ الصمتُ مرّة أخرى، ولكنَّ الأنظار جميعها في الغرفة قد توجّهت هذه المرّة إلى القَينَة، وكان الصمت ناتجاً عن حبس الأنفاس.

رداءُ المرأة الخارجي كان مغبرّاً وأشعث، ولكنها كانت محتشمةً على نحوٍ لائق، وقد شمَخَ رأسُها، المغطّى بمنديلٍ مخطّطٍ أنيق. ربّما كانت جاريةً، ولكنها فخورةٌ بنفسِها وكأنّها قرينةُ السلطان. نظرَ سِنَان إلى أبي عبد الله الجالسِ بجانبه. كان سيِّدُهُ يحدِّقُ في المرأة مدهوشاً، وفمُهُ مفتوحٌ قليلاً.

تحرّكت الشفتان تحت المنديل "أنا ...".

وخدَشَ قلمُ القصب سطحَ الصمتِ، ثمّ توقّف. كان الحشدُ متشوّقين. نظرَ سِنَان في وجوهِهِم مجدّداً: كان الرجال جميعهم، أو معظمهم بالطبع من الطبقات الوسطى في غرنَاطَة ويرتدون أرديةً بأكمامٍ واسعةٍ وألوانٍ هادئة. ارتدى حارسان من الحرّاس الليليّين الواقفين بجانب رئيسهم الجالس سُترتَين متطابقتَين قِرمِزيَّتَيّ اللون. وارتدى الحضور جميعهم القبّعات الصوفية الحمراء أو الخضراء كما فعل هو وأبو عبد الله، باستثناء الكاتب المُعمَّم الذي جَلَسَ خلفَ مسندٍ للكتابة بجانبِ صاحبِ الليل.

"لقد اختفيتِ أربعاً وعشرين ساعة، وهذا وقتٌ طويلٌ، هيَّا، يا امرأة، تكلّمي". يمكنُ لصاحبِ الليل الضخم أن ينقلب بطريقة لطيفة ومدهشة، بالنسبة إلى رجل كانت وظيفته الأساسية الإشرافَ على الحراسةِ الليلية والقبضَ على السكارى وغيرهم من الأوغاد، ومن هنا جاء لقبه. وجَدَ كلّ من سِنَان وأبي عبد الله الرجلَ فظّاً، بل همجياً، عندما أدليا بإفادتَيهما كشاهدَين أمامه سابقاً. ولكن، ربمّا كان صاحب أعلى منصب في شرطة غَرنَاطَة مسحوراً بالجارية، مثل الآخرين جميعاً على ما يبدو.

بقيتِ الجارية غارقةً في صمتِها. وتفرّسَت العينان فوق اللثام بالرؤوس العديدة في الغرفة.

تابَعَ صاحبُ الليل بحزمٍ أكبر مع شيءٍ من الرقَّةِ الضمنيّة: "نحن هنا، يا امرأة، للتحقيق في وفاة سيّدكِ. كان من المفترض أنكِ كنتِ ضحية للحادث الذي أودى بحياته أيضاً. وقد بحث رجالي عن بقاياكِ تحت الأنقاض، ثمّ وصلتِ إلى أيديهم حيّةً تَركُلين ... نعم، تركُلين حرفياً كما قيل لي، تحاولين مقاومة الاعتقال".

رأى سِنَان أحد الحرّاس الليليّين يبتسمُ ويَلكُزُ زميلَه الذي ردّ على الابتسامة بنظرة عابسة.

"لا بدّ من الاعتراف أن الموضوع غريب فعلاً، فرغم كونكِ امرأة وجارية، ولكنّ الجميع يعلم أنّكِ لا تفتقرينَ للذكاء..".

"احذر ... فإن شِعرَها مُذكَّر" والتفتت الرؤوس جميعها لمصدر الصوت، واخترقت المجلس قهقهةٌ عصبية. وقد تذكّر الجميع ذلك الهجاء الذي ردَّت به الجارية على الأعمى المتحرّش. ولم يدرِك سِنَان مصدرَ الصوت.

صرخَ صاحبُ الليل وقد أخذ صبرُهُ يتلاشى "هدوء. سوف تخرجونَ كلّكُم من المجلس إذا ما حدثت أيّ مضايقات. تحدّثي، يا امرأة". شَعَرَ

سِنَان بشيءٍ أشبه بانبعاثِ جسديّ لدى أبي عبد الله، منتظراً أن تتحدّثَ المرأة.

وقد تحدّثت في النهاية وحدَّقت بنظراتِها مباشرة لأوّل مرّة: "سيّدي، لا أعرف أين كنتُ. كنتُ أسأل نفسي بالفعل. فذاكرتي .. غائمة". تحدَّثتِ الجارية بهدوء، ولكن، بصوتٍ واضحٍ ويشي بأنها متعلّمة، ولاحظ سِنَان النبرة الهامسة المرتعشة قليلاً، والتي كشفت عن أصولها الأجنبية.

توقّفَ صريرُ قلم القصب، وهمَسَ الكاتبُ المعمَّم في أُذُنِ صاحبِ الليل. قال الرجل الضخم: "إذن، هل ترغبين بإخبارنا ما تتذكّرينه؟ عودي معي إلى بداية يومِ موت سيّدِكِ".

أخذت نَفَساً عميقاً ثمّ قالت: "كان مولاي ... عليّ ... يعملُ في مختبره".

"يعمل على ماذا؟"

"وكيف لي أن أعلم؟ أنا مجرّد امرأة وجارية"

شهقتِ الغرفة بأكملِها، ولكنَّ مجرّد نظرةٍ عابسةٍ من صاحبِ الليل أسكتَت هذه الشهقة، وقال دون فورةِ غضبٍ حقيقية: "لا تتواقحي، يا امرأة".

رأى سِنَان رجلاً ينهضُ من مكانِه على الأرض: "هل لي أن أُلقي بعض الضوء على هذه المسألة، يا سيّدي، بوصفي جاراً للخيميائي المتوفىّ؟" فأومأ صاحبُ الليلِ برأسِهِ موافقاً. لقد تعرَّفَ عليه سِنَان من ليلةِ الكارثة، وهو يحدُّقُ في جثّة الخيميائي ... متفحّماً بواسطة صاعقة، هذا ما قاله. "كما نعلم جميعاً، فقد كان سيّد هذه الجارية من عشّاق النبيذ سيّئي السُّمعة. وهكذا وفي يوم من الأيّام، وعندما نظرتُ بالمصادفة من خلال الشبكة على نافذته التي تطلّ على الشارع ... لاحظتُ ... لا أدري ماذا يمكن أن أُسمّيَها

... مُعَدّات ... وعلى أيّ حال، أقصد مجموعة تجهيزات مصغّرة، تتكوّنُ من أوعيةٍ غريبةِ الشكل مزوّدةٍ بقضبانٍ وفُوَّهات، مثل الأوعية التي تُستعمَلُ في تقطيرِ ماءِ الورد. وقد تصادفَ أن شَممتُ في مناسبات لاحقة رائحة قادمة من ذلك الشبَّاك نفسه. يا سيّدي، إذا ما كانت الخمر أمُّ الخطايا، فإن هذه الرائحة المنبعثة هي جدّة جَدّتِها". وتفشّى الضحك في المجلس بسبب الغضبِ الذي تحدّثَ به الرجل "سيّدي، أنا لستُ رجل علم، ولكنني أعتقد جازماً أن الخيميائي كان منخرطاً في استخراج الكحول، جوهر وروح النبيذ، لجعله أكثر لذّة .. أقصد نكبةً لصحّةِ البشرِ ولأخلاقهم".

جلسَ الرجلُ ووقف آخر، وأومأ الشيخُ مجدّداً لمنحهِ الإذن بالكلام: "هل تريد أن تعرف ما الذي كان يخطّط له؟" وتعرّف سِنَان على وجه آخر من ليلةِ الكارثة، وهو رجلٌ مُسنٌّ "بزبيبة" لحميةٍ على جبهتِهِ أشبه بعينٍ ثالثةٍ عمياء، توضِّحُ أنه كان مواظباً على الصلاة: "تقويضُ النظام الطبيعي، هذا كلّ ما في الأمر!" ساد هَرْجٌ ومَرْجٌ في المجلس "مثل بقيّة نوعِهِ المُضلِّلين، كان الخيميائي يحاول تحويل المعادن الأساسية إلى ذهب. لنفكّر وحسب في تأثير ذلك على خزانةِ سلطاننا الحبيب!" توقّفَ مؤقّتاً، مستمتعاً بموجة الاستغراب التي أطلقَتها كلماتُه. "وأنا متأكّدٌ تماماً أنه كان يحاولُ أيضاً تركيبَ إكسيرِ الحياة، في محاولةٍ عبثيةٍ للتعدّي على إرادة الله تعالى الذي يحدّدُ أعمارَ مخلوقاتِهِ الفانية في هذا العالم السفلي".

عبَرَت المزيد من موجاتِ الصدمة المجلسَ بأكملِه. والتفتَ سِنَان إلى أبي عبد الله. كانت عينا سيّده لا تزالان مثبّتتان على الجارية، والتي وقفت هناك فخورةً ومنسيّةً للحظاتِ في غمرة الفضيحة.

نهض شابٌ أراد أن يتحدّث: "أرجوكَ، يا سيّدي ...".

صرخ صاحب الليل على الحاضرين بصوت أقرب للنُّباح: "اخرسوا، ودعوا الصبيّ يتحدّث!".

"لقد رأيتُ عليّاً الخيميائي يتسكّعُ حولَ المراحيضِ في المسجد، يا سيّدي، حاملاً حقيبةً جِلديةً ومجرفة، يجمعُ ..." واحمرّ الشابّ خجَلاً "... أشياء".

وتعالت عدّةُ صرخاتٍ قالت: "وأنا أيضاً".

فسألَ صاحبُ الليل. هل كان بستانياً؟"

قال الصوت نفسه الذي اقتبس سابقاً شِعر الجارية: "لا، كان يبحث عن إكسير الحياة!" فعمّت الضحكاتُ الصاخبة.

"اصمتوا" قطع خوارُ صاحبِ الليل الضحك. "إذا قاطعتُمُوني مرّة أخرى فسأجرّسُكم جميعاً في المدينة". احتارَ سِنَان بمقصَدِه، ثمّ تذكّر رؤيتهِ لرجلٍ في سوقِ غرَناطَة، وهو تاجرُ غشَّ في الميزان كما قالوا، يركبُ على حمارٍ بالمقلوب ويرتدي قَلَنسُوَة عليها جرس يرنّ. التفتَ صاحبُ الليل إلى الجارية بوجهٍ غاضب هذه المرّة: "هذا كلّه غير مفيد، لنعد إلى حقائق ذلك اليوم، إذن، كان سيّدُكِ في مختبره. وأنتِ ماذا كنتِ تفعلين؟"

قالت المرأة: "كنتُ أحضّرُ طعام الغداء. فقد كان عندنا ضيوف".

"ما هي أسماؤهم؟"

وقبل أن تنتهي الجارية من سرد قائمة الضيوف، قاطعها ذلك الصوت الطريف مجدّداً:

"جمعية ذوّاقي النبيذ في غرَناطَة ...".

ولكنّ صاحب الليل قد ميّزهُ هذه المرّة، فأمر الحراس قائلاً: "اطردوه". ففعلوا.

"والآن، يا امرأة، هل جاءكم أيّ شخصٍ آخرَ في ذلك اليوم؟"

"لا، يا سيّدي. أعني، أجل، يا سيّدي. سمعتُ طَرقاً على الباب بعد

الظُّهر، ولكنني كنتُ مشغولةً بالضيوف، فلم أتمكّن من الذهاب لفتحِ الباب. ثمّ سمعتُ أصواتاً مرتفعةً آتيةً من المختبر، صوتُ عليّ والشخص الآخر الذي لم أعرفه. وبمجرّد أن تمكّنتُ من تركِ الضيوفِ ذهبتُ للتحقّقِ من أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام. ولكنَّ عليّاً بدا غاضباً. قال إنه مضطرّ للذهاب إلى المزرعة. لديه ... أو بالأحرى كان لديه كرم عِنَبٍ صغير على الطرفِ الآخر البعيدِ من السهل، أسفل جبل شلَير".

"مزرعةُ عِنَبٍ صغيرة! ... أراهنُ أنه كان سيأخذ مُعَدَّاته إلى هناك لتقطيرِ مشروباتِه".

فصرَخَ صاحبُ الليل: "لا تتحدّث بدون إذن". وعادَ إلى صوتِه اللطيف مجدّداً: "والآن، يا امرأة، لنعد إلى صُلبِ المسألة. متى رأيتِ سيّدَكِ لآخرِ مرّة؟"

أطرقتِ الجارية للحظةٍ طويلة، ثمّ رفعت رأسَها وتحدثت كما لو كانت توجّهُ حديثَها إلى السقف. لاحظ سِنَان تشابك أصابع أبي عبد الله، ونتوء مفاصل سُلاميّاته. "كان الضيوف قد ذهبوا، يا سيّدي. فذهبتُ إلى المختبر. فقد أخذَ عليّ شيئاً من المطبخ، شيئاً ما احتاجه. فقال عندما كنتُ معه ..." وتعثّر صوتُها لأوّل مرّة. شاهدَ سِنَان الشفتَين تتحرّكان تحت اللثام على نحو إيقاعيّ، وكأنهما تتلوان صلاة أو قصيدة. ثمّ أطرقَت مجدّداً وعاد صوتُها أخفض من قبل بكثير:

"... كان آخر شيء قاله لي".

قال صاحب الليل بصوتٍ رقيقٍ ومتلطّفٍ: "ماذا قال، يا امرأة؟"

رفعت رأسَها مجدّداً فجأة وهزَّتهُ ببطء. وتغضّنَ جبينُها تحتَ خطّ *المنديلِ* بسبب محاولتِها جاهدةً أن تتذكّر: "ولكن، لا ... ليس هذا ما حدث. كان هناك شيء آخر. وكان آخر شيءٍ قاله ... (سوف نحتاج

المزيد من الفتيل الطويل للمصابيح، فلم يبق لدينا سوى هذا كما ترين) وكان أمامه القليل من الفتيل، ومصباح نحاسي كبير وجديد، من نوع من المصابيح لم أره من قبل، مصباح كبير ومميّز .. عليه أخاديد، ثمّ قال: (لقد أصبحت الليالي أطول) وهنا اضطرب صوتها قليلاً. "نعم، كان هذا آخر شيء سمعتُهُ منه (لقد أصبحت الليالي أطول)".

بالكاد خرج أيّ شيء سوى شبح الكلمات. ونظر سِنَان بطرفِ عينَيه ليرى فم سيّده الذي أخذ يهمس العبارة الأخيرة، كما لو كان يكرّر تعويذة.

واستعادت صوتَها عندما تحدّثت مرّة أخرى: "ثمّ ضربت الصاعقة، وركضتُ عائدةٍ إليه، لأجدَ عليّاً هناك على الأرض ينظرُ إليَّ. مذبوحاً".

قالت ذلك بهدوءٍ شديد، لدرجة أن أحداً لم يدرِك في الحقيقة معناه الضمني. ثمّ أدركَ سِنَان أن يدَ أبي عبد الله قد أمسكت بذراعه، وعمّت الغرفة كلّها هزةٌ فاجأت الجميع وتركتهم غير مصدّقين لما يحدث. حاول سِنَان الوقوف، ولكنّ قبضة أبي عبد الله ونظرته أسكتته وثبّته على الأرض.

كانت الجارية لا تزال تتحدّث "أترى، يا سيّدي ... شخصٌ ما ... ذبَحَهُ ... كان هناك دم ... بل الكثير من الدماء ... لقد مات ... وكانت النار حامية جدّاً ... وأنا ... هربتُ .. و... و..." ولكن، لم يكن أحد يستمع إليها في موجة الصدمة التي أغرقتِ المجلسَ وأخرسَت حتّى صاحبَ الليل.

لا أحد سوى سِنَان.

لقد عرَفَت. كانت تحدّقُ عبر الحشد في وجهه. لقد علِمَت أنَّه يعلَم.

تضخّمت موجةُ الصدمة، وانكسرت، وتحوّلت إلى موجةٍ من الأصوات، ثمّ انتشرَ الحرّاسُ بينهم، وأخذت العصيُّ تدور عليهم. وعادَ ببطءٍ نوعٌ من النظام المفعمِ بالكدمات والرضوض.

كان صاحب الليل قد نهضَ، واكفهرَّ وجهُهُ ليغدو مثل لقبِه. "*لقد انتهى*

هذا التحقيق!" والتفتَ لمواجهةِ الجارية "من الواضح لأيّ رجل عاقلٍ أن الادّعاء الذي لدينا هنا لا يعدو شيئاً سوى وَهمٍ هستيري.. لامرأةٍ وجارية".

قالت متوجّهة إليه: "لا!"

وكرّر صاحب الليل قوله: ".. لامرأة وجارية ..".

وحاول سِنَان الوقوف مجدّداً ومَنَعَهُ أبو عبد الله ودمدَمَ: "سِنَان، انسَ الأمر! لن يصدّقوكَ أبداً. أنتَ تعلم أنّهم يكرهون السّود".

"سيّدي"، كانت لبنى تقول، وصوتُها يتصاعد بحماس: "لقد رأيتُم جسد عليّ بعد أن احترقَ فحسب. أؤكّدُ لكم مجدّداً أن شخصاً ما قد ذَبَحَهُ ..".

قال صاحب الليل " ... *امرأة وجارية*، أكرّر، والتي فقدت" وارتفع صوته أعلى ثمّ أعلى "عقلَها ...".

قال سِنَان متألّماً: "مولاي، تقصد أنكَ لا تصدّقني".

وقف أبو عبد الله نفسه ليتحدّث: "سِنَان، أنا أصدّقكَ الآن".

أرعَدَ صاحبُ الليل في وجه أبي عبد الله وقال: "أجلِسوا ذلك الرجل! لقد قلتُ امرأة وجارية، أفسد موتُ سيّدِها عقلَها، الموت الذي حصل بتدخّل إلهي علاماته، أي الصاعقة والنار، علاماتٌ واضحةٌ جدّاً على غضب الله الذي لا رادَّ لغضبه". ونظر بارتياح متجهّم إلى الغرفة المملوءة بالرؤوس المومئة. "الغضبُ موجهٌ ضدّ شاربِ الخمرِ سيّئِ السُّمعة، والمشكِّك، والساحر. وكما تعلمونَ جميعاً فإنّ عقوبةَ مثل هؤلاء الزنادقة هي الموتُ بالنار. وقد قضى الله تعالى بهذا عدلَهُ في الدنيا، وسوف يحاسُبُهُ يومَ القيامة".

قاطعتهُ الجارية: "ولكنّ مولاي كان رجلاً صالحاً!"

"يا امرأة، الشيءُ الصالحُ الوحيد في سيّدكِ هو طريقة وفاتِه. انصرفي الآن. وسوفُ يقرّر وَرَثَةُ الزنديقِ مَصيركِ".

"وسأكتشفُ مَن قتلَ عليّاً!"

"اصمتي وإلّا ستكتشفين ما يوجد داخل الزنازين في قصرِ الحمراء! خُذُوها".

دفع الحارسان المرأة على بُعد ذراع من خلال الحشد، الذين كانوا يقفون الآن ويشاهدونها، نصف مرعوبين، نصف مفتونين. فقال أبو عبد الله بهدوء، ولكن، بصوتٍ مسموع، عندما مرّت به: "سأراكِ مُنصَفةً، يا عزيزتي!"

ولكنها لم تسمعه. كانت عيناها على الرجلِ الأسود بجانبه.

سِنَان أيضاً كان على وشك التحدّث، ولكن نظرتها جعلتهُ يتعثّر: نظرة سريعة، ولكنها متغلغلةٌ لدرجةِ أنها بدت وكأنّها سكنت عينَيه بعد رحيلها. لم يستطع تفسيرَها. ولكنّهُ كان يعلمُ أنَّ النظرة كانت مملوءة بالاستغراب والاستنكار ... والحاجة.

ولم يدرك سِنَان أنها تحدّثت إليه إلّا بعدَ رحيلِها، وقد همَسَت بكلماتٍ واضحةٍ جدّاً، حتّى وسط ضجيجِ الحشدِ المنصرف، ولكنَّها كلماتٌ غريبةٌ جدّاً لدرجة أنه لم يكن متأكّداً من أنه سَمِعَها بشكل صحيح.

الفصل الثالث عشر

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، قال حيدر عاضّاً على أسنانه، وهو يرفَعُ نظره عن الفوضى في الهاون لينظر إلى ملامح الشابّ الرثّة الفوضوية أيضاً "من *سيّئات أعمالنا*. اطحن، يا فتى! اطحن! أنتَ لا تصنع العصيدة ...".

قال ضِرغام: "من فضلكَ، يا سيّدي، ماذا تقصد بكلمة "اطحن"؟

أدار حيدر عينَيه ودعا دعاء صامتاً ناظراً للسقف الصخري للغرفة تحت الأرض. وانتزعَ المدقّةَ من يدِ الصبيِّ القويّة.

قال وهو يطحنُ رماد الصفصاف المبلّل بضربات منتظمة: "ها أنا ذا، في أكثر مكان متقدِّمٍ علمياً، حيث تلتقي تِقنِيّات الشرق والشّمال، ولا يعطونني مساعداً غيركَ".

"ولكنَّ الشيخ ليث، يا سيّدي، قال إنكَ بحاجة إلى المساعدة، حتّى نتمكّن من الإسراع في تحضيرِ الدواء، يا سيّدي".

"نعم، لتساعدني، وليس لتعيقني ... انظر، لا بدّ أن تبذل المزيد من الجهد وإلّا ستعود إلى العملِ في توصيل الحقائب".

ظهرت حقيبةٌ جِلديةٌ في الوقت المناسب في مدخل الغرفة، أودعتها الأيدي الخفية لأحد أعضاء عصبة السِّباع. كان ليث على حقٍّ بالطبع: لقد وجبَ عليهم زيادة معدّل إنتاجهم. فقد شكَّلَت المكوِّنات الحيوية

غير المعالَجة في خطّ الأكياس هذا مجرّد جزءٍ واحدٍ من مائتَي جزء في أحسن الأحوال. كيس واحد من مكوّنات "الثلج" النقي وغير الملوَّث من مائتَي كيس من الشوائب.

"ولكن، يا سيّدي ... لماذا يجب أن يكون الرمادُ دقيقاً؟"

كاد حيدر أن ينفجر غضباً. ولكنه أخذ نَفَساً عميقاً بدلاً من ذلك. ربّما لو استطاع الصبي أن يدرك سموّ مهمّته، لسَهُلَ عليه التعامل معها بطريقة أفضل. نظر إلى ضِرغام تحتَ ضوءِ الشموع من الشمعدانات المغطّاة بالزجاج، وهذا إسراف حقّاً، ولكنّه إسرافٌ ضروري هنا في هذه القاعة، ولكنه فكّر أنه ربّما كان هناك بصيص خافت من الذكاء يحرّك تلك القسماتِ البلهاء.

قال حيدر ضجراً: "اسمع، تأتي المادّة غير المكرَّرة وتخضعُ للمرحلة الأولى، فصل المادّة الخام" وأشار إلى العضوَين الآخرَين من عصبة السِّباع الجالسَين على الأرض المنكبَّين فوق الصينية الكبيرة، يفصلان بعناية باستخدام فرش صغيرة الشوائب الكبيرة من محتويات الأكياس ويزيلونها. ورأى ضِرغام يحدّق في الرجلَين، كما لو أنه قد لاحظ للتوّ وجودَهما هناك. "المرحلة التالية هي المرحلة التِّقنِيَّة الجديدة التي نقوم بها نحن، العملية السورية، وهنا يأتي دورك".

أومأ ضِرغام برأسه ببطء. وأبدى اهتماماً طفيفاً لأوّل مرّة: "ولماذا يُطلَق عليها اسم (السورية) يا سيّدي؟"

"لأنها تطوّرت على يدَي شخصٍ سوريّ، هو حسن الرمّاح، وهو من أهالي دمشق، قبل سنوات عديدة، باعتراف الجميع. ولكن الحكّامَ هناك أبقوا الأمر سرّاً، ولم تتسرّب إلينا إلّا مؤخّراً".

"تتسرّب؟"

"نعم، لقد تسرّبت على يدَي أحد المتعاونين في فرقة الاغتيالات التابعة للسلطان المصري". فكّر حيدر أنهم ربّما تحوّلوا إلى مجرّد قَتَلَة مأجورين، ولكن ما يسمّى بالحشّاشين، والذين منحوا اسمهم لفنّ الاغتيال السياسي، لا يزال يمكن استخدامهم بطريقة أو بأخرى ... "وعندها علِمنا بشأن العملية السورية، حيث تتمّ تنقيةُ الثلج من خلال التبلورِ البسيط: التسخين بالماء، ثمّ قشطِ الطبقةِ المتكوّنة، ومن بعدها ترك المحلول ليتصلّب ببطء. أصبحنا نعلم الآن أنه يمكننا الدفع لترسّب المادّة المُسالَة قبل التبلور من خلال معالجة الثلج برمادِ الصفصاف".

التمعت عينا الصبي، وتابَعَ حيدر "وبعبارات بسيطة مناسبة للمبتدئين، فعندما نخلطُ الثلجَ غير المعالج بالرّماد والماء ثمّ نسخّن الخليط على نارٍ خفيفة، يحملُ الرمادُ الأوساخ بعيداً ويتركُ الثلج أكثر نظافةً ونقاء. ممّا يجعلُ الدواء أكثر فعاليّة. ولكنَّ الرماد ينبغي أن يكون دقيقاً قدرَ الإمكان وهذا هو عملكَ" أومأ ضِرغام برأسه مجدّداً. لقد فاتَهُ شيءٌ ما. "ثمّ هناك مرحلة التِّقنيَّة الجديدة الأخرى" ولكن، حيدر توقّفَ هنا، وأعطاه المدقّة، وشاهد ضِرغاماً وهو يستخدمها ببراعة أكبر هذه المرّة وهو يقول: "اطحن... اطحن".

عاد حيدر إلى الخليط الذي يغلي في الوعاء النحاسي، وإلى التفكير في تلك التِّقنيَّة الجديدة الأخرى، التِّقنيَّة الشَّمالية. والتي تعود فكرتها إلى الماضي البعيد، ولكن أحداً لم يضعها موضوع التنفيذ. حتّى الآن.

ومع ذلك لم يكن يعرف ما هي بالضبط. كان لديه شكوكه طبعاً، ولكن كلّ ما كان يعرفه على وجه اليقين هو ما كتبه الراهب الإنجليزي، وهو السطر اللاتيني الذي نقله إليهم شركاؤهم المخبرون من عبّاد الصليب في إِشبيلِيَة:

Si fieret instrumentum de solidis corporibus, tunc longe major fieret violentia.

لطالما تصارَعَ مع هذا النصّ. لقد ترجمهُ صارم، السَّبعُ المتعلّم على الفور:

"إذا كانت الأداة من موادّ صلبة، فإن العنف سيكون أكبر بكثير".

تصاعدَت فقاعةٌ كبيرةٌ في الوعاء وانفجَرَت.

ما لم يكن يعرفه هو طبيعة الاستخدام. كان يشتبه في أن شخصَين فقط يعلمان: ليثاً، وأسداً الغامض، أحد أعضاء عصبة السِّباع في القصر، والذي لم يعرف بقية السِّباع هويته، ما عدا اسمه المستعار، أسد.

غَلَت أفكارُ حيدر مع السائل لفترة، ولكن، سرعان ما هدَأ عقلُه وصَفِيَ تماماً تقريباً بسبب الأصوات الإيقاعية في الغرفة، حركة الفرشاة الناعمة المرهقة، وأنفاس انفجارات الفقاعات، ودقّ ضِرغام الإيقاعي الآن وهمساته: "اطحن.. اطحن ... "

سمع صوت قعقعة أعاده على الفور إلى الواقع: فحمٌ منخفضُ الجودة في بيت النار أسفل الوعاء النحاسي. لا بدّ أن يتحدّثَ إلى ليث. لم يتمكّنوا حقّاً من الاقتصاد في التكاليف. المجازفة كانت كبيرة ...

قد تكون المخاطر أكبر من ذلك، بل يجب أن تكون كذلك. لأنه كان هناك تلك المرحلة التِّقنِيَّة الجديدة الثالثة، والتي لا تتمّ في الشرق ولا في الشَّمال، بل محلّياً، هنا في غرنَاطَة، على يدَي علي الخيميائي. وقد تعلّق عليه النجاح الكامل لمشروع السِّباع، وبدونِهِ ستضيعُ أعمالهم وسنوات تخطيطهم كلّها للوصول إلى قصر الحمراء، هباءً. ولكن، لم يعرف أحد ماهيّتَها، لا ليث ولا حتّى أسد الغامض. كان معناها الحقيقي مستغلقاً في تلك الأبيات الماجنة، وضاع المفتاح بوفاة ناظمها.

مرّة أخرى، نظر حيدر في ضوء الشموع إلى نسخته من النصّ:

يــا أســود كالليـلِ يُفنــي فَحــمَهُ
بالنــارِ تســتولي عــلى وَهــجِ الـسُّرى
يــا أصفــرَ الحَليَــا كمــا شـمسِ الضُّحى
أحرقــتَ صُبـحَ الصيـفِ في عــينِ الــورى
يــا أبيــض أنقــى مــن الـــنار التــي
منهــا دواءُ الــداءِ أو نـــورُ القِــرى
عــن أَســوَد عــن قلــعة بطليلطــة
لا تكـــــــــثر التســآل كيــلا تخـسرا
جَبَــل قــادِس يــا قـــمة مرصــودة
صفــراء أغــوت قلبــه كــي يحــذرا
ذا رُجــمُ أرغــونٍ ونــورٌ باهـــرٌ
بيــضُ الــرؤى مــن نــارهِ فــوقَ الــذُّرى
النــارُ بـرقٌ قاتــلٌ في دِيمـــةٍ مـرَّت بها
هَونــاً ريـــــــــــاحٌ صَرصَرا
هــا كلُّ مــا تطحَنــهُ يغــدو حــبَّةً
إذ عــادَ في الأيّــامِ غيمــاً ممطــراً

****

الفرقُ في الضوء. كان الضوء دائماً واحداً من الأشياء التي أعادت سِنَاناً إلى حياته الأخرى.

في ذلك الوجود الآخر، كانت فترات ما بعد الظهيرة تنتهي بلا ضجّة. ما يزال بإمكانه تخيّل أن تغمره الشمس الحارقة في الأُفق المرتعش، والهبوط المفاجئ لِلّيل. وبدَت فترات الظَّهيرة في السنوات التي تلت ذلك، ممتدّة أو مضغوطة وَفْقَاً للموسم، وهي السنوات التي قضاها مع أبي عبد الله في المغرب، الأرض التي تغرب عندها الشمس. وقد كان التأثير أكبرَ هنا

على الجهة الأخرى من المضيق. إذ لم تشرق الشمس أبداً بالارتفاع نفسه الذي كانت عليه في أرض طفولته، حيث التمعت المراعي الواسعة باللون الأصفر وتركت القطعان تلهث في ظلّ أشجار الباوباب. بل بدت الشمس مرهقة هنا، وهي تنحدر عبر السماء. فكّر سِنَان أيضاً في أوّل نظرة له داخل قصر الحمراء، حيث بدا الضوء مختلفاً مرّة أخرى، متأثّراً بالظلام حتّى في النهار.

كان للضوء ميزةٌ أخرى هنا في مكتبة قصر الوزير في عين الدمع، حيث رشَحَ الضوءُ من الشبابيك وشابَهُ غبار الكُتُب وأصواتُ الماء المتدفِّقِ من الحديقة في الأسفل. تمنّى سِنَان لو يطلقون له العنان، لينقضَّ على أكوام المخطوطات المترنّحة في الكوات المغطّاة بعلامات وأسماء: كان ذلك كلّه يذكّره بتلك الأيّام الأولى في مكتبة الجامع الكبير في فاس، قبل سقوطِ سيّدِهِ من النعيم. ولكنَّهُ جلس القرفصاء بكلّ إخلاص عند الباب، وهدّأَهُ صمتُ المكتبة، ومشاهدةُ أبي عبد الله يمسِكُ الورقة ويضعها مقابل أشعّة الشمس الآفلة.

قال الرجل العجوز كاسراً تموّج الصمت: "يا لسان الدين، لقد قلّبتُها في كلّ اتِّجاه، ولكي أكون صادقاً معكَ، لا أستطيعُ فكَّ لغزِها ... ليس بعد، على الأقلّ" وطنّت ذبابةٌ ناعسةٌ فتدلّى جفنا سِنَان. **"يا أسود كالليلِ يُفني فَحـــــــــــمَهُ بالنارِ تستولي على وَهجِ السُّرى"**

عيناها. لقد رآهما سِنَان مجدّداً حتّى قبل أن يصل الصوت إلى دماغه، ونظراتها المملوءة بالاستغراب والاستنكار والحاجة. كانت هذه هي الكلمات التي قالتها. صرخ وهو ينهض: "سيّدي!"

أدار لسان الدين رأسه الثقيل المترهّل، متجهّماً لسِنَان.

همس أبو عبد الله: "سِنَان! ... أنا أعتذر نيابة عن غلامي. أشعرُ، في

بعض الأحيان، أنه لا ينبغي عليّ أخذه معي إلى أيّ مكان. ولكن، كما ترى فهو من عشّاق الشِّعر، وهذه واحدةٌ من صفاتِه الكثيرة الأخرى. ولكنَّ الشِّعر يجعلُه يتحمّسُ في بعض الأحيان أكثر من اللازم. يتعلَّقُ الأمر كلّه بالحرارة الطبيعية المفرطة لأمزجته القادمة من بلاد السودان".

قال الوزير وهو يأخذ الورقة من يدَي أبي عبد الله: "البيتُ ليسَ رائعاً إلى هذا الحَدّ".

فقاطَعَهُ سِنَان: "ولكن، يا سيّدي ...".

"أعرف، أنتَ تتحرَّقُ شوقاً لتلاوةِ شيءٍ ما بنفسكَ، أليس كذلك، يا بني. حسناً، عليكَ فقط أن تهدّئ من روحكَ قليلاً ...".

"سيّدي".

حدّقَ أبو عبد الله في غلامه" ... الصبر، يا سِنَان!" ثمّ نظر إلى الوزير الذي بدا مستغرقاً في القصيدة مرّة أخرى. ثمّ نظرَ إلى سِنَان وشفتاه تشكّلان عبارة بطيئة غير مسموعة: "تذكّر وزارتي".

فهَمَسَ سِنَان مجدّداً "من فضلكَ، اسمعني، يا سيّدي!".

رفع لسان الدين رأسَهُ وعَبَسَ في وجه العبد وأخذ يتحدّث: "إذا أخذنا في الاعتبار الآثار المجازيّة للألوان الثلاثة، فسوف تكون الاحتمالاتُ لا حصرَ لها. أمّا مدلولاتها الأكثر وضوحاً، فيمكنها الإشارة إلى الأجناس البشرية المختلفة، الزنجي الأسود والإفرنجي الأبيض، "بنو الأصفر" مرادف قديم لليونانيّين. وغالباً ما تشير كلمة "أبيض" في الشِّعر كما تعلم إلى وميض الأسلحة. ويمكن أن تشير كلمة "أصفر" إلى الفراغ. أمّا "الأسود"، إذا ما نظرنا إلى الاحتمالات الأكثر غموضاً، كان بالنسبة إلى شعراء الجاهلية سهماً ملطّخاً بالدم ويُعتبَرُ فألاً حسناً. وهكذا. يمكن أن تكون المعاني المحتملة غير محدودة ...".

لم يستطع سِنَان بَلعَ ما كان يعرفه عن الشِّعر الغامض. وتساءَلَ إلى متى سيستمرّ هذا الخطاب الأدبي للوزير.

"... ثمّ هناك المشكلة الإضافية المتمثّلة في أن الألوان في حَدّ ذاتِها، إذا جاز التعبير، مخلوقاتٍ زلِقَة لا يمكن الإمساك بها. غالباً ما يشير "الأسود" إلى "الأخضر" عند رؤيتِهِ عن بُعد: يُقال "سواد" عن مجموعة من أشجار النخيل في واحة بعيدة ...".

قال أبو عبد الله: "يا لسان الدين، هناكَ شيءٌ مهمّ".

وتابع الوزيرُ متجاهلاً إيّاه: "أمّا الأصفرُ، فيشيرُ أحياناً إلى اللون "الأسود" في شِعر القدماء، على ما يبدو عن طريق نقل المعنى من الإبل السوداء، والتي يقال دائماً إنها تحتوي على مزيج من الشَّعرِ الأصفر في وَبَرِها ...".

وتمكّن أبو عبد الله من التسلّل إلى حديثه: "ولكنكَ نسيتَ أن الألوان جميعها في البيت تتعلّق بالنار".

"صديقي العزيز، اسمح لي بمقاربة هذه النقطة بطريقتي الخاصّة. الآن، اقترح عليّ تكرار النار في البيت أوّلاً وجود صلة مع الأجرام السماوية، التي هي نارية في طبيعتها ومتمايزة حسب اللون في الواقع، ويحتوي البيت على ذلك التلميح المباشر الذي يشير إلى الشمس، "يا أصفر الحَليا كما شمسِ الضحى". ومع ذلك، فإن حقيقة أن العبارة تشبيه مباشر "أصفر كما" تميل إلى إبطال فرضيّتي. لا يصف المرء الكوب، على سبيل المثال، بقوله إنه مثل الكوب. لذلك، إذا وَزَنّا الأمور جيّداً، فأنا أميل نحو افتراض أن البيت قد يخفي شيئاً" ونظر إلى أبي عبد الله بطريقة ممتلئة بالتحذير "شيئاً ذا أهمّية متعلّقة بالخيمياء".

كاد سِنَان أن يخرج عن شعوره: لقد سمع ذلك الصدر الأوّل من البيت من جارية الخيميائي! ولاحظ أن أبا عبد الله بدا متحمّساً بالقدر نفسه "هذا

ما ظننتُهُ حقّاً!" صاحَ سيّدُه وهو يصفّقُ بيدَيه "أسود" يعني الرصاص، و"أصفر" يعني الذهب، و"أبيض" يعني الفضّة. عقول لامعة، كما ترى، يا لسان الدين ...".

أجاب الوزير: "أجرؤ على القول، حتّى لو توصّلَ بعضُنا إلى استنتاجاتنا بالمصادفة، والبعض الآخر عن طريق المنطق. ولكن، دعونا نمضي قدماً في الوقت الحالي على أساس هذا الافتراض. الأبيات الثلاثة الأولى من الشِّعر تسرد المعادن. أقترح أن ينقلنا البيتان الرابع والخامس من المجاز إلى الحقيقة الصلبة، إلى الأرض الصلبة حرفياً، أي منشأ المعادن المَعنيَّة".

"لقد أخذتَ الكلمات نفسَها من فمي، يا لسان الدين".

"ولكنَّ المقطعَ الأخير غامض للغاية، ومعناه يفلتُ منّي، ما لم يكن هذا البيت الأخير يشيرُ إلى المَثَل القائل: "كلّ ما طحنّاه عاد حبّاً". ممّا يعني أن صاحِبَ الشِّعر يخبرُنا على نحو غيرِ مباشرٍ أن جهودنا لفهم رسالته قد ذهبت سُدى".

قال أبو عبد الله: "حقّاً (وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيْلاً)".

قال الوزير الأكبر: "صدق الله العظيم، حقّاً كم تصحّ كلمات الله تعالى، يا صديقي العزيز، وخاصّة على البعض منّا. ويبقى رأس الحكمة دائماً أن نعترف أننا لا نعرف. لنعد إلى الأرض الصلبة النسبية للبيتَين، والتي يمكن وصفهما بأنهما "طوبوغرافيان". إذ تحتلّ قادس، كما هو معروف، لساناً منخفضاً من الأرض".

شعر سِنَان باضطراب وقلقٍ، فقد ذكر له سيّده قادس من قبل عند عبورهم المضيق، عُشّ القراصنة النصارى.

"لا شيء هناك يمكن وصفه عن بُعد بأنه "جبل". ولكن، هناك جبال داخلية، تنتمي إلى مقاطعة قادس. الصخور هناك تشبه صخور غَرنَاطَة

المباركة، وقد تظهر صفراء في فترات معيّنة من النهار. أمّا بالنسبة إلى أن توصَفَ قلعةُ طليطلة أو "توليدو"، كما يسمّيها محتلّوها الكافرون، بأنها سوداء، فهذا مخالف للحقيقة. و"قبور أرغون" ... "الرُّجَم" هي القبور المغطّاة بحجارةٍ تُنصَبُ على القبر على شكل دائري. لقد شاهدتُ قبوراً مشابهة يمكن وصفها بهذا الوصف، والتي يعود تاريخها إلى عصر قدماء الإيبيريّين. ولكن، أين يمكن أن تقع مثل هذه القبور في مملكة أرغون على وجه التحديد؟ لا أعرف. إذن! لنرجع إلى *رسالة الشقندي* (*القلقشندي*) في *فضل الأندلس* ...".

نهض الوزير بسرعة وتوجَّهَ إلى كوّةٍ حملت اسم "الرحلات والطوبوغرافيا"، مكرّراً أسماء الأماكن الثلاثة من بيت الشِّعر، "قادس، طليلطة، أرغون ... قادس، طليطلة، أرغون ..." وجد المخطوطة وغاص في صفحاتها تحت الضوء الخفيف.

وجد سِنَان فرصته. نهض مباشرةً وأصبح هناكَ بثلاثِ خطواتٍ يهمسُ في أُذُنِ سيِّدِه.

تنحنَحَ أبو عبد الله وقالَ مُبتسِماً: "لسان الدين، أعتقد أنني أستطيع مساعدتكَ. فغلامي، أعني مهاراتي في الاستنتاج، قد فتَحَت خطّاً جديداً للتحقيق". رفع الوزير ناظرَيه عن المخطوطة، فتابع أبو عبد الله: "ولكنني بحاجة لقضاء بعض الوقت، مع ... مع ... أقصد أنني بحاجة للتعرّف على الرجل الذي قُتِلَ بصاعقةِ البيَازِين؟ أقصد أحتاج لقضاء بعض الوقت بمفردي مع قَيِنَتِهِ".

اكتنزت ملامحُ لسان الدين المترهّلة فجأة، ثمّ انتفخت مثل العجين في فرن الخبز: "*جارية الخيميائي*؟ حسنٌ، حسنٌ، يا صديقي .. لا زلتَ تنجذبُ للعبيدِ الأذكياء وعشّاق الشِّعر" وأومأ برأسه نحو سِنَان "سوف تمثّل هذه المرأة القطعة الناقصة. يمكنكَ دفعُهُما للعمل ضدّ بعضهما

البعض، ذَكَرٌ مقابل أنثى، أسود مقابل بيضاء! و.." ثمّ تحوّلت ملامِحُهُ إلى شيءٍ قد يستطيع سِنَان فقط أن يقول إنه كان ابتسامة "لقد سمعتُ أنها مُسنّة بعض الشيء، ولكن العوامّ ما يزالون يطلقون عليها صفةَ الفتاة الجذّابة. لنفكّر في الأمر، هل يجبُ عليّ تقديم عرضٍ في المرأة إلى وَرَثَة الخيميائي، قبل أن تضع مخالبكَ عليها؟"

وتردَّدَ صدى ضحكةِ الوزيرِ في أرجاء المكتبة جميعها.

الفصل الرابع عشر

"لقد أخبرتَني ألفَ مرّة كيفَ حدثَ ذلك. ما أريد معرفته هو لماذا قالت ذلك؟ ولكَ أنتَ، يا سِنَان، من بين مخلوقات الله جميعها!" فلم يردّ سِنَان. انعطفا عند ناصية ونزلا في زقاق متدرّجٍ شديدِ الانحدار. جرّ صبيٌّ حماراً محمّلاً أمامهما، وجعلَهُما يلتصقان بالحائط. كانت أزقّةُ ربض البَيَازِين في هذه الفترة الصباحية مملوءةً بالبشر والحيوانات. حدّث سِنَان نفسه في اختلاف المكان عن آخرِ مرّة مشيا فيها من هذه الطريق التي أضاءها ضوء المصباح والبرق، ليلة الصاعقة.

قال أبو عبد الله مبتسماً معابثاً فتاه: "يا أسود كالليل ... . بالنار ... فعلاً. سوف يعتقد أيّ شخص أنها ..".

"أنها ماذا، يا مولاي؟"

"أنها معجبةٌ بكَ". كان أبو عبد الله لا يزال ينظر إليه وقد اختفت الابتسامةُ هذه المرّة. وخَجِلَ سِنَان حقّاً. سارا معاً لفترة صامتَين، يسمعانِ صدى خطواتِهما وخطواتِ المارّة فقط، ترتدّ عن الجدران الطويلة غير المزيَّنة للمنازل. ثمّ تحدّثَ سِنَان في نهاية المطاف: "ما أريدُ معرفتَهُ، يا مولاي، هو كيف وصَلتِ القصيدةُ إلى الوزير؟ ولماذا هو مهتمٌّ بها إلى هذه الدرجة"؟

"لا أعرف، يا سِنَان. لا أعرف، كلّ ما أعرفه أنه أعطاني القصيدة، وسألني إذا ما كانت تعني أيّ شيء بالنسبة إليّ؟ المشكلة هي أنها لا تذكّرني

بشيء. ليس بعد. ولكنني أشعر، بل متأكّد، أن هناك ما هو أكثر ممّا تراه العين". انعطفا في ممرٍّ ضيّقٍ، ثمّ دخلا من فتحةٍ عميقةٍ بين المنازل المرتفعة. وأضافَ أبو عبد الله وكأنَّهُ يُحدّثُ نفسَه: "شيءٌ أكثر من ذلك بكثير".

شعَرَ سِنَان بقشعريرةٍ مفاجِئة، وأدرَكَ تماماً المكان الذي وصلا إليه. بدَتِ الأبعادُ مختلفةً في ضوءِ النّهار، ولكنّه شعرَ بالشعور نفسه، أي أنه وقع في فخّ من المباني التي مالَت على بعضها البعض حتّى حجبَت السماء، وحتّى الظلالُ بدت أعمقَ وأغمقَ ممّا كان ينبغي أن تكون. ورأى سِنَان في عين ذاكرته الشبَحَ الذي تحرّكَ هنا، ثمّ تحوّلَ إلى رجل، وتلك النظرة من العينَين الخضراوَين المملوءَتَين بالكره والشهوة.

انفتَحَ الفخّ، وتنفّسَ سِنَان مجدّداً. ولكنّه كان وأبو عبد الله صامتَين مرّة أخرى، في المكان الذي عاشا فيه تلك الليلة قبل نصف أسبوع، هنا في شارع الخيميائي. رأى سِنَان أنهم قد أزالوا الحطامَ خارج المنزل، ولكن النافذةَ المفتوحة حيث كانت الشبكة لا تزال مكشوفةً ومحاطةً بعلامات الحريق: كانت تحدّقُ في الشارع مثل عينٍ عمياءَ محاطةٍ بالكُحل عشوائياً. كما لم يحاول أحدٌ سدَّ مدخلِ الشارع، على الرغم من أن الباب نفسه، والذي تعلّقَ الآن خارج إطاره، كان مثبَّتاً على الحائط. عَبرَا عتبة الحفرة وشقّا طريقهما عبر الظلّ الخفيفِ في ممرّ المدخل، وصرخا: "يا الله، يا الله، يا ساتر، يا ساتر" للإعلان عن وجودهما للمرأة التي كانا يأملان مقابَلتها في الداخل.

لقد كانت هناك، ودَلَفَ أبو عبد الله إلى صحن الدار، ورأى سِنَان الهلع في عينَيها فوق اللثام. ثمّ تغيّرَ هلعُها إلى حالة من الشكّ وعدم القدرة على تصديق ما حصل، وعندما خطا سِنَان فوقَ خطّ الظلّ إلى النور: نظرت إليهِ مُحاطاً بالظلال المستطيلة في المدخل، فاسترخت

ملامح العبوس حول عينَيها. قدّمَ أبو عبد الله نفسَه وقال: "سامحيني على مجيئي دون سابق إنذار على هذا النحو. ولكن، كوني مطمئنّة أنني هنا لمساعدتكِ".

نقّلَت المرأة ناظرَيها بين السيّدِ والعبدِ، ثمّ قالت مُحاولةً إيجادَ الكلماتِ المناسبة: "لا، يا سيّدي، أتمنّى أن تسامحني. أعتذرُ على عدم تمكّني من القيام بواجبِ الضيافة على أفضلِ وجه". أعادَ كلامُها، الذي كان واضحاً وصحيحاً لغوياً، مع تلك النبرة الأجنبية، وتلك الرغبة الطامحة التي فتَنَتهُ، سِنَان إلى ذلك الصباحِ وإلى مجلسِ صاحِبِ الليل. وتابَعَت مُتردّدةً: "وكما ترون" وهي تفتح الألواح القابلة للطي لباب عريض يتكوّن من خمسةِ ألواح، وتقودُهُم إلى غرفةِ استقبالٍ مُظلمة "هنا ... هنا ... حصلت الحادثة". قال أبو عبد الله: "أعرف. هذه هي الحادثة الذي جلبَتنِي إلى هنا أم ينبغي أن نقولَ (الواقعة)؟".

رأى سِنَان خطوات المرأة تتعثّر عند سماعها هذه الكلمة، ثمّ قالت مشيرةً إلى أريكةٍ مُبطّنةٍ بالوسائد: "من فضلكَ، اعتبر نفسَكَ في منزلكَ، يا سيّدي. وأتمنّى عليكَ أن تسامحني على حالة الغرفة. فالظروف ...".

أدار أبو عبد الله رأسه بعيداً، وغرقوا جميعاً في صمتٍ مُحرج. جلسَ سِنَان مقاطعاً ساقَيهِ على الأرض قُربَ المدخل. نظرَ حوله وتملّى في الغرفة. فرغم أن الغرفة كانت فوضويةً شعثاء، ولكنها أوحت بانطباع بأنها تمتّعت يوماً برخاءٍ وازدهارٍ معيّنَين، إن لم يكن رفاهية. كان هناك بعض الجصّ الجميل على الجدران مع سجّادٍ راقٍ على الأرض، ولكنّ كلّ شيء كان مغطّى بغبارٍ أسود كثيف، ولا شكّ أن ذلك كان بسبب الرياح التي رافقتِ الصاعقة. لاحظَ سِنَان أن الجارية حاولت جهدَها لترتيب المكان. وكانت قد جَمَعَت أيضاً أشياء مختلفة على صينيّةٍ نحاسيّةٍ في وسط الغرفة: صندوقاً صغيراً، ومسبحة من العقيق، وخنجراً في غمدٍ فضيّ

مصقولٍ حديثاً، بعض الكُتُبِ الرقيقة والمجلّدة بدقّة، ولكنها محترقة، أمّا المفاجئ، هو مُنخُل الكُسكُس كما قال لنفسه. شعرَ أن هذه بقايا حسّيةً ملموسةً لحياةٍ عاشاها معاً. وفكّر سِنَان أنها مجرّد تذكاراتٍ لم تستطع الاحتفاظ بها. فهي عبدةٌ مثله لم تكن تملكُ شيئاً، ولا حتّى نفسَها. وشَعَرَ أنها تنظرُ إليهِ بطرفِ عينِها، فأطرَق برأسِهِ في الأرض.

قالَ أبو عبد الله بلطفٍ: "رَحِمَ الله سيّدكِ، وعزائي لكِ في مُصابِكِ".

قالت المرأة: "باركَ الله بكَ، يا سيّدي. إن سماعَ عزائكَ ودعائِكَ مريحٌ بحدِّ ذاته. لم يعزِّني أحدٌ منذ ... منذُ وفاةِ مولاي".

فتابع أبو عبد الله: "أودّ أيضاً أن أُعرِبَ عن تعاطفي بطريقةٍ عملية. فأنا هنا للمساعدة، كما قُلتُ".

"ولكنني لا أستحقّ، يا مولاي".

وتابَعَ الرجلُ العجوز متجاهلاً إيّاها بأقصى نبرةٍ لطيفةٍ استطاعَها: "ولكي أساعِدَكِ، فسوف أطلبُ مساعدتِكِ". رأى سِنَان سيّدَهُ يسحبُ لفّةً من الورق من كُمِّه. "هل تستطيعين القراءة؟"

فقالت: "بالطبع، يا سيّدي". وظهرت خطوطٌ حولَ عينَيها شكّلت الهامش الخارجي للابتسامة فوق اللثام. "لقد علّمني مولاي عليّ" وأخذَتِ الورقة وفَتَحَتها.

فكّرَ سِنَان مع نفسِه في أن اللثام قد يخفي الملامح، ولكنّه لا يمكنُ أن يخفي المشاعر. لقد رأى عينَي المرأة المتّسعَتَين من الصدمة، تحدّقان في سيّدِه، ثمّ تحدّقانِ به.

قال أبو عبد الله: "أنا آسف. لم أقصد إزعاجَكِ. كلّ ما أودّ معرفته هو معنى هذه القصيدة".

"سامحني، يا سيّدي، ولكنني لا أستطيع فهم مثل هذه الأشياء. فأنا امرأة وجارية".

قال أبو عبد الله: "ولكنكِ امرأةٌ بارعةٌ للغاية، كما قيلَ لي".

"كلّ ما أعرفُه، يا سيّدي، أن هذا الشِّعر يعني ما يقوله، ويعني أكثر من ذلك بكثير". بدت عيناها وكأنّهما تذرَعانِ الغرفة قبل أن تستقرّا مجدّداً على وجهِ أبي عبد الله. كان يراقبُها، ووجهُهُ مائل إلى جانب واحد مُبتسماً مُشجِّعاً. درَسَ سِنَان ملامِحَ سيِّدِه، بوجهه الجوزيّ اللون، وعينَيه السنجابيَّتَين اللامِعَتَين، ولحيتِه البارزة، وفكّر لوهلة، كيف لم تظهر عليه آثار العمر أبداً. وخطرت في ذهنه أيضاً، ولم يكن هذا لأوّل مرّة أيضاً، الفكرة نفسها التي خطرت ببالِ لسان الدين: أن أبا عبد الله الأشبه بالرحّالة الأسطوريّ الخالد، الخَضِر، قد أبرَمَ صفقةً مع الزمن.

أومَأ أبو عبد الله برأسِهِ على نحوِ طفيفٍ غير محسوس تقريباً. فقالتِ المرأة بهدوء: "سيّدي، لقد ألّفَ عليّ هذا الشِّعر بعد ظُهرِ ذلك اليوم، يوم وفاته".

رأى سِنَان رأسَ سيّدِه يستقيم، وحاجبَيه يرتفعان قليلاً، ثمّ تذكّر مصدوماً الأبيات الأخيرة قرب نهاية القصيدة. ماذا كان يقول البيت؟

النارُ برقٌ قاتلٌ في ديمةٍ مرّت بها هَوناً رياحٌ صَرصَرا ...

اكتسب الجزء الأكثر إثارة للحَيرة من القصيدة معنى مفاجئاً ومخيفاً.

قال أبو عبد الله، على نحو أكثر جِدّية الآن "كما لو أنَّ سيّدَكِ قد تنبّأ بالصاعقة ... أو كما لو أنه قد تنبّأ بموتِهِ".

"سيّدي، كان عليّ رجلاً عبقريّاً موهوباً في جوانب كثيرة أكثرَ من أن أُحصِيَها، ولكنّه لم يكشِف من قبل عن موهبةِ التنبّؤ. وعلى أيّ حال، لم تقتله الصاعقة. فهو ... فهو ... ولكنّكَ تعلم ذلك، أليس كذلك؟".

التفتَت إلى سِنَان. اختفى كلّ شيءٍ للحظةٍ طويلة ممتدّة، سوى تلك العينَين اللتَين كانتا تنظرانِ إليه. ثمّ أدارت وجهَهَا إلى سيّدِه وتدفّقَت بقيّةُ الوجود مجدّداً. قالت الجارية: "ربّما كان الله غاضباً عليه، يا سيّدي" وقد أصبحت النبرةُ الغريبةُ في لهجتِها أكثرَ خشونةٍ ربّما بسببِ الحماس. "لقد ارتكبَ عليّ أشياء وأفعالاً لا ينبغي عليكم كمسلمينَ فعلَها. ولكنَّ قلبه كان طيّباً. ألَا يقولُ كتابكُم المقدّس، يا سيّدي، (إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)؟" تنهّدَت وسَحَبَت منديلَها إلى الأسفل، وأخذت تبكي بصمتٍ تحتَه.

"أنا ... أنا ..." إنها المرّة الثانية التي يرى فيها سِنَان سيّدَهُ أبا عبد الله حائراً في كلماتِه منذ قَدِما إلى غرنَاطَة. ثمّ تماسَكَ في النهاية وقال: "يا سيّدتي ... العزيزة، سواء كانت وفاةُ سيّدِك بسببِ صاعقةٍ رعديّةٍ أو بفعلِ فاعلٍ من البشر، فهذا أمرٌ مكتوبٌ ومقدَّر، مكتوبٌ قبل أن يبدأ الزمن نفسه، كتبهُ الله تعالى وأعمارنا بيده وحده. ومع ذلك كلّه، فإنّكِ عندما أخبرتِ صاحبَ الليل أنه ... قد ذهب إلى قدَرِهِ على يدِ قاتلٍ، فقد صدّقتُكِ". رفعَت الجارية رأسَها ونظرت مذهولةً من خلالِ دموعِها. "*لقد صدّقتُكِ من أعماقِ قلبي*. وقرّرتُ أن أكتشفَ هوية قاتِلِه".

نظرَ سِنَان إلى سيّدِه: كان يبتسمُ مجدّداً، وقد ارتفعَ رأسُه قليلاً، ولكن، حتّى الضوء الخفيف في الغرفة لم يستطيع إخفاء حقيقة أن السطوع المعتاد لعينَيه كان يبرز من خلال غشاء من دموعه.

تابع أبو عبد الله وهو يجمعُ شتاتَ نفسِه وثوبِه وينهضُ عن الأريكة: "والآن، سوف سأذهب بعد إذنكِ، وأتحقّقُ من مختبرِ سيّدِك. لا، لا حاجة لمرافقتي، فأنا أعرف مكان المختبر".

"المنزلُ منزلكَ، يا سيّدي، ولكنني، مع فائقِ الاحترام، أتمنّى منكم أن تقوموا بذلك بسرعة. فقد يأتي وَرَثَةُ مولاي في أيّ لحظة، وإذا وجدوكم هنا ... فلن يكونَ الوضعُ جيّداً".

وقفَ سِنَان، فأشارَ له أبو عبد الله: "لا، ابقَ، يا سِنَان.. سوفَ أناديكَ إذا احتجتُكَ".

جلسَ سِنَان مجدّداً وثبّتَ عينَيه على الرسمِ المتكرّر في سجّادةٍ مُتربِة. وتساءَلَ عن سببِ رغبةِ سيّدِه في التحقيقِ والبحثِ في المختبر بمفردِه. لطالما اعتمدَ أبو عبد الله وعلى مرّ السنين على بصيرة عبدِه، رغم أنه كان مراقِباً حادّاً وملاحظاً دقيقاً بذاكرةٍ قادرةٍ على حفظِ أدقّ التفاصيلِ على نحوٍ إعجازي. قال ذاتَ مرّة: "أنا أَستخرجُ الأحجارَ الكريمة وأكنُزُها، ولكنني أَحتاجُ منكَ أن تنظُمها على الخيط، يا بني" وقال سِنَان لنفسه: "ربمّا أرادَ تكوين رؤيتِهِ الخاصّة أوّلاً".

قاطَعَ صوتٌ ما تأمّلاته: صوتُ نقرِ الخرز، وسلسلةٍ من الأصوات الإيقاعية الأخرى والتي لا معنى لها: avemariagratiaplenadominuste ... رفعَ رأسَهُ فوجدَها تنظرُ إليه، كانَ لونُ شَعرِها ينبضُ فاتحاً وداكناً محاولاً الخروجَ من تحتِ المنديل، ليقطَعَ الجبين الحليبيّ الأبيض. توقّفَت أصابعُها للحظة، ثمّ تابعت مجدّداً بالعربية وهي لا تزال تنظر إليه: "سبحان الله، سبحان الله ...". توقّفت حركة الخرزات وقالت: "كنت أسبّحُ مترحّمةً على روحِ عليّ بالمسبحة، قبلَ أن يأخذوا كلّ شيءٍ منّي، وقبلَ أن يأخذوني بعيداً".

قال سِنَان: "ألم يحرّركِ سيّدُكِ؟".

حدَّقَت فيه مندهشةً من لغتِه وقواعدِه النحويّة المثالية. "تستطيعُ أن تتكلّم... لقد بدأتُ أعتقد أنكَ مجرّد ظلٍّ لسيّدِكَ".

هزّ كتفَيهِ وفجأةً لم يعرف ماذا يقول.

فتابعت: "لا، عليّ لم يحرّرني. كان سيفعلُ ذلك على الفورِ بالطبع، لو أنجبتُ له طفلاً، ولكن ... ولم يكتب وصية"، ثمّ قالت مع ضحكة: "لذلك أنا الآن مُلكٌ لورَثَتِه. وهم يكرهونني".

خرجتِ الكلماتُ بقوّةٍ أكبرَ ممّا كان يتمنّى: "كيف يمكنهم أن يكرهوكِ؟!".

"إنّ شقيق عليّ ... تقيّ ومتديّن على نحو مفرط. وهو يعتقدُ أنني قد أخذتُهُ في طريقِ الضلال، وأنني .. لوّثتُهُ بتأثيراتي المسيحيّة. وكما ترى فأنا لم أترك ديانتي المسيحيّة أبداً".

حدّق سِنَان بها: كانت هذه المرأة أوّل شخص نصراني حقيقي يلتقي به في حياته.

هزّت رأسَها نفياً. "لا تنظر إليّ وكأنكَ مصعوق. أنتَ أسوأ منهم، ولا بدّ أن تعرف بأنني لم أقترب من قبل .. أقصد لم أكن بهذا القرب من قبل ... أقصد، مع شخص أسود".

ابتسمَ سِنَان لصراحَتِها. فضحكت ثمّ تمالكت نفسَها وظهرت تلك النظرةُ نفسها في عينَيها مجدّداً. نظرة الحاجة. فأطرقَ بعينَيهِ إلى الأسفل.

تابعتِ الجارية: "ثمّ هناكَ بعض الأبيات ... التي قُلتُها، والتي يعتقدُ شقيقُ عليّ أنها قد سوّأت سُمعةَ العائلة".

"أنتِ شاعرة!"

فضحِكَت مرّة أخرى: "ربّما الأصحّ أن تناديني بالناظِمة أو المتشاعرة".

قال سِنَان: "إذاً، لماذا أنتِ قلقة بشأنه شقيقِ سيّدِك هذا؟ فأنت لستِ جارية طبّاخة، ولا بدّ أنه سوف يحترم حقيقةَ أنكِ مُتعلّمة".

"على العكس تماماً، بل سوف يعاقبني على ذلك. وسوف يجعلني مجرّد خادمةٍ وضيعةٍ، بل ربّما ... أسوأ من ذلك. ومهما تعلّمتُ، ومهما كنتُ على درايةٍ جيدةٍ بالعروضِ العربية والعزفِ على العود وترفيهِ الضيوفِ وفنونِ القِيان الأخرى جميعها، فمَن الذي سيرغبُ بقَينَة عجوزٍ مثلي؟"

كادَ سِنَان يتحدّث، ولكنّهُ أمسَكَ نفسَهُ دون أن يعرفَ حتّى ما كان عليه أن يقول أصلاً. فتابعت: "أفضلُ ما يمكن أن أتمنّاه أن أصبحَ مُدرّبةً للقِيان. ولكنّ شقيقَ عليّ لن يسمحَ بحدوثِ ذلك أبداً، ففنونُ الشِّعرِ والغناء مجرّد لعنةٍ بالنسبة إليه، لذلك يتمنّى أن يراني أتعذّب".

قال سِنَان: "ألَا يوجد أيّ شخص آخر، شخص يمكنكِ اللجوء إليه؟".

ابتسمت بحزن. "كان لي أخٌ يوماً، أقصد لديّ أخ، إذا كان الله برحمته الواسعة قد أبقى على حياته. انتشر الوباء انتشاراً كبيراً في غَرنَاطَة في العام الماضي، وقد لقي الكثيرون حتفهم. لقد حاول مولاي تقصّي أخباره، ولكن هذا كان مستحيلاً للأسف. وكما ترى، فبعد أن أمسكوا بنا، أخذوا أخي خايمي لينضمَّ إلى المماليك". تصوّر سِنَان أولئك النخبة المنفصلة من جنود الحرس السلطاني، في الجانب الآخر من الوادي في قصر الحمراء، والذين على استعداد دائم للموت في سبيل حاكمهم وعقيدتهم الإسلامية. "لقد غيّروا دينَهُ بالطبع. لذلك فهو ميّتٌ بالنسبة إليّ، حتّى لو كان لا يزال على قيد الحياة. وأنا كذلك بالنسبة إليه" أطرقَت قليلاً ثمّ رفعَت رأسَها: "ولكن، ماذا عن تاريخكَ أنتَ؟ سامحني على فضولي، ولكنني لم أتوقّع أبداً أن ... واحداً من عِرقِكَ ... قد .." لم تجد الكلمات المناسبة، ولكنّ عينَيها كانتا بليغتَين بالنسبة إليه وبنظرة الاستغراب والاندهاش والحاجة نفسها "يكونُ قادراً على التعبيرِ عن نفسِهِ ... بأسلوبٍ جميل".

****

فكّر أبو عبد الله: "يمكنني شراؤها". ما تزال رائحة الجحيم تفوح من المختبر، مع تلك الرائحة التي تميّز اللحم المشوي بلا شكّ. ولكنّ ذهنَ أبي عبد الله كان ما يزال هناك في الغرفة في الجهة الأخرى من الفِناء، يتأمّل القَينَة. فقد جعلتها المأساة أكثر جمالاً، ومنحتها درجةً أكثر عمقاً

من الظلال التي فجّرت إشعاعَها أكثر فأكثر. قال لنفسه، شديدة البياض وشديدة السواد ... الحُور العين، نساء الجنّة اللواتي لا مثيل لهنّ، واللواتي سُمِّينَ بهذا الاسم لحَوَرِهِنّ، أي اشتداد بياض عيونهنّ واشتداد سوادها.

يمكنني أن أشتريها لو كان لديّ المال ...

أيقظتهُ الفكرةُ الجديدة وأعادتهُ إلى الواقع حيث كان. ولم يستطع أن يجِدَ في هذه الإضاءة الخفيفة في الحطام أيّ شيء كان، بل مجرّد آثار مشوّشة لضربة البرق.

سوف يقرضُني لسان الدين المال ...

خطا خطوة أخرى، فانكسر شيءٌ ما تحتَ قدمِهِ، شيءٌ مصنوعٌ من الزجاج.

وتحطّم الوَهم: سوف يكون الوضع مثل تلكَ المرآتِ السابقة كلّها، وأولئكِ المحظيّات الأُخريات كلّهنّ. لقد أراد المزيد: *أريدُها أن ترغب بي*. كان يعلم أنها لن تفعل ذلك أبداً، على الأقلّ ليس بالطريقة التي يقصدُها.

بدأت عيناه تعتادان ظلام المختبر بعد الضوء الساطع في الفِناء، وأخذ يميّز الومضات الباهتة: شيئاً زجاجياً يشبه المنقار، قد انفصل عن وعاء كبير من النوع الذي تخيّل أن الكيميائيين يستخدمونه، شيئاً ما بدا وكأنه خُطّافٌ نحاسيّ ملتوٍ، يبرزُ من الجصّ المحترق للجدار، لمَسَهُ فأخرج الدمَ من إصبعه، هاوناً نحاسيّاً ثقيلاً مقلوباً في الزاوية. لم يكن يعرف ما كان يبحث عنه، وتساءلَ عمّا إذا كان عليه مناداة سِنَان: إذا كان هناك خيطٌ ما ينبغي اتّباعَهُ في لجّةِ هذا الظلام، فسوف يجدُهُ سِنَان ...

سِنَان. إنها تريد سِنَاناً. لقد أدرك ذلك من مظهرها، حتّى لو لم تكن لتعترف لنفسها بذلك في خضمٍّ هذهِ الخسارة التي تُعانيها، وحتّى لو لم يكن لدى سِنَان فكرة عن ذلك. فكّر مع نفسِه، *يا إلهي، كم هو لامع هذا*

الصبي في بعض النواحي، وجاهل للغاية في نواحٍ أخرى ... يمكنني أن أشتريها له! وسيكون ذلك بمثابة تعذيبٍ لي.

لفتَ انتباهَهُ شيءٌ آخر، بريقٌ حديديّ نصف مخبَّأ في التراب الأسود السميك على الأرض: إنه مِشرَط. التقطهُ من الأرض، ونظَّفَهُ حتّى أخذَ يلمع، وأَعجبَتهُ صناعتهُ وتوازنه.

قال لنفسه، *ينبغي أن أعود إليهما. فهناك سؤال آخر لا بدّ أن أسأله. وحتّى لو كنتُ أريد أن أكون وحدي، فلا أريدهما أن يكونا بمفردهما*. فقال بصوت عالٍ: *يا إلهي، أنا أغارُ من غلامي.*

كان لا يزال ممسِكاً بالمشرط، فمشى باتِّجاه الباب، واستدارَ لإلقاءِ نظرةٍ أخيرة، ورأى عينَينِ تنظران إليه، ورأى حركة صاعدة سريعة، وسمِعَ صرخةً خانقة، كانت صرخته ... ثمّ ضحك: لقد حدّقت القطّة في وجهِهِ للحظة من حافّة النافذة، ثمّ قفزت دون صوت إلى الشارع في الأسفل.

****

قال لها سِنَان: "لقد علّمني مولايَ كلّ ما أعرفُه. مولاي، ومكتبة جامع القرويّين في فاس".

"جامعة القرويّين! أعظم مركز للتعليم في الغرب!"

أومأ برأسِهِ إيجاباً. "لقد كنتُ محظوظاً، كما ترين. فقد أسروني صغيراً. لا بدّ أنني كنتُ في التاسعة من عمري. لذلك كان لديّ الوقت الكافي للتعلُّم". كانت هناك، بالطبع، تلك الطبقة الأخرى الأعمق من التعلّم، والتي اكتسبها في حياته الأخرى. لم يتحدّث عنها مطلقاً. فمَن يريد أن يعرف عنها؟

ولكنها أرادت أن تعرف. قالت: "أخبرني عن حياتِكَ السابقة. فأنا أعرف القليل جدّاً عن ... بلاد السودان".

ابتسَمَ سِنَان. "أنا أيضاً أعرفُ القليلَ عنها الآن. يبدو الأمر وقد حدثَ منذ فترةٍ طويلةٍ جدّاً، فترةٍ بعيدةٍ للغاية. كان والدي زعيماً لشعبنا، وصيّاداً مشهوراً. اعتدنا قضاء أيّام وأسابيع بعيداً عن أرضنا في تقفّي الطرائد. كنّا نذهبُ نحن الاثنان فقط في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يذهب معنا رجال والدي لصيد الأسود ... أتعرفين أنه ليس هناك صوت أكثر رعباً على الأرض، وأكثر إثارة من صوت أسدٍ يزأرُ في وجهكِ من داخل الغابة؟!".

حدّقت فيه، متحمّسةً ومتحفّزة.

ظهرَ شيءٌ ما في المدخل. التفتَ سِنَان برأسه: فرأى جسماً رمادياً ينزلق فيه. قالت لها لبنى وهي تهزّ رأسها باتّجاه القطّة التي اختفت: "جنّيّة المسكينة. لطالما قال عليّ إنها مسكونة بالجِنّ. ولكن، أخبرني الآن، إذا كان والدكَ نبيلاً بين السود، فكيف أصبحتَ، سامحني على السؤال، كيف أصبحتَ عبداً؟"

"نزل جيش إمبراطور مالي إلى النهر العظيم، للاستيلاء على أرضنا، وقاد والدي المقاومة، فقتلوه".

عاد المشهد إليه كما كان دائماً، واضحاً كصورة مصغّرةٍ في كتاب: ضفّة النهر، صورة مشوشةٌ عن ضربة الدبّوس الحربي الفتّاك، ووالدُه يحدِّقُ فيه من خلال حجاب من الدم، والرمح ينزلق من قبضتِهِ، وعالمه الخاصّ يتلاشى بعيداً.

ثمّ قُلِبَتِ الصفحةُ إلى الصورة المصغّرة التالية. كان هناك، صبيٌّ صغيرٌ مصدومٌ، يمسك بيدِ فتاةٍ صغيرةٍ كانت كلّ ما تبقّى له من عالمه، وهي تنظر إليه بالحبّ كلّه في العالم. لقد أحبّها كثيراً، وما زال حتّى الآن، لدرجة أنه لم يستطع تحمّل أن ... ولكنّ الصفحة قُلِبَت مرّة أخرى، وأخذوا يطاردونهما، وسحبوه بعيداً، والتفتَ رغماً عنه ورآهمُ يثبّتُونَها على الشجرة، ضاحِكينَ ولاهثينَ مثل الكلاب.

أمّا الصفحة التالية، فقد كانت فارغة.

رفعَ رأسَه ورأى أنها كانت تنظرُ إليه. واختفى الشكّ. وسادَ بدلاً منه التعاطفُ الكامل. قالت: "*إنّا غريبان ها هنا*" ثمّ سكتَت.

فقال بعد صمتٍ: "*وكلّ غريبٍ* ..." مكملاً شطر بيت الشاعر القديم المعروف باسم الملك الضِّلّيل "*للغريبِ نسيبُ*". فردّت: "هذا صحيح، إذن من الأفضل أن نتعرّفَ على أسماءِ بعضِنا البعض".

قال: "سِنَان".

وتردّدَ صدى نبضاتِ قلبَيهما وقالت: "لبنى".

نظرَ كلاهُما إلى المدخل. كان أبو عبد الله هناك ينظرُ إليهما، ولكن، كما لو كان ينظر إليهما من عدسةِ منظارٍ من مسافةٍ بعيدة.

وكسَرَت لبنى العدسةَ أخيراً وقالت: "سوف أُحضرُ لكَ الماء، يا سيّدي والفواكه المجفَّفة، آسفة هذا كلّ ما لديّ" فقال أبو عبد الله: "لا حاجة لذلك". كان هناك فراغٌ في صوتِهِ لم يسمعهُ سِنَان من قبل "كما أن وَرَثَةَ سيّدِكِ سوف يأتون، ولكن، لديَّ سؤالٌ واحد. وهو سؤال يحمل أهمّية كبيرة. وعاد صوت أبي عبد الله إلى امتلائه مجدّداً وكان ينظر إليها مباشرة، وهذه المرّة كقاضي تحقيق: "وَمَن سمعَ شِعرَ سيّدِكِ *أيضاً*؟".

رأى سِنَان الخوف والارتباك في عينَي لبنى. "لا أعلم .. يا سيّدي. لا أعلم كما قلتُ لكَ، فعليّ نَظَمَ تلك القصيدة بعد ظُهر ذلك اليوم. وجاء شخص ما. سمعتُ جدلاً بينهما في المختبر. ولكنني لم أتعرّف على هوية الرجل".

قال أبو عبد الله بهدوء: "لا بدّ أن تحاولي التفكيرَ مجدّداً".

‹أقسم بالله، يا سيّدي، أنني لا أعرف". نظر إليها سِنَان، وفكّر: لا يمكن

للثام إخفاء المشاعر، ولا إخفاء الأكاذيب. لم تكن هذه كذبة. ولكنها كانت تخفي شيئاً! وما يزال ذلك الخوف يسكن عينَيها.

نظر إليها أبو عبد الله نظرةً طويلةً وهو يهزّ رأسَهُ هزّةً خفيفة، ولكنّ لبنى بقيت صامتة. "ماذا عن هذا؟" قال أبو عبد الله وهو يحمل أمامها سكّيناً صغيراً لامعاً. وانتبه سِنَان إلى أنه أشبه بمشرط. "هل رأيتِ هذا الشيء من قبل؟"

فاتّسعت عيناها فجأة في حالةٍ من الذعر "يا سيّدي، أنا ... عليّ ... لا أعرف" واستدارت نحو الباب. سمع سِنَان ذلك أيضاً، كان هذا مجموعة مختلفة من الأصوات في الفِناء، تقترب باتِّجاههم، ولكنها تقترب ببطء، الحمد لله. بدا من أصواتهم كما لو كانوا ينظرون حولهم ويتفحّصون الدار. وقفت لبنى وهمست: "سوف آخذهم إلى غرفة أخرى وأشتّتُ انتباهَهَم، ويمكنكم أن تتسلّلوا للخارج بأقصى سرعة ممكنة، وعندها لن يروكم، إن شاء الله". كانت على وشك الوصول إلى الباب وهي تنظر للخارج. "آه، لقد دخلوا إلى المختبر. سوف آخذكم إلى الغرفة الأخرى، لا أدري ربّما يستغرق الأمر بعض الوقت. سوف يأخذوني معهم"، ثمّ قالت هامسةً بصوتٍ مسموعٍ بالكاد وهي تُلقي نظرةً أخرى من الباب مجدّداً: "كيف يمكنني أن أتواصل معكَ؟".

همس أبو عبد الله: "أنا أقيم في عين الدمع. بضيافة الوزير".

حدّقَت لبنى في وجهِه.

فتابع أبو عبد الله: "لا تقلقي، يا عزيزتي، فسرُّكِ بأمانٍ معي، وأعدُكِ بصفتي القاضي المالكي السابق في دلهي والسفير المفوَّض لدى الصين ..." عادت الأصوات في الخارج واقتربت أكثر. "... وقاضي قضاة أرخبيل المالديف في وقت ما ...".

همس سِنَان: "مولاي".

ابتسمت لبنى وقالت: "سيّدي، أنا أثقُ بكَ!" ثمّ خَطَت إلى النور، ملقيةً نظرةً أخيرةً على سِنَان، ورحّبت بضيوفِها غير المرغوبِ بهم.

نظرَ سِنَان وأبو عبد الله من الظلِّ خلفَ دعامةِ الباب ورأيا مولاها الجديد وكان رجلاً طويلاً وامرأة قصيرةً وبدينةً في الغرفةِ الأخرى. ثمّ عبرا الفِناء.

شعَرَ سِنَان بقلبِهِ ينبضُ في ضلوعه، وكان يعلمُ أن هذا لم يكن بسبب خوفِهِ من أن يمسكوا به.

الفصل الخامس عشر

قال الوزيرُ بصوتٍ كئيب: "أسبوعان ويومان، ويحلّ علينا عيد مولد سيّدنا محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين". ونظر إلى السماء، السطح الوحيد غير المضطرب في هذه الفوضى والاضطرابات المضطرمة في البهو الجديد. "حسبي *الله ونعم الوكيل*".

لم ير سِنَان اختلافاً كبيراً في القصر منذ زيارتهما الأولى، قبل أربعة أيّام. كانت الأروقة الأربعة لا تزال تغصّ بالسقّالات وغبار الجصّ والنشاط المتواصل والصامت لعشرات عمّال البلاط والجصّ والخطّاطين والرسّامين والنحّاتين، والذين يغلّفون ببطء التجاويف المظلّلة بالزخارف المتناظرة والأشكال المرقوشة المورّقة والشِّعر والآيات القرآنية.

قال أبو عبد الله: "لم أفهم بعد علامَ العَجَلة؟ لقد أجّل سلطانُنا السابق في فاس، رحمه الله، افتتاحَ كليّته العظيمة، ربّما ستَّ مرّات، ولم يحدث شيء".

قال لسان الدين متبرّماً: "عزيزي أبو عبد الله، لقد قرّر سلطاننا بحكمته المباركة أن المولد النبوي هو اليوم الميمون الأفضل، بل الوحيد المناسب للافتتاح. "ولا تنسَ أيضاً ..." ونظرَ حولَهُ وخفَضَ صوتَه "أنه سيصل إلينا هؤلاء السفراء اللحوحون من دون بِدرو، والذين جلبوا الياقوتة".

"هيَّا، اجعلهم ينتظرون، بحقّ السماء!"

"أتمنّى لو استطعتُ ذلك ... ولكنني لا أريد أن يُنظَر إلينا على أننا نفتقر

للتنظيم، فقد نكون حلفاء على الورق، ولكنّ هذا التحالف غير متكافئ كما تعلم، إنما نحن في الحقيقة، يا أبا عبد الله، أتباعٌ لبِدرو. أقول لكَ فيما بيننا، رغم أن الأندلس كلّها تعرف ذلك بالطبع، أننا نحن المسلمين نعاني الكثير هنا. قد يكون بِدرو متعاطفاً مع سلطاننا المبارك. ولكن، ليحمِنا الله تعالى إذا .." وأضاف لسان الدين بصوتٍ أخفض: "إذا وضع هنري الزنويّ مؤخّرتِه المغتصِبة مجدّداً على عرش قَشتَالَة. لقد وردَني للتوّ تقريرٌ يقول ..." وسكتَ قليلاً وتنحنحَ "ولكنَّ هذا مجرّد احتمال. باختصار، يا صديقي، فإنَّ قصرَ الحمراء المجيد هذا هو سلطنة غَرنَاطَة المصغّرة، بل صورتُها المصغَّرة، إذا جاز التعبير، لسبعةِ قرونٍ من الإسلام في الأندلس، والضمانة الوحيدة لمستقبلِها هنا. وأيّ علاماتِ ضعفٍ تظهرُ من جانبِنا، فسينقضُّ علينا عبّاد الصليب كالنسور الجارحة".

غسلت الشمسُ الغاربة النقوش العاجية والمصفرّة واللازوردية في القصر ومنحَتها بريقاً رائعاً وأعطت تبايناً أكبر لنقوشها. بدا لسِنَان أن العمدان الرخامية ترقص، والتوريقات الجصّية وكأنها تتشعّبُ إلى ما لا نهاية، تلمّحُ إلى الخلود. كيف يمكن إنجاز شيءٍ معقّدٍ وجميلٍ للغاية مثل هذا ولو استمر العمل للأبد، ناهيكَ عن ستّة عشر يوماً؟

وفي وسط ذلك كلّه، كانت هناك تلك الخيمة الغامضة. نظر إليها أبو عبد الله نظرة مطوّلة وفتح فمه ليتحدّث. ولكنّ الوزير قال بهدوء: "لا تسأل حتّى".

وقادهما عبر مدخلٍ على الجانب الشَّمالي من البهو. وتذكّرَ سِنَان أنه قد تساءَلَ في زيارتِهِ الأولى عمّا يكمنُ وراءَ ذلك المدخل. قال لسان الدين: "على الأقلّ لدينا قاعةٌ واحدةٌ منتهية". فارتجف سِنَان، بدا أنهم قد ساروا في كهف مصنوع من الضوء المتجمّد. أطلقت المقرنصات الكثيفة المنحوتة لحناً متتالياً من السطوع والظلام جعل الغرفة بأكملها تبدو وكأنها

تتحرّك، وتدور على محور قُبّةٍ تحومُ فوقَها. كان هذا كلّه خفيفاً وباهظاً في الوقت نفسه. استقرّت عينا سِنَان على أقرب قطعة من فنّ الخطّ الجصّي. كانت قصيدة أخرى فأخذ يتلوها بصوت خفيض:

"بــه القُبّــةُ الغــرّاءُ قــلَّ نظيرُهــا
ترى الحســنَ فيهــا مســتَكِنّاً وباديا
تمــدُّ لهــا الجــوزاءُ كــفَّ مُصافــحٍ
ويدنــو لهــا بــدرُ الســماءِ مُناجيــا"

ارتبكَ سِنَان عندما أدركَ أن لسان الدين كان يستمعُ إليه. وسألَهُ الوزير: "إذن، ما رأيكَ بهذه الأبيات، يا سيّد سِنَان؟ يضع النصارى لوحاتٍ على جدرانهم. ونحن نضع عليها القصائد. هيّا يا فتى، أعطني رأيكَ المفصّل، من فضلكَ!"

ابتلعَ سِنَان ريقَهُ: "هل ... هل ترغب في سماعِ رأيي، يا سيّدي؟"

"بالطبع! ولماذا تعتقد أني أحضرتكَ إلى هنا إذاً؟ أنتَ الشخص الذي أبحث عنه دائماً، الناقد البسيط والمحايد. وكما ترى، فنحن لم نعد نستطيع التمييز بين الغَثّ والسمين بعد الآن، لأننا غارقون للغاية في أدبار قوافينا الشِّعرية".

فوجئ سِنَان بمثل هذه العبارة البذيئة التي صدرت من فمِ محترمٍ للغاية.

"هيَّا، يا سِنَان، ما بكَ، أَلَا تعلم أنه لا حياءَ في العلم؟!".

ابتسم أبو عبد الله مشجّعاً، فقال سِنَان: "حسناً، يا سيّدي، لقد وجدتُ التباينَ بين الجمالِ المرئيِّ وغير المرئيِّ مُذهلاً. ولكن، ربّما كانت الأبيات قد أُفسدَت قليلاً بالإشاراتِ إلى الأجرامِ السماوية. وهذه ...

استعارةٌ نمطيةٌ يُفرِطُ الجميع في استخدامها". ورأى سِنَان الوزير يبتسمُ له وشعرَ فجأةً بحلقِهِ يجفّ: هل أنتقِدُ القصيدةَ أمام مؤلِّفِها؟

"أحسنتَ، أيّها المعجزة الأبنوسية، وأصبتَ" وتردّد صدى ضحكة لسان الدين الجافّة في القبو المقوّس للقُبَّة. "وفي حال كنتَ تتساءل عن الشاعر، فهو كاتب السرّ السلطاني، ابن زَمرَك. إنني أحسده في بعض الأحيان على غزارته الشِّعرية. ولكن، معكَ حقّ، فهو لا يحقّق هدفَهُ المرتجى على أحسنِ وجهٍ في كلِّ مرّة".

تنهّدَ سِنَان بصمتٍ مرتاحاً، ثمّ تخيّلَ ابن زَمرَك وهو يخرجُ من ظلالِ المَشوَر، كالثعبان الذي يفحّ، وشعَرَ فجأة بالغثيان والإرهاق. كانوا فيما يكاد يشبه الجنّة، هو قفص جميل مَبنِيّ على الزنازين.

وتابعَ الوزيرُ: "بالطبع، وبصرفِ النظرِ عن الشِّعر، لدينا جزء خاصّ من الديكور الداخلي على الطراز النصراني ... تعالوا وشاهدوا تقدُّم مراحل العمل في القاعة الشرقية".

عبروا إلى الجانب الآخر من القصر، ودخلوا الغرفة المَطلِيَّة. كان فيها الكثير من السقّالات، وكان الرسّامون المسيحيون لا يزالون يعملون، حتّى مع انخفاض الإضاءة. وقد كشفوا الآن عن لوحة سقف أخرى بالكامل.

هتف أبو عبد الله: "يا للدهشة، يا سِنَان! إنهم يلعبون الشطرنج هناك على السقف، هؤلاء النصرانيون، تماماً كما يفعل الناس المتحضّرون!"

نظر سِنَان عن كثب إلى اللوحة الجصّية. "وانظر، يا مولاي، أعتقد أن الرجل الذي يرتدي اللون الأحمر سوف يفوز ... بثلاث حركات".

صفّق الوزير بيدَيه وهزّ رأسه مذهولاً "يا أبا عبد الله، إن سِنَانَكَ هذا لا يُقدَّرُ بثمن".

قال أبو عبد الله: "بالضبط. لهذا هو ليس للبيع".

نزل أحد الرسّامين المسيحيّين من السقّالة وحدّقَ في سِنَان، الذي أخذ يشعر مجدّداً وكأنه دبٌّ راقصٌ، ولكن، أكثر من المعتاد هذه المرّة.

قال لسان الدين وهو يتفرّس في صديقه العجوز: "آه، تذكّرتُ، على ذِكرِ موضوعِ العبيد الأذكياء ... ما الذي حصلتَ عليه من امرأة الخيميائي؟" وفتح إحدى عينَيه ثمّ أغلقها في غمزةٍ فاسقة.

قال أبو عبد الله بنبرةٍ قاطعة: "لا شيء. لا شي إطلاقاً".

"هيَّا، يا رجل، أخبرني، لن تستطيع أن تخفي عنّي أيّ سرٍّ كان، سيّما وأنكَ كنتَ متفائلاً دمويَّ المزاج عندما ذهبتَ لرؤيتها هذا الصباح، أوه" تجمّدَ لسان الدين في منتصفِ حديثِه.

"لسان الدين، هل أنتَ بخير؟" بدا أبو عبد الله مذعوراً. وأمسك بذراعِ الرجل العجوز "هل تعاني من نوبة، ماذا أصابكَ؟"

تمتمَ الوزير وهو لا يزال غير قادرٍ على الحَرَاك: "مزاج سوداوي ... صفراوي ... بلغمي، أي أبيض".

"لسان الدين، ردّ عليّ، تحدّث معي".

" ... كنتَ دموي المزاج! ألَا ترى؟ البيت الشِّعري ... هناك احتمالٌ آخر ... أعني، أن الألوان في البيت هي ألوان الأخلاط والأمزجة، التي يتحكّمُ توازنُها في الحالة الصحّية للإنسان، وتتحكّم في الواقع، من خلال نظائرها، العناصر الأربعة، بالكون الأكبر للإنسان، الكون نفسه! ألَا توافقني في هذا، يا سِنَان؟"

حارَ سِنَان في الجواب: "اعذُر جهلي ..".

أوضحَ لسان الدين أن (الأسود هو المزاج السوداوي)، ممّا يعزّز الكآبة

السوداء وروح الدعابة السوداء. (الأصفر هو الصفراء)، ممّا يعزّز المزاج الصفراوي. الأبيض هو البلغم، (المزاج البلغميّ)".

فقاطعه أبو عبد الله: "إذن، أين المزاج الرابع؟ الأحمر؟"

"أنتَ محقّ، يا صديقي. نحن نفتقد المزاج الدموي الأحمر. نفتقد الدم".

****

تذكّر إبراهيم: مثل دمٍ ينزف من حجر، مع رعشة من النفور. هذا ما قاله سليمان تاجر الأحجار الكريمة.

شعر إبراهيم بن زَرزَر بأنه قد تحوّل إلى خادم عادي لدى دون بِدرو بدلاً من كونه كاتم سرّه. هل من المعقول هذا الجري كلّه في أنحاء إشبِيلِيَة جميعها. ولكنه لا يمكن أن يَعهَدَ بهذه المَهمّة إلى أيّ شخصٍ آخر. فالسّرية هي الأولوية القصوى إذا ما أردتَ تزييفَ أيّ ياقوتة كانت. فما بالكَ بهذه الياقوتة؟!

مدَّ إصبعه داخل الحقيبة التي تحتوي كتلتَين عديمتَي الشكل من الزجاج الأحمر، واحدة ملوّنة بمزيج من النحاس، والثانية بمزيج من الذهب، كما أوضح له الزَّجَّاج. أيّهما كانت أقرب إلى درجة لون الحجر الحقيقي؟ لم يكن كريستوبال الصائغ يعرف: "اللون ليس من اختصاصي، لأكون صادقاً مع جنابكَ، أمّا الشكل، فنعم. لذلك يمكنكَ العودة إلى سليمان العجوز بخصوص اللون".

شبّه الجانب الطبّي من دماغ إبراهيم درجتَي اللونَين المختلفتَين للزجاج الأحمر بألوان الدم: الوريدي والشرياني. وخطرت الفكرة في ذهنه الآن مجدّداً على عتبة باب سليمان. فقد قال سليمان: مثل دمٍ ينزف من حجر. *وذلك الحجر كان مضمّخاً بالدماء.*

مدَّ يدَهُ إلى مقبضِ باب سليمان بتردّدٍ يقتربُ من الاشمئزاز. ولا يتوقّفُ الأمر على الرائحة الكريهة التي تفوح من الرجل، والتي أرعبَتهُ وأثارت أعصابه، بل في أنه قد رآه البارحة في قصر المورَّق، يتحدّث بحدّة مع فرناندو دي قزمان. ابتسم إبراهيم بحزن عندما تذكّر صورة النبيل شديد الحساسية، والذي يكره الغرباء ويقرف منهم، وهو يبتعد عن ضباب رائحة الفم الكريهة الذي يحيط بصائغ المجوهرات المتعفّن. ما الذي يمكن أن يجمع شخصَين متناقضَين للغاية مع بعضهما البعض؟ وفي حال تطرّق إلى موضوع اللقاء إمّا مع سليمان أو مع *قُزمان*، حتّى ولو بشكل غير مباشر، فسيُخفيان الأمر، ولن يعرف الحقيقة على الإطلاق. ولكنّ الشيء الوحيد الذي كان متأكّداً منه: أنه كان يلاحظ أعراض شيءٍ عميقٍ وربّما خبيثٍ أيضاً لم يستطع التكهّن به بعد.

ارتجفَ مرّة أخرى، ثمّ حرّكَ مطرقةَ البابِ الثقيلة، واستعدَّ لفتح الباب حتّى قبل أن يرجع صدى طَرقتِهِ.

عاد الصدى فارغاً: لقد عَلِمَ على الفور أنه لا يوجد أحدٌ في الداخل.

قالَ صوتٌ بجانبِهِ جعَلَهُ يجفَل: "إذا كنتُ تبحثُ عنه فقد رَحَل".

استدارَ إبراهيم ورأى شاباً، تتدلّى على وجهِهِ الشاحبِ الرقيقِ جدائلُ وخصلاتُ شَعرٍ يهوديّة جانبية.

"لقد غادر قبل طلوع الشمس. وقد كان يحمل حقيبة سفر، إذا أمكنكَ أن تطلقَ عليها هذا الاسم. فقد بدت أشبهَ بكيسِ جامعِ القاذورات. وقد كانت رائحتها كذلك أيضاً ... يا سيّدي".

قال إبراهيم لنفسه: اللعنة. ورمى عملة مَعدِنية في راحة يد الصبي الممدودة.

"غضباً عنّي، سموّكَ. ولكنني لا أستطيع أن أخبركَ أكثر من ذلك. إلّا إذا ..." فنَقَدَهُ عملةً أخرى.

"بدا وكأنه في عجلة من أمره. جلالتكَ".

ثمّ عملة ثالثة أكبر.

وفوضوياً مستعجلاً للغاية.

الفصل السادس عشر

جالَ كاتب السرّ السلطاني ابن زَمرَك في ضوء الصباح الساطع بناظرَيه في أرجاء البهو الجديد، وكان نشاط الحرفيّين محموماً وصامتاً رغم أن العمل كان في ساعاته الأولى: "يا إلهي! يا إلهي! هذا غير مقبول ...! لم يبقَ سوى عشرة أيّامٍ على مولدِ خاتمِ الأنبياء والمرسلين". والتفتَ إلى الوزير: "وما زال أمامنا الكثير الذي يتعينّ علينا القيام به". وتنهّدَ مع فحيحٍ بين أَسنانه. "سوف تكون مهمّة إبلاغ حضرة سلطاننا الحبيب المبارك بالتقدّم الذي تمّ إحرازُه، أو عدمِه، مهمّةً مؤلمةً للغاية". ظهر كاتب السرّ السلطاني وكأنه سوف يستمتع حقّاً بهذا الألم، فالوزير هو المسؤول أمام السلطان في حالة عدم الالتزام بالموعد النهائي.

لا يحتاجُ لسانُ الدين إلى التذكيرِ بالطبع. لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرّة وقف فيها هنا مع أبي عبد الله. قال لنفسه مجدّداً، *يا إلهي! لقد مرّ أسبوع تقريباً ... الوقتُ كالسيف*، لطالما كره التفاهة والابتذال، *إن لم تقطعه قطعكَ*. والآن، مع سرعة اقتراب الخريف، أخذ النصل يقترب بسرعة كبيرة على شكل عدّة أيّام قصيرة. ولكنَّ الوزيرَ رفضَ الخضوع للاستفزاز. قال متّجهاً نحو القاعة الشرقية المَطلِيَّة: "على العكس من ذلك، أيُّها الزميل العزيز، يمكنكَ أن تُبلغَ جلالتَهُ بأننا قد انتهينا من إحدى القاعاتِ المجاورة. تعالَ وانظر بنفسكَ" ثمّ توقّف. "آه نسيتُ، فأنتَ تكرهُ تلويثَ عينَيكَ النقيّتَين التقيّتَين بصورِ الكائناتِ الحيّة".

نظرت العينان إلى الوزير بتقوى إبرتَين مسمومَتَين، ثمّ استدار عندما

ظهر شخصٌ من داخلِ الخيمة المركزية. فقالَ ابن زَمرَك وهو يضيفُ الزيتَ إلى السّم: "زيد صاحب الأشغال! سليلُ نظامِنا القديم في غرَناطَة! ذلك النظام البربري العتيق. والذي وجد نفسه الآن في ظروف مالية صعبة. أم لا، حسب الظروف ... ثمّ أضاف بصوت خفيض، وهو يفرك أطراف أصابعه مع بعضها البعض بعيداً عن أنظار رئيسه، مبتسماً ابتسامة تمساح: "هل تعلم سعادتكَ أن النصارى بحكمتهم يستخدمون كلمتنا العربية "البربر" كمصطلح للازدراء؟ إذ يقولون "بربري" ... آه نسيتُ: فأنتَ مُلِمٌّ باللاتينية أيضاً".

تجاهلَ لسانُ الدين كاتب السرّ السلطاني. وقال لزيد صاحب الأشغال: "أخبِرنا بالمستجدّات بخصوص القطعة الخاصّة بمفاجأة السلطان". فخاطبَ زيد الوزير: "سيّدي، لقد وضعنا اللمساتِ الأخيرة على أبيات سموّ كاتب السرّ السلطاني" مع إيماءة خفيفة باتّجاه ابن زَمرَك، دون أن ينظر إليه مباشرة. "لم يبقَ أمامنا سوى بعض علامات التشكيل التي تحتاجُ للتذهيب".

وتساءل لسان الدين: "وماذا عن الجانب الفنّي؟"

"لا بدّ أن نكون مستعدّين لإجراء اختبار في غضون أسبوع".

قاطعَهُ ابن زَمرَك: "أسبوع! هل تعتقد حقّاً أن هامش أمان لثلاثة أيّام يُعدُّ هامشاً كافياً؟ فكما تعرفون، الكمال لله وحده".

فقال زيد بلطف: "وعليه اتّكالنا".

وقد ظهر رجل رابع بجانب الوزير وهو أمين سرّه. ظلَّ يحومُ لفترةٍ من الوقت، ثمّ تنحنحَ لكسرِ الصمتِ السام. "اعذرني على مقاطعة اجتماعكَ، يا سيّدي، ولكن، لديكَ زائر. لن أجرؤ على فعل ذلك في ظلّ الظروف العادية ... ولكنكَ قلتَ، يا سيّدي ...".

سأل الوزير باقتضاب: "مَن هو؟"

أجاب كاتب السرّ: "سليمان الإِشبيلِيّ".

"ماذا، لم أتوقّع. سليمان الإِشبيلِيّ ... هنا، لا بدّ أنه قد أتى بالمزيد من الأحجار الكريمة لمجموعة سلطاننا الحبيب. وربّما في التوقيت المناسب. أدخِلهُ". قاد كاتب السرّ الصائغ إلى مكان ما على بُعد خطوات من الوزير. بدا سليمان أكثر تعفّناً من المعتاد، بعد رحلةٍ قسريّةٍ استمرَّت ستةَ أيّامٍ من إشبيلِيَة. لقد حوّلت وَعثاءُ الطريقِ عمامَتَهُ اليهودية الصفراء إلى اللون الكاكي، وشَعَرَ لسان الدين أنه كان مُترِباً ومُتّسخاً ومُتعَفّناً للغاية، لدرجة أصبحَ أشبه بجثّةٍ في يوم الحساب لم تسمع الصُّور.

حدَّقَ كاتب السرّ السلطاني في الوافد الجديد، وأنفُهُ يرتعش. ثمّ قال بصوت خافت: "سأترُكُكَ لضيفِكَ. ولا بدّ من قولِ تلك الملاحظةِ مع فائق الاحترام إن هذه البقعة المباركة، التي كان من المفترَض أن تكون مدرسةً لتعليمِ كلامِ الله وسُنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، لم تتحوّل الآن إلى قصرٍ للمتعة وحسب، بل أصبحت كذلك منتجعاً للباعة المتجوّلين العبرانيّين ومصمّمي الديكور الداخلي الناصريّين. ناهيكَ عن الجواسيس المتقاعدين الذين أرسلهم سلطان فاس، وعبيدهم السود المتطفّلين".

قالَ لسانُ الدين بهدوءٍ مُختلِطٍ بالحدّة: "اسمح لي أن أسألكَ، يا سيّدي، إظهار المزيد من الاحترام لرغباتِ سلطانكَ أمير المسلمين، الذي تدين له وحده بمنصبكَ الحالي، وأن أسألكَ المزيد من الاحترام" وتابع هنا بصوتٍ أكثر ليونة، ولكن، أكثر عنفاً: "*لصديقي أبي عبد الله*".

استدارَ ابن زَمرَك وخرجَ من القاعة، تاركاً وراءَهُ رائحةَ خلٍّ خفيفة وفترةً أخرى من الصمتِ الرهيب. كانت الأصوات تصطدم ببطء بالوزير، صرير السقّالات الخشبية، والسكاكين التي تعمل بالجصّ الرطب، والضربات

المكتومة لمطارق البلاط، والتي كانت أصوات غير مسموعة تقريباً، ولكنها مثّلت لِلِسان الدين، ضجيجاً متزايداً على نحو ساخر. لقد أصبح الشيء الذي اعتبره وليدَهُ طفيلياً مفترساً، لا يفترس الذهب الموجود في الخزانة فحسب، بل يأكل نفسه أيضاً. كيف سينتهي هذا كلّه، إذا ما انتهى أصلاً؟! فوجد الإجابة في كلّ جانب من حوله في شعار السلاطين: "*ولا غالب إلّا الله*".

كان لديه أبو عبد الله على الأقلّ ليخفّف عنه، وأمامه الآن على الفور ليزيد نَكَدُهُ، سليمان الإشبيلِيّ. نظر إلى اليهودي وأشار إليه مع رعشة من أنفه. لم يكن الأمر يتعلقُ بدينِه، إذ "لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ" كان هذا كلام الله في القرآن الكريم بهذا الشأن. ولكن المشكلة كانت في الرّجلِ نفسه، في معطفه المزيّت الدهني من قماش القُفطان وبشرته الأكثر دهنيّة، مغطّاة كلّها بقشرةٍ سميكة من الغبار. ولحيتُه السوداء القذرة الناتئة المتدلّية من هلالٍ من جذورِ الشَّعرات البيضاء، وقد ازدادت الرائحة الكريهة مع اقترابه.

قال الوزير لنفسه، لقد شكّل هذا كلّه على الأقل غطاء ممتازاً، والأفضل أنه غير مزيّف، لأحد أكثر عملائه المزدوجين فائدة.

بادرُه الوزير: "إذن، يا صديقي سليمان، ما الجواهر التي جلبتَها لنا هذه المرّة؟ تعال واعرض بضاعتكَ، ولكن، الأفضل أن يحدث هذا على انفراد في المقصورة، لنتمتّع بالخصوصية. دخلا القاعة الشَّمالية، وتبعهما على مسافة أمين سرّ الوزير، ومرّوا جميعاً تحت قُبَّته الشاهقة. ثمّ عبروا قاعة صغيرة أخرى، ليصلوا إلى الغرفة الأكثر روعة في المجمع الجديد بأكمله. كانت غرفة صغيرة مربّعة الشكل، غنية بالزخارف من الداخل، ولكنّ أعظم ما فيها كانت الإطلالة من نوافذها الواسعة، التي تتمتّع بإطلالة أشجار مورقة فائقة الجمال، تبدو وكأنها معلّقة في الهواء مثل حدائق بابل، بين وادي حَدَرُّه المظلم السحيق، ورَبَض البيَازِين الذي يتلألأ في سفحه.

قال سليمان وهو ينظر في أرجاء الغرفة: "صندوقٌ مناسبٌ، من أجل اللآلئ التي جلبتُها لسعادتكَ".

قال لسان الدين بفخر واضح: "أُسمّي هذه المقصورة (عين السلطان)، حفظ الله صاحبها. ولكن، لنعد إلى العمل. ماذا أحضرتَ لي؟"

"عروضي الآن ليست من نوع الأحجار الكريمة المتنوّعة كالعادة. بل هي رسائل بالأحرى هذه المرّة". أومأ الوزيرُ برأسه. "أنا مجرّد رسولٍ مُكلَّفٍ بإيصالِ الرسالةِ المَعنيَّة إلى مكانٍ آمن. أعلمُ أن الحَمَام الزاجل قد دَخَلَ ... في *دائرة الشكّ الآن*، رغم أنه أسرع من ساقي المصابةِ بالتهاب المفاصل". حاولَ لسانُ الدين ألّا يعبّر عن فزَعِهِ من هذه الأخبار: لا بدّ أنهم اكتشفوا دليلاً على تلاعبه برسالة الحَمَامة الزاجلة التي قذفوها إليهم. وتابَعَ سليمان: "والآن، عليّ المسارعة بالقول إن الاتّفاق بيني وبين مُرسِلِي الرسالة لم يمنع تحديداً إمكانية حدوث رحلة جانبية للوثيقة، باتّجاه سعادتكم". أخرج لِفَافَة صغيرة مختومة من ثنيّات كُمِّهِ اليابسة ومدَّها نحو الوزير. "وما تفعلهُ بها هو شأنكَ الخاصّ، ابتعد عن الشرّ، هذا هو شِعاري. ولكن، كن حذراً بما ستفعله بها".

أخذ لسان الدين الرسالةَ وتفحّصَ الختم، وكان قرصاً بحجم العملةِ المَعدِنيّةِ من الشمعِ الأحمرِ، ثُبّتت فيه عُقدُ الخيوطِ المزدوجةِ للرسالة. وقد خُيِّطَتِ الخيوطُ نفسها في الثقوب التي صُنعت في الورق. ولم يكن هذا الختم مميّزاً، مثل نظيرِهِ المُصغَّرِ الذي فكَّهُ قبل ثمانيةِ أيّامٍ من رسالة الحَمَام الزاجل، أو هكذا بدا. ولكنّ ادّعاءَ سليمانَ بأن البريد الزاجل قد تمّ اختراقه نبّهَهُ فعلاً: كان عليه أن يكون أكثر حذراً هذه المرّة. وضَعَ اللِّفَافَةَ على طاولةٍ صغيرةٍ أمامَه، ثمّ صفّقَ ثلاثَ مرّات. ظهرَ كاتب السرّ على الفور. سلّمَ الوزيرُ الشابُّ اللِّفَافَةَ ثمّ قالَ لسليمان: لا تخَف، فهذا موضُعُ ثقتي التامَّة".

قال الكاتبُ: "سيّدي، الختمُ غُفل، هل ينبغي أن أفكّه ثمّ أختمَهُ مجدّداً؟"

"في الواقع، يبدو الختم غُفلاً حقّاً، ولكنني أظنُّ أن هناكَ علامةً سرّيةً ما. انظر إليها عن كثب. فعيناكَ أكثر حِدَّةٍ من عَينَي".

تفرّس الموظّفُ في الختمِ في ضوءِ الشَّمالِ الخفيف، ثمّ ابتسم. هناك قطعةٌ صغيرةٌ من الخيطِ الأحمرِ، يا سيّدي، تبرزُ من الشمع. لن تلاحظ ذلك حتّى إذا لم تدقّقِ النَّظر. هل ينبغي أن ...".

"نعم. عليكَ بإجراءاتكَ الجراحية".

لاحظ الوزير أن سليمان كان يتعرّق.

اختفى الموظّف لمدّة دقيقة، ثمّ عاد ومعه مِبخَرَةٌ صغيرةٌ استعارَها من الحِرفيّين. سحَب علبة أقلامه من حزام خصرِه، وأخرجَ منها مشرطاً صغيراً لامعاً ذا حافّة مُسنّنةً مميّزة، فدَفَنَ النصلَ لبضعِ ثوانٍ في الفحم المتوهِّجِ في المِبخَرَة. ثمّ أدخَلَ المِشرَط في الشمعِ الهشِّ بموازاةِ وجهِ الختمِ، مع عبسةٍ في وجهِهِ من التركيز، متمنّياً أن يكون قد قَطَعَ على النحو الصحيح، حتّى يتجنَّبَ عقدةَ الخيوطِ والخيطِ المدمجِ في الختم. كان سليمانُ يراقبُ حابساً أنفاسه. فإذا أخطأ في هذا ... لا، لن يتحمّلَ التفكيرَ في هذا الاحتمال. ولكنَّها كانت مقامرة، لأنه سوف يكسبُ في المحصّلةِ النهائية، وسوف يكون مكسَبُهُ على شكلِ ذَهَبِ الوزير.

لقد خرج الوجه العلوي من الختم سليماً. تنفَّسَ سليمان نَفَسَاً داخلياً آخر. مسَحَ الموظَّفُ جبينَهُ بُكُمِّهِ، وتفحّصَ العُقَدَ شبهَ المكشوفة داخل الجزء السفلي من القرص. استخدمَ طرفَ المِشرَط بعناية الجرّاحِ، ثمّ أخرَجَ العُقَدَ من قالبِ الشَّمعِ، ثمّ فتَحَها، منتبِهاً بدقّةٍ لطريقة ربطِها.

تنفّس سليمان أخيراً.

أخذَ لسانُ الدين اللِّفَافَةَ وفتحَها، ورفعَ حاجبَيهِ مدهوشاً على نحوٍ غيرِ محسوس. ثمّ قال وهو يعيدها للكاتب: "إذن، خذها وفرّغها على ورقة".

أخرج الموظّف لِفَافَةً من الورقِ من حزامِ خصرِه، وبدأ في نسخِ الحروف، وسليمان يتابعُ عمليةَ النَّسخِ محدّقاً.

اكتملت عمليةُ النَّسخِ في أقلّ من خمسِ دقائق. فنظرَ لسان الدين إلى الورقةِ للحظة، ثمّ أخذَ قلمَ الكاتبَ وكتبَ أسفلَ الورقة. 36:12:5.

دقَّقَ سليمان بالأرقام عابساً، فقال له لسان الدين: "لدينا نظام أرشفةٍ جديد ومعقّد إلى حدٍّ ما"، بينما قام الموظّفُ بإعادةِ ربطِ خيوطِ الرسالةِ بعنايةٍ ووضعَها في سريرها الشمعي. "قد تراها مجرّد بيروقراطيةٍ حديثة، ولكنني أرى أن هذا يُبقي هؤلاء الكَتَبَة التابعين لي مركّزين في عملهم ... " أخرجَ الموظّفُ قارورةً صغيرةً من مَقلَمَتِه، وصبَّ منه بضعَ قطراتٍ دقيقةٍ من السائلِ الصافي على الجزء السفلي من الختم، ثمّ ضغطَ بهدوءٍ وبلطفٍ شديدٍ، على وجهِه العلوي ليثبّتَهُ في موضِعه. ثمّ أعاد اللِّفَافَة إلى سليمان وغادرَ الغرفة حاملاً النسخة، وانحنى في حَيرةٍ طفيفةٍ لرئيسه.

وفحصَ سليمان الختم. لم يكن هناكَ أيُّ أثرٍ للعبثِ في الختم، حتّى بالنسبة إلى عينَي سليمان الحادَّتَين والشكّاكتَين. تنهّدَ ودعا دعاءَ شكرٍ صامت.

وتابعَ الوزير: "إذن، يا سيّد الأحجارِ الكريمة، أخبِرني بالأخبارِ الواردةِ من إشبِيلِيَة".

****

كان كاتب السرّ في غرفة السكرتارية الملحَقةِ بمكتبِ الوزير يحدِّقُ بالأرقام التي كَتَبَها رئيسُه، صامّاً أُذُنَيه عن أصواتِ خدشِ أقلامِ القصبِ من حولِه. من المؤكّدِ أن لسانَ الدين كان يبقيه مركّزاً: بدا كما لو كان يحلم بنظام جديد لحفظ الملفّات، دون أن يفكّرَ كثيراً في التفاصيل أم أن الرجلَ العجوزَ بدأ يفقدُ حدَّةَ ذهنِه؟ كانت الأرقام بلا معنى. وإذا أردتَ تشبيهَها بشيءٍ ما فهي

تشبه أرقام الآيات القرآنية ... قال الموظّف في نفسه: "السورة السادسة والثلاثون من القرآن الكريم". ثمّ تابعَ بصوتٍ عالٍ: "بالطبع" سورة ياسين. فتوقَّفت الأقلامُ المحيطةُ به عن الصريرِ ونظرَ أصحابُها إليه. ابتسمَ في نفسِه: نظراً للطبيعة الغامضةِ للرسالةِ التي أمامَهُ، فسوف يستعين الرجلُ العجوزُ بالحروفِ الغامضة من إحدى السور القرآنية. فأخذ يقرأ بصمتٍ، وهو يعدُّ الآياتِ على أصابعِهِ.

****

قال سليمان في الخلوة الرائعة في المقصورة: "عندما غادرتُ إِشبِيلِيَة، كانت آخر الهمسات المنتشرة هنا وهناك أن هنري الزنويّ كان يعيد بالفعل تجميعَ قوّاتِهِ من أجلِ هجومٍ آخرَ على عرشِ قَشتَالَة".

أجابَ الوزيرُ بضجرٍ: "هذا ليسَ بالخبرِ الجديد. لقد جابَت تلكَ الهمساتُ الأندلسَ طيلةَ الأسبوع الماضي أو نحو ذلك. ما أريدُ أن أعرفهُ هو ما سيفعلُه بِدرو حيالَ هذه الأخبار".

فقال سليمان وهو يهزّ عِمامته القذرة: "الربُّ، ليكن اسمهُ مباركاً من الآن وإلى الأبد، هو وحدهُ القادرُ على سبرِ أعماقِ العقلِ الجبّار لمَلِكِنا". وشاهدَ لسانُ الدين الغبار يتصاعد منها، والله أعلم ما الذي تصاعد منها أيضاً. "ولكن ممّا أخبرَني .. الجنّي الأليف لديَّ في قصرِ المورّق، فقد سمعتُ أن دون بِدرو يطلبُ المساعدة بشدّة ضدَّ أخيه غير الشقيق، أي مساعدة من غرَناطَة. منكم سعادتكَ".

"مجدّداً، هذه بالكاد معلومةٌ مفيدة. بِدرو ليس لديه أيّ أمراءِ إنجليزٍ في جَعبتِهِ هذه المرّة. فنحنُ حلفاؤُه الوحيدون".

"حتّى رعاياه يعارضونه، سموّكَ، أو المسيحيّين على الأقلّ. فعملاء الزنويّ يتجوّلونَ هنا وهناك، ينشرونَ الأخبارَ متّهمينَ دون بِدرو بالموروفيليا، أي بأنه معجَب بالكفّار المغاربيّين ... أعني مع احترامي لكم، أيُّها المسلمون. وكما

تعلمون، هناك بعض الصحّة في هذا الادّعاء بالطبع. إنَّ كثيراً من الكلماتِ الحقيقيّة تُقالُ على سبيل المزاح، كما يقولون، وعلى سبيلِ الدعاية!

" هذا كلّه جيّد جدّاً، يا سليمان. ولكنني بحاجة إلى حقائق ثابتة: أريد ماساً ... ياقوتاً ... فالأشياء التي تبيعني إيّاها الآن ليست ثمينة على الإطلاق".

قال اليهودي بصوتٍ خافتٍ وهو يتلفّتُ برأسِهِ إلى مدخلِ القاعة: "حسناً، هناكَ في إشبيلِيَة مَن لا يتورّعونَ عن أيّ شيءٍ لدقِّ إسفينٍ بين المسيحيّين والمسلمين. حتّى لو كان ذلك يعني إثارة الحرب الأكثر دموية في تاريخِ الأندلس المباركة". أومأ لسانُ الدين برأسِه بكآبة. وتابعَ سليمان، ولكنه أخذ يهمس الآن: "وممّا سمعتُهُ أنه يوجد هنا في غَرنَاطَة مَن يريدُ فعلَ الشيءِ نفسِه. أترى؟! المتطرّفون المسيحيون ... والمتطرّفون المسلمون ... انظر إليهم على الخريطة وستجدهم متباعدين. ولكنهم، في الحقيقة، قد تطرّفوا إلى الحدِّ الأقصى، ليلتقوا على الجانب البعيد من هذهِ الكرةِ الأرضيةِ المستديرةِ التي نسمّيها الأرض ..." استدار كلاهما عند سماعِ صرخةِ طائرٍ ينقضُّ على النافذة. وتابع سليمان: "أو إذا أردتُ تنويع أسلوب كلامي، واللجوء إلى اللغة المشتركة الشائعة، فإن المتعصّبين من ديانتَيكم يمثّلون وجهَين لعُملة واحدة. والشخص الوحيد المستفيد من ذلك كلّه هو هنري الزنويّ". وأضاف سليمان بابتسامة متجهّمة: "سواءٌ ملكٌ أو كتابة، فنحن اليهودُ الخاسرين الوحيدين". تنحنحَ، ومنعَ نفسَهُ بصعوبةٍ من البصقِ على الأرضِ النظيفةِ لعين السلطان. نظرَ لسانُ الدين إلى سليمان نظرةً فاحصة وقال: "لقد قلتَ إن هناك أشخاص يريدون دقّ إسفين ... مَن هم هؤلاء؟".

****

قال كاتب السرّ بعد أن تفحّصَ الأمرَ مرّة أخرى، لا بدّ أن 36:12:5 تعني الجزء 36، سورة ياسين. الآية الثانية عشرة ... وأخذ يتلوها سرّاً مجدّداً ...

ويعيد كلمات الآية: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ" ... بدأ من الكلمة الخامسة: "وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ".

حَكَّ جبينَه. فقد بدا الأمرُ وكأنَّه علامة. أو أمراً. ولكن، ما الذي قدّموه هنا سوى هذه الورقة التي جلبها اليهودي؟ وقد فرّغها على الورقة لتوّه. أمّا بالنسبة إلى آثار ... فهي آثار مَن؟ ثمّ ضحكَ بصوتٍ عالٍ أفزعَ الكَتَبَةَ من حوله.

فخرجَ مباشرةً خلالَ ثانيةٍ من الباب. وفي أقلّ من دقيقة كان في مكتب رئيس المخابرات. وهو يلهث: "سيّدي، رسالة عاجلة من الوزير. لديه زائر. زائرٌ يهودي. يريدكُم أن تراقبوه".

****

كرّرَ سليمان: "مَن هُم؟ هل تريدُ أن تعرفَ مَن الذي يخطّطُ لتقويض الوضع الراهن للأندلس برُمَّتِه؟ سعادتكَ، هل ترغبُ في إضافةِ بعض الجواهرِ الرائعة إلى مقتنياتكَ. وهي ليست رخيصة على الإطلاق، لكي نكون صريحين". بدأ صبر الوزير ينفد. وأشارَ بيدهِ إلى سليمان ليواصلَ الحديث. "حسناً، يا سيّدي، في إِشبِيلِيَة هناك جمعية تُسمّى، رسمياً، جماعة أخوية أبينا يسوع الناصري. اسم طويل قليلاً، أليس كذلك؟ لذا يسمّيها معظم الناس "الصامتون"، نسبة إلى المزية الأساسية لأعضائها. ومعظم هؤلاء الأعضاء ممّن يمكن تسميتهم بمتحَمِّسي الأزقّة الخلفيةِ التافهين. ولكنهم قد امتلكوا الآن نواةً صلبة. وهؤلاء مَن يريدون إفساد، واعذرني على التعبير، التعايش السِّلمِيّ بين أدياننا المختلفة".

"هكذا إذن. وماذا عن هنا؟ لقد قلتَ إن هناك متعصّبين مسلمين في غَرنَاطَة هنا عازمين على الغاية نفسها". ولم يصدّق لسان الدين أنه كان يطلبُ من هذا المخلوقِ معلوماتٍ عن الجماعات التخريبية في سلطنته. لقد سمع شائعاتٍ عن وجودِ خليّةٍ من *المرابطين* المتطرّفين،

"مقاتلي الحدود" العازمين على شنّ حملةٍ جهاديةٍ من شأنها تدمير التوازنِ الدقيق القائم الذي تتعايش بموجبهِ غرَناطَة وقَشتَالَة، ولكنها لم تكن أكثر من مجرّد شائعات، حتّى الآن.

"ومَن هم هؤلاء؟"

عبَّ سليمان الهواء بين لثَّتَيهِ المهترئتَين: "أتمنّى لو كنتُ أعرفُ، سعادتكَ. سوف يكون ذلك لؤلؤةً باهظةَ الثّمن حقّاً لكلَينا ... ولكنني لا أعرف. وكما تعلم جيّداً، فأنا لا أعمل في البضاعة المزيّفة. ولهذا السبب تدفع لي ... بسخاء"، ثمّ ابتسم مثل الثعلب.

قال الوزير بودّ: "يا صديقي سليمان، لطالما قدّرتُ جيّداً جودةَ بضائعِكَ. ولهذا السبب لديَّ طلبٌ أخير. قل لي: مَن هو ... مصدر معلوماتكَ، الجنيّ الأليف لديكَ، على حَدّ تعبيركَ، في قصر المورَّق؟"

وكان سليمان لا يزال يبتسم وعِمامته تهتزّ: "ما هذا سعادتكَ؟! أنتَ تعلم جيّداً أننا نحن الوسطاء لا يمكننا الحفاظ على حياديتِنا تجاه المورّدِ والمُستهلك، إلّا من خلال التمتّع بالسريّة التامّة". وأصبحت نظرةُ الثعلبُ أكثرَ صلابةٍ الآن.

حاولَ الوزيرُ تجاهُلَ كلامِه: "أنا مهتمٌّ على نحو خاصّ بأيّ شيء ... من الأعمالِ التي قد يقوم بها أحد رجال البلاط. وهو فرناندو دي قُزمان".

****

تمتمَ أحدُ الكتّاب المتدرّبين لجاره في غرفةِ السكرتارية:

"أعرفُ أن الرجلَ العجوز كان يقودُنا جميعاً إلى الجنون، ولكن، يبدو من أمين سرّه، عظّم الله سرّيته، أنه قد فَقَدَ عقلَهُ حرفياً ...".

وضحكَ كاتب سرّ الوزير للمرّة الثانية في سرِّهِ بسبب قطعة الورق

نفسها. لم يعتقد أبداً أن الأمر سيكون بهذه السهولة. ولكنه شكّ في أثناء تفريغه نصّ الرسالة، بأن رسالة سليمان الغامضة استخدَمَت شَفرةً بديلةً على ما يبدو. من الواضح أن التشفير كان متقدّماً وليس تشفيراً بديلاً بسيطاً. ولكنه، مع ذلك، كان الأمر أشبه بلعب الأطفال في حقل التشفير.

TMOISCRFX XFQQOGDC DLXXXHQ IGD

XTX TENQCB MO AELINRPHED ZVHTN BLR OTLHL EDRI-QMSGQ

LF ZESCEV EOLOAZ XDXN DHGC DTCL EZE RFVZS GG-ZRAZFXN BLBDCT MEGVOB

QDODHN FNGPSED FHOE HZAM XAFVNCP XCNR IO-VQMXGLTMS AODCXOTTNV

OQ DQOBRHR TXMM FSNTXFPEXPZ RTRREP HVM FB-ZGDO GG XCOIFCRD

نظراً لأن النصّ كان لاتينياً، فقد كان من المحتّم تقريباً أن تكون الرسالة باللغة اللاتينية أيضاً. والحروف اللاتينية تبدأ حتماً تقريباً بالعبارة نفسها SALVTEM DAT، "فلان الفلاني يقدّم تحيّاته إلى فلان الفلاني". نظر إلى المجموعتَين الثالثة والرابعة من الأحرف: DLXXXHQ IGD كانت الأطوال صحيحة ... ثمّ قام بتدوين الأبجدية اللاتينية.

ABCDEFGHILMNOPQRSTVXZ

وأخذ يعدّ بشكل عكسي من D، الحرف الأوّل في المجموعة: C، B، A، حتّى الوصول إلى Z في نهاية الأبجدية، S، T، V، X. لذلك كان الحرف S هو D ناقص 8. الحرف التالي في المجموعة يجب أن يكون L ناقص 9. وهكذا كان. ثمّ X ناقص 10 ... نعم، الحرف L. مع الحرف X التالي، كان عدد الأحرف المطروحة هو 1. لذا انتقل للعَدّ إلى الأمام من 1 إلى 10 ثمّ بدأ مرّة أخرى عند 1. ومجدّداً، ضحك في سرّه من سذاجة النصارى. قد يكونون ماهرين في استخدام أدوات الحرب الخشنة. أمّا

في الأشياء الأكثر دقّة، فما يزال أمامهم طريق طويل ليقطعوه. وتابع عملية فكّ الرموز:

D - 8 =S L - 9 =A X - 10 = L X - 1 =V X - 2 =T

H - 3 =E Q - 4 =M

I - 5 =D G - 6 =A D - 7 =T

إذن DLXXXHQ IGD، كما توقّع، SALVTEM DAT تعني "تحياتي". كان كلّ شيء واضحاً مثل منارة على قمّة الجبل.

التفتَ إلى المجموعتَين الأوَّلَين، تلك التي توضّح أسماءَ المرسِل والمُستلِم:TMOISCRFX XFQQOGDC. أظهرت له عمليةٌ حسابيةٌ سريعةٌ أن برنامجَ التشفير كانَ مفيداً جدّاً لبدء التقدّمِ في فكِّها بإضافةِ حرفٍ واحد. ولكنّ النتيجةَ كانت غريبة إلى أقصى الحدود:

T - 1 =S M- 2 = IO - 3 =L I - 4 +E

S - 5 =N C - 6 =T R - 7 =I F - 8 =V X - 9 =M

SILENTIVM، "الصامتون" ... لقد كان هذا هو الكود الأساسي في الرسالة تقريباً؛ ولكنها أخفت افتتاحية غير متوقّعة. وضع قلمه القصب في فمه مفكّراً ثمّ واصل.

كانت الكلمة الثانية غريبة بالقدر نفسه: LEONIBVS، "الأسود". فأصبحت بمجملها:

SILENTIVM LEONIBVS SALVTEM DAT

"تحية من الصامتين إلى الأسود".

****

تفرّس الوزيرُ في سليمان عن كثب: "ربمّا كان هناك خفقةُ جفنٍ دقيقةٍ عندما ذكَرَ فرناندو دي قُزمان، ولكن، لا شيء أكثر من ذلك للأسف". وبقيت ابتسامةُ الثعلبِ ملتصقة على وجهه وتحدّثَ سليمان دون أن ينزعها:

"هل ترغبُ في التحقيق في الشؤون الخاصّة للدون فرناندو دي قُزمان؟ إذن، مع احترامي، سوف يجب على سعادتكَ السفر إلى قصرِ إِشبِيلِيَة النبيل وإجراء مقابلة مع ذلك السيّد النبيل بنفسكَ". ثمّ اختفت ابتسامةُ سليمان فجأةً، كما لو كانت قناعاً، وظهرت بدلاً منها نظرةٌ قاسية، كما لو كان يفحصُ حجراً كريماً مشكوكاً فيه. "بالنسبة إلى مدفوعاتي".

كان الوزير على وشك أن يصفّقَ بيدَيهِ مرّة أخرى، ثمّ تذكّرَ أن كاتب سرّه كان مشغولاً بشيءٍ أكثر أهمّية. فسحبَ قلمهُ وقصاصةً من الورق من حزام خصره وكتب: *إلى حامله سليمان الإِشبِيلِيّ مبلغ 5 (خمسة) دنانير ذهبية فقط ثمن كيس من اللؤلؤ.*

قال سليمان وهو يراقب الكلمات والحروف تلتفّ على بعضها البعض: "أنتَ رجل صعب".

فنظر إليه لسان الدين ثمّ أضاف في آخر الفاتورة: (لآلئ صغيرة، من الجودة الرابعة). وقال وهو يوقّع عليها: "في المرّة القادمة، تعالَ إليَّ بالأفضل وحسب".

أخذ سليمان الورقة وغادر دون أيّ كلمة إضافية. وبقي الوزير يتساءل عن أقربِ مكانٍ يمكنُهُ أن يغسِلَ فيه يدَيه.

نهضَ في النهاية وظهرَ كاتب سرّه عند مدخلِ المقصورة في اللحظة نفسِها. كان الشابّ متحمّساً ومحمرَّ الوجه. "سيّدي، لدينا شخص يتبعه ... . هل هذا ما قصدتَهُ، يا سيّدي؟"

"أحسنتَ، رجل صالح. لم يكن أمامنا وقتٌ نضيّعه. كنتُ أعلمُ أنَّهُ سوف يذوبُ بمجرّد رحيلِه. لا تنخدع بمظهره: فذلك اليهودي العجوز زَلِقٌ مثل سحلية السمندل".

"إليكَ النصّ الذي فككنا شَفرتَهُ، يا سيّدي. لقد كان رمزَ شَفرةٍ بديل. ربّما كان بديلاً متقدّماً، ولكنه من النوعِ الأكثرَ بدائيّة، يا سيّدي".

تأمّل لسان الدين الورقة للحظة، ثمّ مسّد على لحيته. "هكذا إذن ... غريب. ولكن، ربّما لا. فقد توصّلنا أخيراً إلى اللون الرابع. لقد حصلنا على المزاج الرابع". وابتسمَ للموظّفِ لأوّل مرّة خلال السنوات العشر التي قضاها في الخدمة. "أصبح لدينا الدم الآن! اذهب وابحث عن الشيخ أبي عبد الله".

****

هزّت لبنى منخلَ الكُسكُس مجدّداً في منزلٍ كئيبٍ من الجهة الأخرى من وادي حدرّه. ثمّ أعادت الحبوبَ الكبيرة التي بقيت في المُنخُلِ إلى الوعاءِ الخشبي، وأخذت بفركِها بين يدَيها مرّة أخرى. لقد كان ذلك دائماً مجرّد فعلِ حبٍّ بالنسبة إليها، فهي تقومُ به لأجل عليّ: كانت تركعُ على أرضيّةِ مطبخِهِ بينما كانت تشكّل الحبوب بإجلال وتضغطها بين راحتَي يدَيها، وكان ذلك بمثابةِ صلاة تقريباً. أمّا بالنسبة إلى سيّدها الجديد، فقد كان ذلك بمثابة كَفَّارة. تعذيب. لم تكن تصدّقُ أن هذا الرجلَ هو شقيقُ عليّ. ربّما كانا منفَصِلين بالطبع لسنوات عديدة، ولكن، ماذا في ذلك. عادت بِفكرِها إلى أخيها خايمي، وتساءلت عمّا إذا كانت السنوات قد أخذته بعيداً عنها إلى هذا الحدّ، طبعاً إذا لم يكن الموت قد غيّبهُ تماماً.

كرّرَت عمليةَ الغربلة ونظرت لترى ما إذا كان هناك المزيد من الحبوب المتبقّية. نادراً ما كان يخترق الضوء فتحة المطبخ هذه التي سوّدَها الدخان

في هذا الوقت في منتصف الصباح. لقد مرّ أسبوعٌ منذ أن رأت الشمس. ومرَّ أسبوعٌ منذ أن ودّعت ذلك الرجلُ المغربيُّ العجوزُ المضحكُ وعبدُه الأسود، سِنَان ... همسَت بالاسم في الظلام. لم تستطع بالطبع حتّى أن تهمس باسم عليّ.

ظهرَ شبحٌ دون ملامحَ واضحة في المدخل. كانت هذه سيّدتُها الجديدة التي قالت بصوتِها الحادّ البغيض: "لم يقم فتى المطبخ من سريرِه اليوم، يقولُ إنَّهُ يحتضر، يا لكَ من شقيٍّ كسول! ربّما كان يحتضر فعلاً، فقد كان يسعلُ حتّى تتمزّق رئتاه خلالَ الأشهرِ الستّة الماضية. قَحّ قحّ قحّ، ليلاً ونهاراً. يدفعكَ سعالُه إلى الجنون".

نظرت لبنى إلى ظلِّ سيّدتِها المنتفخة، وتساءلت عمّا إذا كان هناك في قلبها أيّ أثرٍ للعطف الإنساني. يا لها من امرأة مسكينة: ربّما كانت قد تعرَّضَت لمعاملةٍ وحشيةٍ منذ فترة طويلة، فقد كان زوجُها يعاملُها مثلما يعاملُ جاريتَه الجديدة ... هل هذا شقيق عليّ حقّاً، لا، لم تكن تستطيع أن تفكّر فيه على هذا النحو، مهما بذلَت من جهد، فمع هذا التظاهر بالتقوى كلّه، ولكن، هناكَ وصيةٌ واحدةٌ من وصايا نبيّ المسلمين قد استعصَت عليه تماماً، تلك التي تقول: *إذا أتى أحَدُكُم أهلَهُ فليستَتر ولا يتجرّد تجرُّدَ العَيرَين* ...

وتابعت المرأة: "على أيّ حال، سيتعيّن عليكِ التسوّق بنفسِكَ اليوم. اذهبي في الساعة الأخيرة من فترة الظهيرة، وستحصلينَ على أفضلِ الأسعار حينَها، حتّى لو نفدت البضاعة الجيّدة. ولكن، ضعي في اعتبارِكِ أن تنجزي ذلك بسرعة، ولا تنسي أنني سوف أحصي كلّ قطعة نحاسية بدقّة عندما أستلم الفكَّة".

اختفى ذلك الشبح. وأخيراً جاءت فرصتُها. ذهبت إلى الشبكةِ الصغيرة، الأصغر من نافذة زنزانة السجن، متمنّيةً أن يكون الصبيّ المتسوّلُ

المعتاد هناك. وقد كان. أدخلت قطعةً من الخبزِ القديمِ في إحدى الثقوبِ وهمسَت: "هل تعرفُ عين الدمع؟ جيّد. اركض إلى هناك، سريعاً كطائر. واسأل عن منزل الوزير. هل فهمتَ؟ ابحث عن العبد في ذلك المكان واطلب منه أن يأخذكَ إلى سِنَان الأسود. نعم، الأسود ... نعم، إنه أسود حقّاً، ولكن، لا تخف، لن يأكلكَ ... وقل لسِنَان أن يأتي مع سيِّدِهِ إلى سوق البَيَازِين في أواخرِ الضحى. والآن كرِّر ما قلتُهُ أمامي مجدَداً". وقالت لنفسها: "*في المرّة القادمة: سأعطيكَ شيئاً أفضل من الخبز القديم*".

قال الطفل: "عين الدمع. بيت الوزير. سِنَان الأسود. سوق البَيَازِين، أواخر الضحى".

****

حدّق أبو عبد الله في النصّ الذي فكّوا شَفرته في الضوء الخافت لمكتب الوزير.

SILENTIVM LEONIBVS SALVTEM DAT

NIL SCIMVS DE ORIGINIBVS NIGRI VEL FLAVI CANDIDIVE

ID TANTVM SCIMVS QUOD RVFA APVD VOS FESTO BAPHOMETI VESTRI ADERIT

ITERVM DICIMVS TVNC ESSE OPTIMAM RVFI ADIPISCENDI OCCASIONEM

DE COLVMBIS ILLI COGNOVERVNT NOLITEVTI CVRATE VT VALEATIS

حدّقَ جيّداً، ولم يرَ في تلكَ الحروفِ الغريبةِ سوى آثار الحشرات وآثار الطيور.

كانَ كلُّ شيءٍ ينزلقُ من قبضتِهِ: الوزراء، الزمن، لبنى ... وأخيراً جاءت كلمةٌ منها، ثمّ تداعَت آمالُه وسقطت كحجرٍ، إذ وصلت رسالةٌ أخرى في أعقاب رسالتها: استدعاءٌ عاجلٌ من لسان الدين. سبحَتِ الكلماتُ التي

لا معنى له أمامه الآن. وهذه ليست المرّة الأولى في حياتِهِ التي يلعُنُ فيها أبو عبد الله ميلَهُ إلى الغوصِ في أوحالِه.

سأل الوزير: "أين قلتَ لي إنكَ تعلّمتَ اللاتينية بطلاقة؟"

بلَعَ أبو عبد الله ريقَهُ: "النرَ، لا بدّ أنها كانت القسطنطينية ... ولكنّ ذلك كان قبل ثلاثين عاماً، يا لسانَ الدين. لقد نسيتُ كيفية التحدّث بها حقّاً".

"كفى هراءً، لا يمكنكَ نسيانُ لغةٍ بدائيّةٍ مثل اللاتينية. وهذا نصٌّ بسيطٌ جدّاً، حتّى بالمعايير المنخفضة لتلك اللغة، لدرجةِ أنني أشعر أنَّهُ لا بدّ أن يكون هناك شيءٌ آخرَ ضمنيّ. لقد ظننتُ أنكَ قد تجد بعض الأفكار، وأن تكون قادراً على استخلاصِ النصِّ الضمني منها. لا يعني ذلك أن هناك الكثير من النصوص الضمنية في اللاتينية. فالاستعارة، والإرداف، والاستعارة المزدوجة، والجناس ... وغيرها من مثل هذه الزخارف هي حكر على كلامنا العربي الإلهي".

قال أبو عبد الله: "لأكون صادقاً، يا لسان الدين، أعتقد أن هذا نتيجة لإتقاني العديد من اللغات الأخرى في السنوات الفاصلة. كما تعلم، التركية والفارسية والديفيهية، وهي لغة الأرخبيل المالديفي حيث كنتُ أعمل، لا أعرف إذا كنتَ تتذكّر، كقاضي القضاة ... باختصار لقد تراجعت لغتي اللاتينية حتّى تجمّدَت، والأهمّ أنها قد دُفِنَت تحتَ تلك اللغات الأخرى".

قال الوزير مبتسماً لصديقِهِ ومتسائلاً: "حسناً، اسمح لي أن أصقلَ قدراتكَ اللغوية المتطوّرة للغاية والمُهمَلة للأسف". وأخذ الصحيفة من أبي عبد الله وترجَمَها:

من مجموعة *الصامتين* .. *اسمحوا لنا أن نقول*، وربّما نعود إلى ذلك لاحقاً، *للأسود*، بغضّ النظر عن هوية هؤلاء الأسود، *تحية طيّبة*.

لا نعرف شيئاً عن مصادر الأسود والأصفر والأبيض. كلّ ما نعرفه هو

أن الأحمر سوف يصلكم منّا يوم عيد البافوميت ***Baphomet*** *عندكم* - *أيّاً كان هذا الشيء أو هذا الشخص. ونقول مجدّداً إن هذه هي أفضل فرصة لكم للحصول على الأحمر. إنهم يعرفون بشأن الحَمام. لذلك لا تستخدموها. وداعاً*".

وضرب أبو عبد الله على جبينه: "هذا ما كنتُ أريد قولَهُ، يا لسان الدين، عندما وقعت عيناي على النصِّ أوّلَ مرّة، ولكن، كما تعلم، كان ذهني فارغاً حتّى حرّكتَهُ ببلاغتِكَ، هناك اللون الرابع، الأحمر! لقد اكتملت الآن مجموعة الأمزجة. هل تتذكّر نظريّتي بشأنِها، هل تتذكّر أنني قلتُ إن الألوان تمثّل الأخلاط والأمزجة؟"

"أعتقدُ أنها كانت نظريّتي. ولكنّ هذا لا يهمّ. المهمّ أن عناصر الاستعارة المتعلّقة بالأمزجة جميعها موجودة الآن. يبقى الآن أن نشغّل ذكاءَنا ونستخرجَ المعنى الصلب من المجرّد، أي المَعدِن إذا جاء التعبير من الفلزات. أو إذا كنتَ تفضّل التعبير المبتذَل، أن نجد الخشب بين الأشجار".

قال أبو عبد الله: "بالتأكيد. وأعتقدُ أنني بدأتُ بالفعل في تحديدِ كميّةٍ جيّدة من الحطب، أو الخشب، أو المَعدِن، أو أيّاً كان ما نبحث عنه، على الرغم من أنني أتناوله من زاوية الأخلاط السماوية. حسن، لقد اكتسبتُ الكثير من المعرفة الفلكية القديمة للهنود خلال فترة عملي كقاضي مالكي في سلطنة دلهي - وكان ذلك قبل تعييني سفيراً".

قاطعه لسان الدين: "سفيراً مفوَّضاً لإمبراطور الصين، نحن نتذكّر".

فتابع أبو عبد الله: "لذلك، وكما كنتُ أقول، أعتقد أنكَ ستجد، إذا تحقّقتَ مرّة أخرى من قسم التنجيم لديكَ، أنه في يوم عيد بافوميت، ونظريَّتي تقول إنه مصطلح عند النصارى يعني يحيى الذي عمّد عيسى بن مريم عليهم السلام جميعاً: لقد دعوه "يوحنّا البافوميت" كما ترى، والكوكب

الأحمر المرّيخ سيّدخل كوكبة النجوم، أي أن العقرب قادم من جهة الشَّمال، من أراضي النصارى. وسوف يؤدّي هذا إلى إنتاج فائض عالمي من - ماذا سمّيناها؟ *المزاج الدموي* الذي يؤدّي إلى ... إلى ... إلى ..".

"مولاي" قال صوتٌ من هناك، وهو صوت سِنَان الذي كان يجلس القرفصاء كعادته عند المدخل "أَلَا تتذكّرُ ما أخبرَنا به سعادة الوزير عن الياقوتة العظيمة؟ وأنهم سيأتون بها من بلاد النصارى في المولد النبوي؟ أَلَا تعتقد أن "اللون الأحمر" في الرسالة يمكن أن يكون الياقوتة؟ أي أن "بافوميت" هو الاسم الذي يطلقه النصارى على النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟"

قال أبو عبد الله: "شكراً لكَ، يا سِنَان. كنتُ أحاول الوصول إلى هذه النقطة بنفسي، لو لم تقاطعني بهذه الطريقة".

بدا سيِّدُهُ منزعجاً للغاية. وقد عرفَ سِنَان السبب. فقد فضّل أبو عبد الله أن يكون في مكان آخر الآن. مع لبنى. هذا ما تمنّاه هو نفسه أيضاً، لو اعترف بذلك، أو اعترف جزء منه بذلك.

قال الوزير بحرارة: "نعم، شكراً لكَ حقّاً، يا سِنَان! هذا هو الاستنتاج الذي لا يقبل الجدل، والذي كان من الممكن أن يقودني إليه تطبيق المنطق أيضاً، لولا أن دماغكَ الشابّ والرشيق قد سبق عقلي المسنّ والبطيء إليه. لنفكّر في الأمر، أعتقد أن "بافوميت" هو تحريف متعمّدٍ لاسم خاتم الأنبياء، يعود تاريخه إلى زمن احتلال النصارى لفلسطين. ونعم، ***rufa***، "الحمراء"، لا يمكن أن تكون سوى الياقوتة: "Rufa *apud vos ... aderit optimam* rufi *adipiscendi occasionem* ....".

كرّر سِنَان الكلمات: "***rufa***، ***rufi***" وسأل: ما الاختلاف فيما بينهما، يا سيّدي؟".

فأوضح لسان الدين: "أحدهما مرفوع والآخر مجرور. تماماً مثل اللغة العربية: أحمر بالضمّ وأحمرَ بالفتح. ولكن ... بارك الله فيكَ، بما أنكَ ذكرتَ ذلك، فالجنس مختلف أيضاً. الأولى مؤنّث ... حسناً، من المحتمل أنه يشير نظرياً إلى *gemma* "الجوهرة"." والثاني مذكّر، فيجب البحث عنها ... ما هي بحقّ السماء الكلمة اللاتينية التي تعني "ياقوتة؟". *Rubinus* على ما أعتقد. ألَا ترى أن هذه اللغة اللاتينية لغة غير دقيقة وغير منطقية. ليست مثل عربيَّتنا الإلهية الطاهرة. اللاتينية، يا سيّد سِنَان: هي لسان الإفرنج والنصارى. اللغة العربية هي لسان الملائكة ولسان الله نفسه جلَّ جلاله".

قال أبو عبد الله: "بغضِّ النظر عن القواعد، فإن المعنى واضح كالبلُّور: هؤلاء (الأُسُود)، مهما كانوا، أمامهم فرصةٌ للاستيلاء على الياقوتة. عليكَ أن تعترفَ بأنها خطّةٌ جريئة".

"ومحكوم عليها بالفشل، يا صديقي العزيز. تأكّد من أن دون بِدرو سوف يضع إجراءات أمنية مشدَّدةً على جانبِهِ من الحدود. لا يمكنُهُ تحمّل حدوثِ أيّ خطأ. إنه يحتاجُ إلينا. وعلى جانبِنا من الحدود سوف نخصّصُ للسفراءِ مرافقةً مختارةً من سلاحِ الفرسانِ البربري. سوف يرافقونَ الياقوتة على طول الطريق إلى خزينة قصر الحمراء، الخزنة المنيعة والمحمية بأقصى وما وصلت إليه البراعة البشرية. لذا سوف يفشل لصوص الجواهر المحتملين لدينا، إلّا إذا تمكّنوا من شقّ طريقهم عبر مئة فارسٍ بربريّ". وطوى الوزير أكمامه المطرّزة. "أو عبر مئة ذراعٍ من الصخر الحيّ".

قال أبو عبد الله: "إذن، إذا كان الأمر كذلك" ونظرَ عبر الشبكة إلى الشمس التي تقترب من ذروتها، "سوف أمضي في طريقي إذا لم يكن لديكَ مانع".

"انتظر ... كنتُ أتمنّى أن تأتي لرؤية التقدّم الذي أحرزناه في القصر

الجديد. وذلك لسببٍ واحد، فقد انتهينا من القاعة المطلية بالكامل. وربّما يستطيعُ سِنَان أن يقدّمِ لنا المزيد من ملاحظاته الراقية حول الفنّ التصويري عند النصارى".

"أحبُّ ذلك، يا لسان الدين، ولكن، لديّ ارتباطٌ مُسبَّق، مُسبَّقٌ ومُلحّ".

فردَّ لسان الدين: "ما الذي يمكنُ أن يكونَ أكثر إلحاحاً من تحقيقِ رغبةِ وزيرِ غَرنَاطَة؟ ما هو هذا الشيء، أو مَن هو؟"

بدا الخجل على أبي عبد الله.

اهتزّت كتفا الوزير وأصدرَ أزيزاً من الضحك: "أعرف: إنها جارية الخيميائي! لا تقل لي إنّكَ قد قدّمت إليها طلباً ... أعني عرضاً لشرائها بالفعل!" وغمزَ لأبي عبد الله. "لا بأس، يا صديقي. لا داعي للشعور بالحرج. لو كان الاختيار بيني وبينها، فسأختارها أيضاً في أيّ يوم كان. أو في أيّ ليلة ...".

****

كان كاتب السرّ يحومُ في الخارج، في انتظارِ مغادرةِ المغربيّ الضئيلِ وعبدِه. تنحنحَ ثمّ دخلَ مكتبَ الوزير.

قال لسان الدين وقد تلاشى أيّ أثر للبهجة في صوته: "هل هناك أيّ أخبار؟".

"سيّدي، لقد راقبنا اليهودي كما أمَرتَ. وهو الآن في مسكنِهِ في الفندق الجديدة. ولكنّهُ ذهَبَ إلى هناك بطريق ملتوٍ جدّاً، وعبرَ مقبرةِ البَيَازين في الحقيقة. وقد دخل في أثناء عبوره في المقبرة، إلى أحد تلك الكهوف الموجودة في الجرف، الكهوف التي تطلّ على القبور، يا سيّدي".

تأمّل لسان الدين فيما قاله: "هل تم التعرّفَ على الكهفِ بالضبط؟

فهناكَ العشرات منها هناك" فأومأ الموظّف برأسه. "إذن، شدّدوا الحراسة عليه، بأسرع وقت ممكن. وضع هناكَ شخصاً موثوقاً تماماً ومتكتّماً".

خرج الموظّف وهو يتساءلُ مَن سيرسلُ في هذه المهمّة. ربمّا أحد المماليك ... نعم. لقد عرفَ مَن سيرسل.

الفصل السابع عشر

قادتهُما لبنى صعوداً في أزقَّة رَبَض البَيَازِين شديدة الانحدار. لقد انتظرت في السوق حتّى رُفع أذان الظُّهر وعلِمَت أن تأخّرها سيعرضُها للضرب على يدَي سيّدها الجديد ... هل سيحدث هذا قبل أو بعد ذلك الانتهاك الليلي الآخر؟ لم تعد تهتمّ بعد أن وصلَ كلٌّ من سِنَان وأبي عبد الله.

وها هم الآن يصعدون في صمت، أبو عبد الله برشاقة تتناقض مع عمره، وسِنَان بخطى هادئة صامتة أشبه بخطى الصيّاد. تناقصَت البيوت ووصلوا إلى القبور الأولى في المقبرة ذات المُدَرَّجات. وكان فوقهم خطُّ سورِ المدينة يتبعُ خطَّ التلال. وظهرَ في الأسفل جرفٌ منخفضٌ مملوء بالكهوف. ربّما كانت جحوراً لمستعمرة من القوارض، ولكن سكّانها كانوا رجالاً ونساءً، فقراء ومجانين ومنبوذين ومحرومين، ولكنهم بشر. وحدّقت العيونُ من مداخلِ الكهوف في الدخلاء.

كانت لبنى واعيةً للعيونِ التي خلفها. وفتحت فمَها مجدّداً لتشرح، تشرح ماذا؟ حقيقة أنها لم تكن تعلم لماذا أحضرتِ الرجلَين إلى هنا. سوف يقودُها الكهفُ إلى الذين أسروها، ولا بدّ أنه سوف يقودُها إلى قاتلِ عليّ أيضاً. كانت غاضبةً ومتشوّقةً لمعرفةِ هويتهم. ولكن عينَيها بقيتا باردتَين. لقد انحفرت تلك العينان الخضراوان المتلألئتان فوق اللثام في ذاكرتِها، وذلك الصوت: "*سنجعلُهُ يموتُ ميتةً ثانية*".

ارتجفت. ثمّ فكّرت في الرجلِ الضئيل الذي يصعدُ الطريقَ خلفَها.

لقد شعرت بالأمان على الأقلّ معهُ ومع سِنَان ... وقطعَ هريرُ كلبٍ عليها أفكارَها.

قال أبو عبد الله: "بماذا يذكّركَ هذا من القرآن، يا سِنَان؟" رفعت لبنى رأسَها، فرأت كلباً جالساً عند مدخل الكهف.

"وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيْدِ". من قصّة أصحاب الكهف يا مولاي. سورة الكهف، الآية 18".

قال أبو عبد الله مقلّداً صوت الوزير الرنّان: "أحسنتَ، أحسنتَ، أيُّها المعجزة الأبنوسية".

ابتسَمت لبنى. نعم، لقد شعرت بالأمان في هذه اللحظة. بل بشعورٍ يتخطّى الأمان أيضاً. لم يكن الأمر مجرّد أنها قد فوجئت، وبماذا؟ بوجودِ أوّلِ رجلٍ أسود رأتهُ في حياتها، يتمتَّعُ بجسد جميل أقوى من الجمال، والذي رغم كلّ شيء، وبرغم عليّ حتّى، قد أصابها ولمسَها في أعمق أعماقها. لم يكن الأمر أن سِنَاناً وحده هو الذي صدَّقها ذلك الصباح في مجلسِ صاحب الليل. لا: بل ما أدهشَها وأذهلَها هو نظرتُه إليها. إذ لم تكن في عينَيه مجرّد سلعةٍ أو إلهاءٍ أو أداةٍ أو وعاء للتلقيح الليلي والوحشي، بل بوصفها إنساناً. لم ينظر إليها بهذه الطريقة أيّ شخصٍ منذ يومِ استعبادِها، سوى شخص واحد فقط، وكان ميتاً.

ولهذا السبب أحضرَتهُم إلى هنا. لتكونَ مع سِنَان. وقد صدَمَها إدراكُها لذلك.

والآن عند مدخل الكهفِ المألوفِ المخيفِ، خنقتها تلك الصدمة التي كانت تسكن المكان، والتي وصلت حَدَّ الرهبة.

قادتهم إلى الداخل وقالت بعد أن تأقلمت أعينهم مع الضوء الخفيف: "ربمّا تتساءل، يا سيّدي، لماذا ...؟"

قال أبو عبد الله: "لماذا أتيتِ بنا إلى هنا؟ نعم، أنا أتساءل فعلاً". وحدّق في كومة الخِرَقِ على الأرض وانحنى لتفقّدها.

"لا تفعل"!

فانتفض أبو عبد الله منتصباً.

فشرحَت لبنى: "اغفر لي، يا سيّدي. ولكنّ هذه الأسمال تعودُ لفقيرٍ كان يعيشُ هنا، وأصابه الطاعون في العام الماضي".

قال سِنَان: "أعتقد، يا مولاي، أن النقاش لم يُحسَم بعد بشأن بقاء العامل الذي تسبّب بالوباء في الجمادات".

فقال أبو عبد الله: ينبغي أن نسألَ لسان الدين عن ذلك. "لقد كتب رسالةً عن تلك النظرية، ما اسمها؟ *نظرية العدوى* على ما أعتقد. ولكن، ربّما كان هذا صحيحاً. لقد كنتِ على وشك أن تخبرينا، يا سيّدتي العزيزة، لماذا نحن هنا". ومسحَ بعينَيهِ الكوّاتِ المنحوتةِ في جدارِ الكهف، والتي يمكنُ رؤيتُها الآن في الظلام.

صمتت لبنى لبعض الوقت: "كما ترى، يا سيّدي، لقد اعتدتُ ... أقصد عليّ .. مولاي، مولاي الراحل، كان يرسلني إلى هنا بالرسائل. أعتقدُ جازمةً أن هناكَ صلةٌ بين القصيدة التي كتبَها وهذا المكان وبين ... وفاته".

وبقيت الكلمة عالقة.

قال أبو عبد الله بلطف: "سامحيني على الضغط، ولكن، هل يمكنكِ إخبارنا بالمزيد؟"

قادتهم لبنى إلى الحجرةِ الداخلية. وقالت وهي تريهُم الكوّة العميقة في الجدار الخلفي: "كنت أُحضرُ الرسائلَ إلى هنا، وأتركُها في هذا المكان، هنا، تحت الحَجَر".

رفع سِنَان الحجر وتحسّسَ تحتَه. ولم يجد شيئاً هناك.

"هل يمكنكِ إخبارَنا لمَن كانت الرسائل؟"

فتراءى في حجرة ذاكرتها، في ظلام كهف آخر، وجهٌ نصف مغطّى بالشاش والظلّ، وعينان خضراوان مضاءتان مشعّتان، تحدّقانِ في روحِها. "لا أعرف، يا سيّدي".

ابتسم أبو عبد الله مشجّعاً وهو يميلُ رأسَهُ جانباً. فشعرَت لبنى بالكذبةِ المكتوبةِ في عينَيها. ولكن، لا: لم تكن تلك كذبة. فهي لم تعرف هويّةَ خاطفيها. قال أبو عبد الله: "أعتقد أننا سنكتشف ذلك في الوقت المناسب. بطريقة أو بأخرى".

فتّشَ الرجلانِ الكهفَ بصمتٍ وبدقّة، وتفحّصا أركانه ومنافِذه جميعها، ولم يعثرا على شيء. وعندما وصلوا أخيراً إلى مدخلِ الكهف، وأشرقت شمسُ الظهيرة المبكّرة، تحدّثت لبنى من خلفِهم وكسَرَت حاجزَ الصمت. "أعتذرُ، يا سيّدي، فقد ضيَّعتُ وقتَكَ".

حارَ أبو عبد الله في الإجابةِ ولم يجدها.

كان سِنَان أوّل مَن رآه، ذلك الرجل الذي كان رابضاً بجوار القبر، يراقبهم بعينَين جامحتَين واسعتَين. لقد ميَّزَ تلك النظرة والزاوية الملتوية لهذا الأنف. ولكن، أين رآه من قبل؟

ثمّ رأتهُ لبنى أيضاً. لقد أعماها النور في البداية بعد الخروج من ظلمةِ الكهف، وقد أخفت وجهَهُ اللحية. ولكنَّ لحظةً واحدةً كانت كافيةً لتتداعى السنون وتسقط مثل منديلٍ ممزّق.

حدّقت مذهولةً به وقالت بنَفَسٍ واحد: "خايمي".

تحرّكت شفتاه: "*María*" ثمّ جاء الصوت: "*Jaime está muerto* ...".

كان الصوت همساً إسبانياً انتهى بعويل عربي: خايمي مات.

توتّرَ سِنَان وتملَّكتهُ غريزةُ الصيدِ وقفزَ في اللحظةِ التي انطلق فيها الرجلُ المجنون ... ولم يمسِك سوى بالهواء.

كان الرجل قد غاص في الاتِّجاه الآخر المعاكس وانطلقَ قافزاً فوقَ القبورِ كوحشٍ طائر.

راقبُوه جميعاً بلا حَرَاكٍ وهو يختفي أخيراً خلفَ مجموعةٍ من الأشجار أسفل رأس الوادي.

لم يلحظ أحد، ولا حتّى سِنَان حادّ البصر، ذلك الشخص الآخر الذي كان ينتقلُ بحركاتٍ قصيرةٍ مفاجئةٍ على طولِ قاعدةِ الجرف. لقد كان شبحَ امرأةٍ عجوزٍ تعرُج بسرعةٍ غير طبيعية.

****

ركَضَ الرقيبُ حميد على طول الطريق، وأسمالُ المتسوّلينِ التي يرتديها تتطاير. قال لنفسِهِ إنه يقوم بواجبه. ولكنه كان يدرك أنه كان يهربُ من ماضيه. كان حميد يهرب من خايمي.

سيقومُ بواجبِهِ بالطبع ... ولكن، ليسَ واجبهُ كلّه. سوف يخبرهُم عن الرجلِ الضئيل والعبدِ الأسوَد، ولكنّهُ لن يتحدّثَ عن ماريا، ثمّ سيخبرهُم أنه لن يستطيع المتابعة في هذه المهمّة، لأن أمره قد افتُضِح. كانت تلك الحقيقة على الأقلّ.

إلّا أنهُ كان يعلم أنه لن يخبرهم بأنه قد هربَ، وهو واحدٌ من أشجعِ المماليك، خائفاً من أختِه ومتشوّقاً لرؤيتها مرّة أخرى.

أخذَ يلهثُ وتباطأت سرعتُه ووصلَ إلى بَوَّابة قصر الحمراء العظيمة المتوَّجَةِ بالرؤوس. فأوقفهُ الحرّاس فصرخَ بهم: ألَا تعرفون رقيبكم؟"

تعرّفوا ببطء على صوته العالي، وأدّوا له التحية بسرعة. دخل البَوَّابة الضخمة متبوعاً باعتذارات عصبية. لقد غيّر ملابسه، فلم يتعرّف عليه رجالُه، وعرفتهُ ماريا رغم التمويه الذي فرضتهُ السنون.

ولكنها، في النهاية، كانت الشخصَ الوحيدَ الذي عرَفَهُ حقَّاً.

لم يتمكّن أحدٌ من رؤيةِ دموعِه، على الأقلّ هنا، في ظلمةِ البَوَّابة الفارغة.

****

وأخيراً قالتها لبنى مرّة أخرى، لتكسِرَ جدار الغرابة والصمتِ الذي أحاطَ بها منذُ بُعِثَ أخوها بين المقابر. "سيّدي، أشعرُ أنني أهدرتُ وقتَكَ على كهوفٍ فارغةٍ .. ورجالٍ مجانين". أدركت أنها لا تستطيع إخبارهم عن خايمي، سيّما وأنها لم تصدّق ذلك بنفسها. ولكن، كيف نفسّر تلك اللمسة الوجيزة والناعمة للهويات - خايمي ... ماريا ... لحظةُ أخوّةٍ أنقَذَتها من سنواتِ الفراق؟

قال أبو عبد الله: "بعيداً عن ذلك، يا سيّدتي. لقد كان الأمر يستحقّ متعةَ رؤيتِكِ، أعني ... رؤية مدينتكِ الرائعة، من زاوية جديدة. يا له من مشهدٍ مبهجٍ للوادي ولقصرِ الحمراء .. وهذه الأشياء كلّها".

تمكّنت لبنى من الابتسام لنفسها. إذا كان أبو عبد الله قد سمعَ همسَ الاعترافِ بين الأختُ والأخ، فهو رجلٌ نبيلٌ للغاية، بحيث لم يضخّم الأمر. ولكنَّ صمتاً غريباً آخرَ حَلَّ عليهم.

زادت أفكارها زخماً، كلّما نزلوا بين البيوت المتداعية في سفح وادي البَيَازِين، حتّى أخذتِ الأفكارُ تتقافز في ذهنِها دون توقّف. فقد فَقَدَت في خضمّ الأحداث على مدى الأيّام العشر الماضية حبيبَها ومعلِّمَها، وتمّ اختطافُها، واعتقالُها واستجوابُها علناً، وأصبحت جاريةً مجدّداً، ويتمّ اغتصابُها كلّ ليلة، ووجدت أخاً ضائعاً، ثمّ فَقَدَتهُ مجدّداً أيضاً.

فَقَدَتهُ لصالح ماذا؟ لصالحِ دِينٍ آخر؟ لقد تشبّثت بأجزاءٍ من الإيمان المسيحي الذي كان يلبسُها دائماً. كان خايمي مملوكاً، ولا يضاهي ولاؤه للسلطان إلّا ولاءه لله أم أنها فَقَدَتهُ لصالح الجنون؟ لقد كان هناك، رابضاً بين القبورِ يرتدي الخِرَقَ البالية. ولكنَّ نظرتَهُ تلك لم تكن نظرة مجنونٍ أو متعصّب: بل كانت نظرة رجلٍ مرعوب.

مرعوب ممّاذا؟! لم تكن تعرف.

كلّ ما عرفَتهُ أن ماضيها الحديث قد انهارَ على رأسها. والآن، حتّى أعمق جزء في تاريخها البعيد، وهو حجر الأساس لوجودها، قد انبعثَ مجدّداً ثمّ تصدَّع.

ولا يمكن تصوّر المستقبل على الإطلاق.

فالتجأت لبنى في تلك اللحظة، إلى ذلك الأمان بين حارسَين غير متوقَّعَين، أحدهما مفتون بها، وابتسمت مجدّداً رغماً عنها، والآخر ... لم تكن تعرفُ شيئاً بخصوصِ سِنَان، حتّى هي القَينَة التي تدرّبت على معرفةِ مشاعرِ الرجال.

الفصل الثامن عشر

"من الصامتين إلى السِّباع، تحياتي"، ترجَمَ صارم العبارة للمرّة الثالثة منذ وصول الرسالة.

فزمجَرَ ليث: "دعنا من المجاملات، يا حيدر". رأى حيدر، الذي استُدعي لإبداء رأيه العلمي في الرسالة، عينَي شيخه الخضراوَين مشتعلتَين في ضوء المشعل. لم يسبق له أن رأى ليثاً غاضباً إلى هذه الدرجة.

قال صارم: "أعتذرُ، يا شيخ ليث".

وتردّدت صرخةُ ليث عبر الأنفاق: "تابع!".

"*لا نعرف شيئاً عن مصادر الأسود والأصفر والأبيض*".

وتابع صارم، وصوته الرقيق الذي ينمّ عن العلم يرتجف: "*كلّ ما نعرفه هو أن الأحمر سوف يصلكم منا يوم عيد البافوميت*، أي محمّد، عليه الصلاة والسلام".

فبصق ليث قائلاً: "اللعنة على هؤلاء النصارى الذين أفسدوا اسمه الشريف. واللعنة عليكَ، يا صارم. تابع!"

"*ونقول مجدّداً إن هذه هي أفضل فرصة لكم للحصول على الأحمر. إنهم يعرفون بشأن الحَمَام. لذلك لا تستخدموها. وداعاً*".

قال ليث لحيدر برقّةٍ مخيفة: "الموضوع بسيط. أستاذنا البارز صارم

هنا لا يستطيع قراءة أيّ شيء بين سطور النصارى. أفترضُ أنكَ لا تستطيع أن تفعل ذلك أيضاً، يا حيدر. لذا، هل نستمرّ ونأمل أن ينجح الأمر؟"

"لا أرى ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك، يا شيخ ليث. الرسالة واضحة بما فيه الكفاية: النصارى لا يستطيعون مساعدتنا. على الأقلّ يظلّ معدّل إنتاج الدواء ثابتاً. وبإذن الله نحن في طريقنا لتجهيز الكمّية اللازمة في وقت مبكّر. كلّ ما في الأمر أننا نفتقدُ تحسيناتِ الخيميائي، المخفيّة في قصيدته تلك ..".

هسهَسَ ليث: "ليس عليكَ أن تذكّرني، أيُّها الأحمق" ثمّ انفجر صوته: "لا بدّ أن نحصل على الأحمر! فرصة كهذه قد لا تأتي مرّة أخرى لسنوات. بل لعقود. أبداً!".

فأضاف صارمٌ بخبثٍ هادئ بعد أن انقطع الصدى: "وكونه يوم بدعةِ عيدِ مولدِ خاتم النبيّين، فهذا يعني أننا سوف نتمكّنُ من قتلِ عصفورَين بطلقة واحدة، من خلال الضرب في تلك المناسبة التي لا تعدو بدعة خبيثة. يعتقد سلطاننا الكافر الآن أن عليه مواكبة الجيران النصارى وتقليدهم في مسألة عيد ميلاد المسيح الخاصّة بهم ...".

قال ليث وهو يهزّ رأسه: "ليتَ الأمر سهلٌ مثل قتل العصافير. إذن، يا حيدر، أليس لديكَ أيّ شيء على الإطلاق لتساهم به؟"

ابتلعَ حيدر ريقَهُ بقوّة. "أعرفُ أنها فكرةٌ غريبةٌ، يا شيخ ليث، ولكنّها خطرت ببالي مرّة أو مرّتَين من قبل، وتذكّرتُها الآن مع إشارة صارم إلى الطلقات، هل يجوز لنا استخدام الأسلحة النارية".

لم يقل ليث شيئاً، ولكنّهُ نظرَ إلى صارم.

قال صارم: "قد يكون هذا خياراً ممكناً. أتذكّر جيّداً الأخبار التي تحدّثت عن أن الأب الكافر للسلطان الكافر الحالي استخدمَ المدفع في الدفاع عن

الجزيرة منذ نحو خمسة وعشرين عاماً. وقد أُلقيت كراتٌ حديديةٌ وألسنةُ اللهب في صفوف النصارى".

بلّلَ ليث شفتَيه: "فليذوقوا نار جهنّم ...".

وأضاف حيدر: "لقد طوّرَ النصارى بأنفسِهم أسلحتَهم الناريّة، يا شيخ ليث. أعتقد أنهم يسمّونها "المدفعcannon " بلغتهم. وقد سمعتُ أن ابن ملك إنجلترا، المعروف بالأمير الأسود، استخدمها العام الماضي ضدّ هنري الزنويّ عندما كان يقاتل من أجل دون بِدرو".

نظرَ ليث إلى صارم: "ولكن، هل يمكننا الحصول عليها؟".

"عملياً لا يمكننا شراء حتّى واحدة من تلك المدافع في الوقت المحدّد، يا شيخ ليث. سيكون الاحتمال الممكن أمامنا هو أصغر نوعٍ من الأسلحةِ النارية، أي ما يسمّى بالمُكحُلَة، وأعني تلك الأنابيب الحديدية التي يتمّ تثبيتها على قطعٍ من الخشب وتثبيتِها على الكتف ...".

توهّجَت عينا ليث: "نعم ... تابع".

"فكِّر أيضاً في المدّة التي سيستغرقُها صنعُ واحدةٍ منها، حتّى لو تمكّنّا من العثور على شخص يقوم بذلك. فصناعة الأسلحة النارية احتكارٌ سلطاني. ولا بدّ أن يكون هناك تدريبٌ أيضاً، بل تدريب مكثّف. كلّ شيءٍ يقفُ ضدَّ هذه الفكرة، يا شيخ ليث، الوقت والخدمات اللوجستية وكلّ شيء". فرأى التوهّجَ في عينَي ليث يتلاشى. ثمّ تابَعَ صارم محاولاً مواساة زعيمه: "ولكي أكون صادقاً، فإن الأسلحة النارية تثيرُ الصدمةَ والرعبَ أكثرَ من كونِها تُسَبِّبُ الموت والدمار. قد يروي الجندي العادي قصصاً مرعبةً عنها، وعن الجروحِ التي تسبّبها، والتي لا تُشفى أبداً، وما إلى ذلك، ولكنّها، في الواقع، ليست أكثرَ من مجرّد ألعاب. لا تتعدّى القوس والنشّاب جيّد الصنع، أو واحداً من تلك الأقواس الإنجليزية الطويلة. صدِّقني، يا شيخ ليث، الأسلحة النارية مجرّد تقليعة سوف تتلاشى قريباً".

قال ليث: "الله أعلم ... ولكنّكَ محق. الوقتُ قصير جدّاً. لقد فاتَ الأوان لتغيير المسار الآن. بالإضافة إلى معلومة ..."، وأغمضَ عينَيه وأمسَك رأسَه: "إنهم يعرفون".

نظرَ صارم وحيدر إلى بعضهما البعض للحظة طويلة، ثمّ تحدّث صارم في نهاية المطاف: "ما الذي يعرفونه، يا شيخ ليث؟"

"معلومات عنّا. إنهم يعلمون بشأننا".

****

مرّت أم أحمد للمرّة الثانية في هذا اليوم متعثّرة أمام الضريح الصوفي الذي يقعُ على المنحدر الجنوبي الشرقي لتلّة الحمراء. لم يكن هناك الآن في الساعات المتأخّرة من بعد الظُّهر زوّاراً في حجرةِ القبرِ الصغيرة. لا يعني ذلك أن أحداً كان سيلاحظها، فهي قد تكون مجرّد امرأة سمراء متغضّنة في الستّين من عمرها ترتدي ملابس سوداء رثّة، أو مجرّد واحدة من فاعلي الخير الذين يحومون حول مثل هذه الأماكن. ضحكت في نفسِها من فكرةِ الرجلِ الذي أتى إليها هذا الصباح وقدّمَ لها قطعةً نحاسيّةً، معتقداً أنه سوف يشتري بها مكانهُ في الجنّة. أخذَتها وألقتها في وجهه السمين الصامت من المفاجأة. لم يكن لديها أيّ اهتمام بالنحاس، بل تهتمّ بالفضّة الجميلة اللامعة التي تخشخش في يدَيها من صاحب العينَين الخضراوَين.

الفضّة. ولهذا السبب فقط، جرّت أم أحمد نفسَها من كهفِها إلى هنا مرّتَين اليوم. المرّة الأولى تحملُ رسالةً من اليهودي، حقّقت بفضلِها عشر دراهم. وهذه المرّة، يا إلهي، كانت قدماها تؤلمانِها، ومفاصلُها تتألّم وتحترق، لقد تلبّسَها الشيطان حقّاً. سوف تجعلُ صاحبَ العينَين الخضراوَين يدفع لها أكثر، أو ستلعنه في وجهه وتراه ينكمش أمامها متذلّلاً. فقد كانت تحمل أيضاً أخباراً ذاتَ قيمةٍ كبيرة تساوي عشرين درهماً.

وبلّلت أم أحمد شفتَيها عندما فكّرت في سقوطِ العُملات المَعدِنية عبر الثقب السرّي وهبوطها بتلك "النقرة" المُرضية في الوعاء المدفون الذي يحتوي على كنزها. وصلت إلى هناك وسحبَت نفسَها من خلال الثغرةِ في الجدارِ القديمِ العالي وهي تتأوّه.

تابعت أمّ أحمد مع المزيد من الألم المسار المنحدر عبر الشجيرات المتشابكة، متجنّبَة الأشواكَ التي حاولت التشبّثَ بعباءتِها والجذورَ التي امتدّت لتُعثّرَها. قالوا إن هذا المكان كان حديقة قصر وزير يهودي، في أيّام حكم البربر، قبل أن يبني الملوك على تلّة الحمراء. لقد أصبح الآن مسكناً للجِنّ، منطقة صغيرة مسكونة ومحرّمة مملوءة بأشجارِ الزيتون العتيق وأشجار السَّندِيان المتشابكة بين صخب المدينة بالأسفل وعَظَمَة قصر الحمراء. ولم يجرؤ أحد على عبور حدودها، ولا حتّى في النهار. لا أحد سوى صاحب العينَين الخضراوَين ورجاله. وصلت أمّ أحمد التي في رأيها أنَّ كلّ جِنٍّ وغولٍ وعفريتٍ في الأندلس يمكن أن يذهبوا إلى الجحيم ليمارسوا الفاحشة مع بعضهم البعض، إلى المسار الجانبي واتّجهَت نحو واجهة التلّ.

انفتح المسار فجأة على مساحةٍ صغيرةٍ على شرفةٍ منهارة. وجدت هناكَ البابَ في مواجهتِها، وهو بابٌ كبيرٌ من ألواحٍ خشنةٍ ثقيلةٍ مثل بابِ مخزن بستاني. والغريب أنه لم يكن فيهِ مقبضٌ ولا قفلٌ ولا حتّى ثقب مفتاح. والأمرُ الأكثرُ غرابةً هو أنه يؤدّي إلى جانب التلّ.

انحنت أمّ أحمد، وهي تلعنُ مفاصلها، والتقطت حجراً وضربَته.

****

"إنهم يعرفون ... ماذا تقصد، يا شيخ ليث؟" كانت هناك نبرة ذعرٍ في صوت صارم، ولكنه أُجبِرَ على الابتسامة "إذا كنتَ تشيرُ إلى التحذير

الموجود في الرسالة بشأن عدم استخدام الطيور، إذن، مع فائق احترامي، هذا لا يعني أنه تمّ اكتشاف أمرنا. إنه يعني بالتأكيد ...".

نظر الرجال الثلاثة فجأة إلى مصدر صوت الطَّرق البعيد والذي كان واضحاً ... ثمّ استرخوا: كانت تلك إشارة المرأة العجوز، ثلاث طَرقات قصيرة، ثمّ طويلة، ثلاث مرّات. رغم أن هذا غريبٌ فقد جاءت اليوم من قبل.

لا يزالُ القلق بادياً على ليث. عرَفَ حيدر أنه يكره الساحرة العجوز التي كانت تتجسّس على مخبأ رسائلهم فوق المقبرة. لقد كانت الشخص الوحيد الذي لم يكن خائفاً من زعيم السِّباع. ولكن، كانت هناك لمسةٌ حقيقيةٌ من الخوفِ في صوتِ ليث عندما تحدّث: "صارم، حيدر ... . لا تُخبرا السِّباع الآخرين، ولكن، هناك ما هو أكثر من مجرّد مسألة الطيور. هناك أخبار من قصر الحمراء: لقد أبلغنا أسد أن المغربي الصغير وصاحبه الأسوَد يتجوّلان حول القصر الجديد مرّة أخرى".

"مع احترامي، يا شيخ ليث، لا أستطيع أن أفهم لماذا تظنّ، بحكمتكَ العظيمة كلّها، أن هذَين الشخصَين يشكّلان مثلَ هذا التهديد ...".

قال ليث بهدوء: "صارم، أنا لا أظن أنهما يشكلان تهديداً فحسب ... بل أنا متأكّد". وتساءل عمّا إذا كان سيخبر مساعديه عن ليلة الصاعقة المصيرية، الليلةُ التي فُقد فيها الخيميائي. وعن ذلك اللقاء في الزقاق مع المغربي والأسوَد ... وأخذتِ الرغبةُ تزحفُ تحت جِلدِه كالجَرَب.

قال صارم بهدوء: "شيخ ليث؟"

لم يسمع ليث. فإذا لم يتمكّن من الحصولِ على العبدِ الأسود، فإن ثاني أفضل متعةٍ لديه ستكون قتلَه ... هل هي فعلاً ثاني أفضل متعة؟ لا بدّ أن يخترقَ هذا الجسدَ الجميلَ، وإذا لم يكن هذا عن طريق الجسد الساخن، فليكن بواسطة الفولاذ البارد.

استوقفه أحدهم بإصرارٍ كبير: "شيخ ليث .. شيخ ليث ... الحيزبون هنا. لديها أخبار عاجلة. عاجلة للغاية".

****

قال أبو عبد الله لِلُبنى: "يمكنني تقديمُ عرضٍ لشرائكِ من سيّدِكِ، عرضٌ لا يستطيعُ رفضَه". وقال في نفسه: *لا بدّ أن ألجأ للسان الدين للحصول على المال.*

لم يملأ الصمتَ شيءٌ سوى دفقةِ الماء المتقطّعة البطيئة. حتّى النافورة الموجودة خارج جناح ضيوف الوزير بدت وكأنها تأخذ قيلولة في ساعات الظهيرة الساكنة هذه.

قالت لبنى بعينَين حزينتَين: "سيّدي، أنا متأكّدةٌ أنه لن يوافقَ أبداً".

استمعَ أبو عبد الله للحزنِ في صوتِها، ولكنّهُ سمعَ نبرةً من ... ماذا؟ الارتياح؟ لقد عرفتُ هؤلاء النساء كلّهنّ، وما زلتُ لا أعرفُ المرأة حقّاً.

واستطردت قائلة: "كما ترى، فإن معاقبة أخيهِ المتوفّى من خلالي أهمّ لديهِ من المال".

لم يكن يريد الاعتراف بذلك، ولكنه هو نفسه قد ارتاح. لقد مرّ بذلك كلّه مرّاتٍ عديدةٍ في رأسِه، في ساعات منتصف الليل التي كانت فيها النافورة نائمة، ولم يكسر صمت عين الدمع سوى صوت طائرِ صقرِ الليل، وكان يصلُ دائماً إلى النتيجة غير المعلنة نفسها: لقد أرادها أن تمتلكَهُ، وليسَ العكس. ولكنّ سِنَاناً قد استحوذَ عليها بهذه الطريقةِ غيرِ الخاضعةِ للمساءلة. هذا ما كان يعرفُهُ حقّاً. وحتّى الآن، كانتُ حاضرةً معهُ جزئياً فقط. أمّا الجزء الآخر، فكان في مطابخِ الوزير، حيث ذهبَ سِنَان لإحضارِ طعام الغداء. تنهّد. "ثمّ كلّ ما يمكننا القيام به، سيّدتي العزيزة، هو أن نرافقكِ إلى سيّدِكِ الجديد، ونخبرهُ أنكِ كنتِ تتجوّلينَ في المقبرة، وهذا

لا يجافي الحقيقة ولو كان أقلَّ منها ... ويمكنُنا أن نضيفَ له أنكِ ... أنَّ عقلكِ كان مضطرباً للغاية بسببِ محنكِ الأخيرة".

هزّت لبنى رأسَها ببطء: "لن يؤثّر أيٌّ من هذا عليه".

فقامَ أبو عبد الله ومسّدَ لحيتَه: "إذن سوف أمارسُ نفوذي عليه. سأقولُ له مَن أنا: شمسُ الدين أبو عبد الله الطَّنجيّ، المعروف بابن بَطُّوطَة، القاضي المالكي السابق في دلهي، وقاضي القضاة السابق في أرخبيل المالديف ..." توقَّفَ، ورأى سِنَاناً يظهرُ في المدخل، ورأى بداية ابتسامةٍ متبادلةٍ مع لبنى على صينية الطعام.

"ولكن ... هذا ما كنتُ عليه سابقاً. والآن ... ماذا؟". تلاشى صوته إلى اللا شيء. كان العبدان صامتَين. وتلعثمت النافورة.

ثمّ تنحنَحَ أبو عبد الله فجأة وتحدّثَ بمرَحِهِ المعتاد. "غداء. هذا هو المطلوب، يا عزيزتي. يعلم الله أنكَ في حاجة إليه. تبدين كما لو أن سيّدكِ الجديد هذا يجوّعكِ. تعال، يا سِنَان، تبدو نشيطاً للغاية مع تلك الصينية!

****

نظرَ ليث بارتيابٍ إلى المرأة العجوز: "هل تقولين الجارية السابقة نفسها؟".

فركَت أمّ أحمد أطرافَ أصابِعها تحتَ أنفِهِ مباشرة. "نعم. هل تعتقدُ أنني خَرِفَة؟ أعطني نقودي".

"والأجنبي العجوز الصغير ذو اللحية البارزة وذلك الأسوَد؟"

"نقودي".

"وجاسوسٌ أيضاً عند القبور؟ كيف تكونين متأكّدة إلى هذا الحدّ؟"

"لقد أخبرتُكَ أن قميصَهُ كان نظيفاً تحت خِرقِه. وبدا أن تغذيتُهُ جيّدة. ويتمتّعُ بمظهرٍ قوي، ويبدو نصرانياً ... نقودي".

"صارم، أعطِ العجوز ما تريدُه. حيدر جَهّز أربعةَ خناجر. نعم، أيُّها الأحمق، خناجر الحشاشين! وتأكّد أن تحتوي ما يكفي من السّمّ. يجب القضاء عليهم. الآن". قال صارم: "يا شيخ ليث، مع فائق احترامي ... هل هذا تصرّفٌ حكيم؟".

تجاهَلَهُ ليث وخرَجَ إلى الغرفة الرئيسة، وكأنّهُ يتحدّثُ مع نفسِه. "يمكنُ لحَطّامٍ أن يقضي على الجاسوس ... وعلى ضِرغامٍ أن يذوق الدمِ لأوّل مرّة ...! يمكنهُ توليّ أمرَ الجارية. وربمّا جسّاس يمكنه التعامل مع العجوز ...".

كان صارم خلفه: "ولكن ... ولكن، يا شيخ ليث، نحن في النهار. هل يمكننا المخاطرة بالظهور على العلن في وَضَحِ النهار؟".

أدار ليث نار نظراته الخضراء نحو الرجلِ الأكبر سنّاً. "لقد قلتُ لكَ. ينبغي القضاء عليهم" واشتعلت النيرانُ في العينَين، أمّا الصوتُ، فكان بارداً كالثّلج. تجمَّدَ صارم مذعوراً. وتابعَ ليث بهدوءٍ وعيناهُ مغمضتان: "*وأنا سوف أهتمّ بالعبد الأسوَد*".

الفصل التاسع عشر

شعرَ سِنَان ببدايةِ برودةٍ في الهواءِ خارجَ بَوَّابة قصرِ الوزير عند عين الدمع. كان وأبو عبد الله قد صلّيَا صلاةَ الظهرِ قبلَ أن ينطلقا مع لبنى، وكانت الشمسُ الآن في طريقها إلى انزلاقها الخريفي الطويل في السماء. وتساءل عما إذا كان سيعتاد يوماً ما على غرابة خطوط العرض الشَّمالية هذه، أو المشاعر المدفونة طويلاً، والتي أيقظَتها المرأة التي كانت تسير أمامه.

لقد حاولَ التخلّصَ من تلك المشاعر. سوف تذهب مع الوقت.

لم يُعِر سِنَان الغارق في تفكيرِهِ أيّ اهتمامٍ لحرّاس الوزير، أو لصفّ أصحاب الحاجات الجالسين على الجانب الآخر من البَوَّابة. ولم ينتبه للإشارة الصغيرة التي أطلقها أحد أصحاب الحاجات المنتظرين، وهو رجل ملتحف بطيلسان لمواجهة البرد القادم. ولم يكن يعلمُ أنه قد نهَضَ مع اثنَين آخرَين وغادروا الصفّ بعد مرور جماعة أبي عبد الله الصغيرة.

قالت لبنى عندما كانوا حول المنعطف في السكّة وبعيداً عن مسامع الناس عند البَوَّابة: "سيّدي، يجب أن أكرّرَ اعتذاري لكَ". وأعتقد أنه لن تتاح لي الفرصة للقيام بذلك مرّة أخرى. لقد كنتَ لطيفاً للغاية، وقد أهدرتُ وقتَكَ عبثاً من خلال اصطحابكَ إلى ذلك الكهف الفارغ".

ضحك أبو عبد الله "وأنا أقول، هذا هراء، يا عزيزتي! لا أحتاج للقولِ إنّ صُحبةَ امرأةٍ متحضّرةٍ مثلكِ هي متعةٌ حقيقيةٌ لرجلٍ عجوزٍ متهالِكٍ مثلي".

رَفَعَ يدَهُ ولوّح بها ليُسكِتَ لبنى: "كما أنني لطالما وجدتُ أن الكهوف، حتّى الفارغة منها، غالباً ما تكون مداخل إلى مناطق أخرى مجهولة".

صمتَتِ المجموعةُ الصغيرة لبضع لحظات. وقالت لبنى: "لماذا، يا سيّدي؟" لقد أرادت ملءَ الصمتِ بالحديث، وليس بتنبُّؤات نهاية هذه المهلة القصيرة.

فقالَ أبو عبد الله بنبرةٍ تحذيريّة: "إيَّاكِ، إيَّاكِ وحديثُ الرحَّالة، فبمجرَّد أن تتركيني أبدأ في الحديث، فلن أتوقّف أبداً".

"لا أريدُكَ أن تتوقَّفَ يا سيّدي".

"جيّد جدّاً. ولكنني سأعطيكِ مثالاً واحداً فقط. عندما كنتُ مقيماً في مدينة الصين العظمى، في بلاد القان الأعظم، فيما يسمُّونَهُ مناطقَ ما وراءِ الرّيح، في أقصى الشرقِ من القُبَّةِ المركزيّة للأرضِ مثل غربِنا هنا، ذهبتُ لزيارةِ أحدِ الرجالِ المقدَّسين المشهورين الذي يسكنُ في مغارةٍ خارجَ المدينة. كان عمره مائتَي عام، أو هكذا قالوا، ولكنَّ قواه العقلية جميعها كانت سليمة، واعذريني، يا سيّدتي، حتّى قواه التكاثرية، على الرغم من أن الطريقة التي عرفوا بها ذلك خارجة عن نطاقِ قدراتي. ولمَّا رآني أخذَ بيدي وشمَّها، ثمّ قالَ: أنتَ من طرف العالم ونحن من طرف العالم الآخر، ثمّ دَخَلَ كهفَهُ، فتبعتُه ... ولم أجد له أيَّ أثرٍ في الداخل".

"كيف حدث هذا؟ كان هناك بالتأكيد مكانٌ سرِّيٌّ للاختباء".

"الله أعلم. لم أجد مكاناً كهذا. ما أعرفُهُ هو أن فراغَ الكهفِ كانَ مجرّد وَهم. كذلك كان فراغ كهفِكِ، يا سيّدتي العزيزة. وما نحتاجُ إلى معرفتِهِ ليس أين ننظر فقط، بل كيف".

كان صوتُ خطواتِهم قوياً. ولم ينتبه أحدٌ منهم، ولا حتّى سِنَان، للأشخاصِ الذين يتابعونهم بهدوءٍ، ويظلّون دائماً متوارين عن الأنظار عند

منعطفاتِ الشوارع، بانتظارِ وصولِ ضحاياهم إلى شوارعِ سوقِ البَيَازِين المزدَحِمة. هذا هو المكان، المكان الذي ينبغي أن تضربوا فيه كما أخبرَهُم ليث: كالبرق، ودون سابق إنذار، حتّى لو لم تتمكّنوا من توجيهِ ضربةٍ صحيحة، فإن السُّمَّ سيأخذُ مسارَهُ المؤلم.

قال سِنَان: "ألم تقل دائماً إن كلّ شيءٍ عجيب في الصين، يا مولاي؟"

"كما قلتُ لكَ، يا بني، إن الله تعالى خلقَ تسعة أعشار عجائبه في المشرق. خذ مثلاً هذا الاستقبال الذي دُعيتُ إليه في مدينة الخنسا في أقصى شرق الصين، أكبر مدينةٍ في العالم، والتي تستغرقُ الرحلةُ ثلاثةَ أيَّامٍ فقط لعبورِها! ربمّا قدَّموا بالطبع عرضاً خاصّاً بسبب زيارتي، وبالمناسبة، لا أعتقد أنني أخبرتُكِ، يا عزيزتي" قال أبو عبد الله متوجِّهاً إلى لبنى "إنني كنتُ أزورُ الصين بصفتي سفيراً مفوَّضاً من سلطان الهند. وعلى أيّ حال، كان لديهم تلك المراكب الكبيرة المذهّبةِ على البحيرة، على شكل تنانين وثعابين وعنقاء وما شابه ذلك، وقاموا بمعركةٍ صوريةٍ، كانت ذخيرتُها من البرتقالِ والليمون. والألعاب النارية!".

قالت لبنى: "ما هي الألعاب النارية، يا سيّدي؟"

"أشياء مثل السهام التي يطلقونها في الهواء دونَ استخدامِ أقواس، أو يطلقونها فوق سطح البحيرة مثل نجم البحر المجنون، أو تدور بأقصى سرعة، وتنفجر بألوان نارية .. بووم!!!" وقفزَ أبو عبد الله في الهواء، رافعاً ذراعَيهِ إلى السماء، وتطايرَ رداؤه، ممّا جعل العبدَين يضحكانِ بصوتٍ عالٍ "أصفر، أبيض، أحمر، والألوان جميعها إلّا الأسود! وربمّا يمكنهم أيضاً استخدام اللون الأسود، ولكنكَ ستحتاج إلى عينَين حادَّتَين لرؤيته في سماء الليل".

كانت لبنى لا تزالُ تضحك، ولكانت احتفظت بهذه الضحكاتِ لو عرفت لتستعيدَها لبقيّة حياتِها. ولكن سِنَاناً خلفها كان غارقاً في التفكير

مجدّداً. ذكّرته صورة النار السوداء في الليل ... بذلك البيت من الشِّعر، يا أسود كالليلِ يُفني فحمَهُ ... ...بالنار تستولي على وهجِ السُّرى، وتلك الألوان الأخرى، الأصفر والأبيض، والآن الأحمر أيضاً. فقال سِنَان: "يا مولاي، ما الذي يجعل هذه الألعاب النارية تطير وتسبح في السماء وما إلى ذلك؟ لم تخبرني أبداً".

"الله أعلم، يا بني. ولكنني أعتقد أنها النار نفسها، أو شيء له علاقة بالكيمياء. لقد تذكّرتُ الآن أنني قد سألتُ حينَها، أو بالأحرى، سألتُ لاحقاً عندما كنتُ على متنِ سفينةٍ صينيةٍ كان بها جهازٌ لرمي هذه السهامِ الناريّة بدون استخدام القوس على القراصنة. وعلى حدّ ذاكرتي، فإنها تعملُ بمزيجٍ من الكبريتِ والفحمِ المطحونَين معاً. هذا كلّ شيء ... وكان هناك شيء آخر أيضاً. ربّما بعض المكوّنات الخاصّة. ولكنني لن أستطيع تذكُّرَها مهما بذلتُ من جهد".

انعطفوا عند الناصية، وأضاءت الشمسُ الغاربةُ البقعَ البيضاء التي لا تزال تعلو جبل شلير، حتّى في ذلك الوقت المتأخّر من العام. استدار أبو عبد الله فجأة، ممّا جعل العبدَين يتوقّفان. قال: "آه، تذكّرتُ!". وعلى مبعدة منهم اندفعَ شخصٌ يلتحف بطيلسانٍ نحو فجوة في الجدار، ولم ينتبه إليه أبو عبد الله. وصاح أبو عبد الله: "*الثلج! الثلج الصيني*".

تعثّرَ رجلٌ قادم على الطريق مع حمارٍ مثقلٍ بالأحمالِ في خطواتِهِ وحدّقَ في الأجنبي النحيل الذي كان ينطقُ بكلماتٍ غريبة، وفي العبد الأسود.

تابعوا المشي. قالت لبنى: "ولكن، يا سيّدي، كيف يمكنُ لشيءٍ باردٍ كالثلج أن يولّدَ الحرارة والنار؟"

"ليس الثلج الفعلي. إنه ثلجٌ مجازي. أمّا المادّة المَعنيَّة، فهي بيضاءَ وخفيفة، وهذا كلّ شيء، كنتُ أعرف أن هناك شيئاً مضحكاً فيها، فلطالما

حصلوا عليها من الأماكن الكريهة النتنة. لقد تذكّرتُ هذه المعلومات كلّها الآن ...". كان عليهم أن يتّجهوا إلى جانبِ الشارع عندما مرّت مجموعةٌ من الحمّالين بأكياسٍ منتفخةٍ على ظهورهم. وتابعَ أبو عبد الله: "كما ترين، لقد مكثتُ في الصين العظمى مع تاجرٍ يصدّرُ هذه المادّة. إنه ذلك النوع من الطبقة البيضاء التي تنمو على جدران الأقبية والإسطبلات والمراحيض وما إلى ذلك".

كانوا الآن في منطقة البَيَازِين، وقد امتلأت أزقّتُها الأكثر اكتظاظاً في هذه الساعة، واقتربوا من السوق الصغيرة المزدحمة. لكن عقولَ الثلاثة كانت في مكانٍ آخر: كان أبو عبد الله على سواحل الصين البعيدة، وعادت لبنى إلى زنزانتِها المظلمة والضيّقة كالقبر في المنزل القريب، تنتظر وقع الأقدام والنَّفَس الذي يبدأ اغتصابها الليلي، وكان عقلُ سِنَان يبحثُ عن أثرٍ ما، أو علامةٍ خفيّةٍ يتذكّرها من شأنها أن توضّح كلّ شيء، وتضعهم على الطريق الصحيح. لم ينتبه أحدٌ منهم لضجيجِ الباعة الجائلين والصخب من حولهم، أو للمتسوّلين الذين ترتعشُ أكمامُهم، أو الصيدليّ الذي يحملُ رفّ الجذور المجفّفة والسحالي، أو الرجل الذي جلسَ يطلبُ الصدقات ويعرضُ ما قد يكون يقطينةً ناضجةً، ولكنها كانت في الواقع كيسَ صفنِهِ المنتَفِخ، أو للضارط المحترف وجمهوره الضاحك والذي ينادي "اصغوا إلى إفراط الضراط! يرتفع الصوت صعوداً إن زدتُم نقوداً"، ولا واعظ الشارع الذي كان يذكّر العبد والسلطان، والأمير والفقير، والزاني والتقيّ، بأنهم لا يستطيعون أن يأملوا أكثر من القبر ورحمة الله. ولم يكن سِنَان ورفاقه على علمٍ بوجودِ ثلاثةِ أشخاصٍ يشقّونَ طريقَهَم عبرَ الحشد، وكلّهم يمسِكونَ بمقابضَ تحتَ ثيابهم، ويضغطونَ عليها.

وفجأةً وجدَ سِنَان ما كان يبحثُ عنه ونادى فوقَ رؤوسِ روّادِ السوق "مولاي، لقد تذكّرت!" وتقدَّمَ للأمام، مارّاً بلبنى، لم يلامس سوى المسك

المتضوّع من ثيابها وجسدها، ووصلَ إلى جانب أبي عبد الله "تذكّر أنّكَ قلتَ إن الثلج الصيني يأتي من المراحيض وما إلى ذلك، وأن الأمر كلّهُ متعلّقٌ بشيءٍ خيميائي؟ حسناً، في ذلك الصباح عندما كنّا في مجلس صاحب الليل، كان هناك صبي قال إنه رأى علياً الخيميائي في مراحيض المسجد ومعه حقيبة، يجمع فيها بعضاً من ...".

ولمحَ في الوقت المناسبِ بريقَ الفولاذ الموجَّهِ نحو رقبةِ أبي عبد الله، وأمسَكَ بالذراع التي كانت تحملُ الخنجرَ وشدَّها بأقصى ما يستطيع. لم يسمع قعقعةَ الخنجرِ على الحصى، ولكنّهُ أحسَّ بتمزّقِ الغضروف الملتوي والعضلات وانفصالِ العظمِ عن تجويفِه، وسمعَ صرخةَ الألم التي أسكتت ساحة السوق ووجَّهَت نحوَهُ مئاتِ الرؤوس. أدارهُ عزمُ حركتِه لتفاديهِ على عقبَيه، ورأى بريقاً آخر، ونصلاً يرتعشُ للحظة في قبضةِ شابٍّ ثائر، فصرخَ في لبنى: "اهربي!" وظهر بعد ذلك وميضٌ آخر، بعد فواتِ الأوان. كان هذا نصلاً آخر يستهدفُ صدرَهُ، مع نار العينَين الخضراوَين، ولهيبِ الاشمئزاز ... والشهوة. ولكن العينَين أغمضتا، وتردَّد النصلُ للحظة.

طارَ الخنجرُ نحو قلبِه، ولكن، تلك الهنيهةِ كانت كافيةً لينخفضَ سِنَان.

ارتطم بالأرض وانتظَرَ الضربة.

ولكنها لم تأت.

تعالى صوتُ أقدام تهرب. وحبسَ الحشد أنفاسَهُ وابتعدوا في انسجام تامّ، مطلقين الآهات الطويلة.

نهضَ سِنَان، ورأى أبا عبد الله واقفاً متفاجئاً، ولكنه كان هادئاً ويقولُ للحشد: "شكراً لسؤالكم، أنا بأحسنِ حال، من الواضح أن هذه لم تكن ساعتي .." ورأى فوق الرؤوسِ شبحاً بطيلسانٍ يهربُ وينسلّ بين المتفرّجين برشاقةِ نِمسٍ، قبل إدراكِ موجة البشر هذه لفرارِه.

وانطلقَ سِنَان خلفَه. انفصلَ الحشدُ مثل كقوس موجة القارب أمام العبد الأسود المنطلق. واختفى المهاجِمُ في فمِ الزُّقاق.

لقد كان زقاقاً مسدوداً. لقد أمسكَ به! ولكن، أينَ هُو!

وتراءَت أمامَهُ صورةُ كهفِ الاختفاء الصيني، بينما دفعَهُ زخمُ سِنَان إلى طريقٍ مسدود.

لم يكن طريقاً مسدوداً. بل كان تقاطعاً على شكل حرف T، حيث بدا المنعطفان ضيِّقَين للغاية بما يكفي لدخول قطّة، ناهيكَ عن رجل. تفحّصَ سِنَان الترابَ بحثاً عن علامة. إلى أيّ طريق ذهب؟ وللحظة، كان الصمت مميتاً لدرجة أنه تساءل عمّا إذا كان في الواقع لم يركض، وفيما إذا كان ميتاً حقّاً، وكان هذا المكان قبره. وتصوّرَ في الصمت تلك العينَين الخضراوَين، وهما تسحبانِه إلى أعمق طبقاتِ ماضيه، فيما وراء الذاكرة.

ولكنّه سَمِعَ دقاتِ قلبِه، وشعَرَ بتدفّقِ دمائِه حول أطرافِه، وأدركَ أنه على قيدِ الحياة. ثمّ جاءَ صوتٌ آخر من خلفِهِ ونَفَسٌ وصوتُ خطوة.

استدارَ، ولكن الوقتَ كان قد فاتَ هذه المرّة لتفادي الضربة.

الفصل العشرون

هذه المرة كانت لبنى تعرفُ إلى أين تهرُب.

احتضنتِ الحجارةَ والطوب، والتي كانت لا تزال تحتفظُ ببعضِ الدفء. ولكن الشمسَ كانت قد غادرت الوادي، وكان خطُّ حصونِ قصرِ الحمراء التي اصطفّت وبرزت على طول المنحدر المشجّر قد أظلمت حتّى أصبح لونها بدرجةِ لونِ كدماتِ اللحم. لم يبق الضوء سوى على جبل شلير فقط، وقد حوّلَ حقول الثلج الضئيلة إلى اللون الأرجواني.

لطالما ألهمَ هذا المشهدُ مئات القصائد، وآلاف المقاطع، وأبياتٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى، وبعضها للبنى ذاتها. ولكنّها أدركتِ الآن أن هذا الجمال كان مجرّد كذبة.

نظرَت إلى الفجواتِ التي اخترقت الجرفَ فوقَ المقبرة، وتذكّرت ما قاله أبو عبد الله عن الكهف: كان فراغُه مجرّد وَهم. هزّت رأسَها. لقد كانت نيّةُ الرجل العجوزِ حسنةً، ولكنّه كان مُخطِئاً. فالفراغ والعدم والموت هو الواقع الحقيقي الوحيد. وكلُّ شيءٍ آخر في هذا العالم من الخلقِ والانقراض، والوجود والعدم، كان زائلاً ووَهمياً وفانياً ولا قيمة له.

أعادتها هذه الفكرة إلى إحدى الليالي التي مضت في شهرِ رمضان منذ عدّة سنوات، عندما شاهدت وعليّ العرضَ الذي قدّمَهُ فنَّانو العرائس المتجوّلون في سوق البَيَازِين، والذي كانوا يطلقون عليها اسم خيال *الظلّ*. لقد أدرك محرّكو الدمى الحقيقة: أن العالم كان مجرّد مسرح إيمائي

صامت، وأن الأدوار التي نلعبها فيه لا تعدو في الجوهر أكثر من ظلال الدمى الورقية، التي تتمايل وراء الشاشة المضاءة. تلك الدمى كانت الحقيقة، وجمهورها كان الوَهم. تذكّرت كيف شاهدوهم وهم يجمعون الدمى والعرائس بعد العرض، ويلفُّونها بحنان واحدة تلو الأخرى في مُلاءة من الكَتَّان تحمل أجسامها الفانية. ومن دون سابق إنذار، التفتَ إليها كبير فنَّاني العرائس وابتسم قائلاً بهدوء: "إنها أكفانُها، يا سيّدتي. وعندما أصبح ظلّاً أيضاً، ستكون كفني".

ارتجفَتِ الآن كما ارتعشَت حينَها. ولكنَّ عليّاً هذه المرة لم يضغط على يدها على الرَّغم من أنه كان قريباً جدّاً، على بُعد قامة واحدة، مجرّد ستّة أقدام تحت الأرض. أدركت أنها لا تزال تمسّدُ الحجارةَ التي غطَّت قبره، ولكنَّ دفءَ النهار قد ذهب عنها أيضاً.

وماذا عن رفيقَيها الحَيَّين إن كانا لا يزالان على قيد الحياة؟ ربّما يكون أبو عبد الله قد هَرَب. ولكنَّ سِنَاناً ...

انتزعت يدَها بعيداً عن الحجرِ البارد، فقد كانَ التفكيرِ بعليّ وبِهِ في الوقت نفسه بمثابة خيانة، وعاد إلى ذهنها ذلك المشهد الأخير الذي لا يتجاوز جزءاً من الثانية مجدّداً. صرخةُ سِنَان. ووميضٌ من الفولاذ يرتجفُ في زاوية عينها. والوميض الآخر الذي لمحتهُ في أثناء استدارتِها لتَهُمَّ بالركض، مُوجَّهاً مثل الصاعقة نحو قلب مُنقِذِها الأسود.

تذكّرت ذلك البيت الشِّعري القديم، الذي شاركتهُ معه عندما كانا وحدهما: "إنّا غريبان ها هنا ..." وتذكّرت الآن مَن هي التي كان الشاعر يخاطبها: غريبة في القبر.

لقد أصبحوا جميعاً ظلالاً اليوم.

كان هناك وميضٌ واحد من الحياة: خايمي. أو بالأحرى الرجل الذي

كان يُعرف يوماً باسم خايمي، بعد أن فكّرت فيما إذا كان شقيقُها قد دفَنَ ماضيه، بل ماضيهما.

****

قال ليث بهدوء وهو يمشي ذهاباً وإياباً تحت ضوءِ المشعلِ الوامضِ في تلك الغرفةِ تحتَ الأرض: "من جهة، كانت المهمّة التي تمّت بعدَ ظهرِ هذا اليومِ ناجحة. لقد عدنا جميعاً، ولم يكتشف هوياتنا أحدٌ، على حَدِّ علمنا. أمّا من نواحٍ أخرى ..." وصمتَ وتفرّسَ في وجوههم سبعاً سبعاً ثمّ زأر: "*فقد كانت فشلاً ذريعاً*".

تلاشى الصدى. وانطلقت أنّةٌ من جسّاس وهو مستلقٍ على مرتبةٍ من القَشّ في الزاوية.

وتابع ليث: "ربّما يكون لديكَ، يا جسّاس، في الحقيقة بعض العذرِ لفشلك في القضاء على الرجل العجوز. لقد كان هدفاً سهلاً، ولكنّه تمتَّع بحراسةٍ جيّدة. أعترف أن الخطأ كان جزئياً منّي. فقد كان عليَّ التخلّصَ من العبدِ الأسوَد أوّلاً. أمّا أنتَ، يا ضِرغام ..." وارتجف الشابّ هنا بوضوح "فما الذي أستطيع قوله؟ ربّما ما زلتَ تستعمل حفَّاضات الأطفال بعد، ولكنّ قتلَ جارية مجرّد لعبِ أطفال. خاصّة عندما يكون لديكَ خنجرٌ مسمومٌ بمركّب من خانق الذئاب والإستركنين. كلّ ما كان عليكَ فعله هو وخز لحمها، لم أطلب منكَ نزع أحشائِها في منتصف السوق". حدَّقوا جميعاً في الصبي، وكان وجههُ قِرمِزيّاً عديم الشكل في ضوء الشعلة.

وتابع ليث وهو لا يزال يمشي: "طيّب، والآن نأتي إلى أخينا حَطّام، المشهور بالحِدَّة، إن لم أقل العنف، في حماسه لقضيّتنا المقدّسة. ولهذا جعلتُ ضحيتَه ذلك الجاسوس ...".

صرخ حَطّام: "يا شيخ ليث، أنا فعلتُ ما ...".

"اخرس!" وتفرّسَ ليث في قناع حَطّام من الغضب الذي لفّ وجهه، ثمّ تحدّث بهدوء وهو يهزّ رأسه. "لقد خذلتَني أنتَ أيضاً، يا حَطّام".

****

ولهذا السبب عرفَت قدما لبنى إلى أين ستأخذانها هذه المرّة. لتكونَ مع عليّ، نعم. ولكن، أيضاً لأن هذا المكان كان هو الرابطُ الوحيدُ مع أخيها الحيّ.

ثمّ أدركتِ الواقع المظلمَ الذي طفَت عليه قشَّةُ الأمل، وتذكّرَت ملابسَ خايمي الرثّة، ونظرتَهُ المملوءة بالخوف الذي لا يمكن وصفه، وأدركت أنَّ شقيقَها كان ميتاً أيضاً. وضعت رأسَها على قبرِ عليّ وتساءلت عمّا ستفعلهُ إذا عاد شبح خايمي الغاضب ليطاردها حقّاً.

جثّةُ حبيبها، والشبحُ الحيّ لأخيها ... كان يمكن للبنى في ظروف أخرى أن تبتسم لهذه الصحبة التي تبحثُ عنها.

لم تكن تعرف مدى قرب خايمي منها، هناك على بُعد مسافة قصيرة جرداء، وسط مجموعة من الشجيرات بجوار الطريق الآتي من قصر الحمراء، أو أن آخر ما فكّرَ فيه كان هي، أختُه، أو كيفَ كان مستلقياً الآن هناك ورأسه شبه مفصول عن جسده تقريباً.

****

واجَهَ ليث حَطّام. وكانت آثار دماء المملوك المتخثّرة لا تزال على يدَي الرجل ووجهه. "لقد شرحتُ لكَ بأوضحِ الكلماتِ الممكنةِ، يا حَطّام" وأخذ يتحدّثُ الآن ببطء. لقد قلتُ: "اطعَنهُ. سوف يخدّرُ السمُّ منطقةَ الجرح على الفور تقريباً. وسوف يُرعبُ هذا الخدَر الرجلَ الشجاعَ ويجعلُه عاجزاً. وينتشر بسرعة. ثمّ تأتيه بعد ذلك نار مشتعلة تجعلُه يتوسّلُ الرحمة. وعندما يفعل ذلك، أخرِج القارورةَ الفارغةَ الصغيرة التي أعطاكَ إيّاها حيدر. وأخبرهُ أنه التِّرياق. وقل له إنكَ سوفَ تعطيهِ إيّاه إذا ما أخبركَ مَن أرسَلَهُ، ودائماً

ما يعترفُ الجميع. ثمّ بعد أن يُخبركَ بذلك، تقضي عليه. أو تشاهده وهو يموت. لقد ظننتُ أنكَ ربّما سوف تستمع بذلك ... هذا ما قلتُهُ لكَ، يا حَطّام. ليس من الضروري أن تتمتّعَ بعقلِ حيدر أو صارم لفهم مثل تلك التعليمات". وطقطقت الشعلة. "لم أقل لكَ أن تقطعَ رأسَه".

كان حَطّام يتجهّم بصمت على أرضية الكهف، ثمّ انتفض فجأة: "وماذا عنكَ، يا شيخ ليث؟ ماذا عن العبدِ الأسوَد الذي كُلِّفتَ به؟"

حدّقت السِّباع الآخرين كلّها في حَطّام، مصدومين من الحقد الذي ظهر في صوته.

حاول ليث الردّ عليه بنظرة خضراء قاسية. "العبد الأسود ... قد تغلّب عليّ".

فابتسمَ حَطّام.

قال ليث: "أنتَ لا تعرفُ كيف هم السّود، ولا تعرفُ قوّتَهم" وجالَ بنظرِهِ بين السِّباع وأدركَ لأوّل مرّة أنه أمام خطر فقدانهم. "انظر ماذا فعلَ بجسّاس هناك! لقد كاد أن يشلعَ ذراعَهُ من مفصلها بيدَيه العاريتَين ...".

لم تنظر السِّباع إلى جسّاس، بل أبقوا أعينهم على ليث. وكان كلّ شيء ينهار.

ثمّ سمعَ ليث صوتاً من مدخل الغرفة الجانبية التي يوجد بها المختبر. كان السبعُ الوحيد، إلى جانب جسّاس المصاب، الذي لم يشارك في كابوس اللقاء: هو حيدر.

"شيخ ليث!" شيخ ليث!" كاد العالِمُ أن يرقصَ في الغرفة الرئيسة. "لقد حللتُ الأمر!" حَدّقوا جميعاً في حيدر الآن. "تلك الأبيات في شِعر الخيميائي، لقد عرفتُ معناها".

الفصل الحادي والعشرون

سمعَ إبراهيم بن زَرزَر الصوت يخرج من النار الداخلية للورشة: "آه، الزبون اليهودي ... جاء من أجل .." وتنحنحَ "نعم، ياقوتته" وظهرَ وجهُ الزَجَّاجِ المستديرِ واللامع في المدخل. وقال بحزن: "لقد كسرتهُا، سعادتُكَ".

فحدّقَ به إبراهيم مندهشاً.

ابتسم الزجّاج: "لا تقلق، يا سيّدي، لا أعني أنني قد كسَرتُها حرفياً!" وأخذَ يضحك، هذه مجرّد نكتةٍ صغيرة في مهنتنا ... انتظر، يا صاحب السعادة، وسوف أجلبها على الفور. كرّرَ مع نفسِهِ "لقد كسرتُها ..." واختفى في الغرفة الداخلية. "لطالما فاجأتهُم هذه النكتة".

ابتعد إبراهيم عن الحرارةِ المنبعثةِ من الورشة التي لا تظهر بأكملها، وتفحّصَ عيّناتٍ من الزجاجِ الملوَّنِ موضوعةً في فتحاتٍ عاليةٍ فوق باب الشارع. لقد صنعت اللوحات ببراعة، ولكن، مع صليب كريستوبال الصائغ وهذا كلّه الذي أمامه الآن، كان قد شَبِعَ من الأيقونات المسيحية المرعبة خلال الأسبوع الماضي. وبدا أن ضوء إشبيلِيَة في المساء يضفي حياةً مروّعةً على المشاهِد: دمٌ متدفّقٌ من عنقِ شهيدٍ مقطوعِ الرأس، وملكٌ بلحيةٍ مشوّكة يُدعى "هيرودس"، يشرف على ذبح الأبرياء (فكّرَ إبراهيم بابتسامةٍ متجهّمةٍ، ربّما كان شكل هيرودس مقتبساً من سليمان تاجر الأحجار الكريمة)، خطاةٌ عراةٌ يُساقون إلى نار جهنّم، عفريت بقرون يضحك. وحوّلَ إبراهيم ناظرَيهِ بعيداً في اشمئزاز. كانت هذه مجرّد لوحات

فظّة ووحشية وبربرية الذوق، رغم المهارة الشديدة في تنفيذها، مقارنة بالمساحات الرائعة والبعيدة عن الأيقونات في قصر دون بِدرو ذي الطابع المغاربي.

سمعَ الزَجّاجَ يعودُ فاستدار ليرى وهجاً أحمر مرفوعاً بين أصابعه، محصوراً بين ضوء النار من الداخل وأشعَّة الشمس القادمة من الشارع. كان لونه أحمر كثيفاً ومشبعاً، وليس الأحمر الغامق للنحاس ولا الأحمر الداكن للذهب، بل لون أكثرَ ثراءً من أيٍّ منهما، وبدا أنه يشعُّ وينبض بنار داخلية. وتذكَّر تعليق سليمان على القطعة الأصلية: "دم ... *وذلك الحجر كان مضمّخا بالدماء*".

قال الزَجَّاجُ: "كما ترى، يا سيّدي، لقد كنتُ أقوم بالتجارب. وأعتقد أنني توصّلتُ إلى المطلوب. نظراً لأن سعادتكَ لا تستطيع أن تتذكّر درجة اللون بدقّة، فقد توصّلتُ إلى درجة متوسّطة بين الأحمر النحاسي والأحمر الذهبي. درجة لون جديدة، مع تركيز خاصّ بها، وهذا رأيي الشخصي بالطبع. والآن، يا سيّدي" ورفع يده "لا تسألني كيف! فهذا سرّ المهنة ...".

ولم يكن لدى إبراهيم أيّ نيّةٍ للسؤال. "وماذا عن الشكل؟"

أخرجَ صانعُ الزجاج صندوقَ الصائغ كريستوبال من أحدِ الرفوف، وفتحَهُ ووضعَ القطعة المزيّفة بجانب القالب الشمعي للياقوتة الحقيقية. "أعتقدُ أنكَ ستوافقني الرأي، يا سيّدي، على أنها نسخةٌ طبق الأصل قريبة من الكمال بقدر ما يمكن أن تصنَعها الأيدي البشرية. وأضافَ بصوتٍ خفيض: "وبالمناسبة، يا سيّدي، لا داعي للخوف ... أعني، *لم يطرح أحدٌ أيّ سؤال* ...".

فتجاهله إبراهيم وتفحّصَ النسختَين، ونظرَ إليهما من كلّ زاويةٍ ممكنة. لقد كانتا متطابقتَينِ في الشكل، وصولاً إلى الزائدة المميّزة على شكلِ

دمعةٍ على وجهِ كلّ منهما. وتذكّرَ مرّة أخرى كلماتِ سليمان "... كأنها تبكي على الشرّ الكامن فيها ...".

نظر إلى وَجهِ الزَّجّاج الذي ينتظرُ ردَّ فعله، وأومأ برأسِه. واعترفَ لنفسِهِ بأن التزييف كان أفضلَ ممّا كان يتمنّاه، وقد أصبحَ جاهزاً مع وفرةٍ من الوقت أيضاً. لقد تحدَّدَ موعدُ مغادرتِه إلى غَرنَاطَة، برفقةِ أعضاءٍ في السفارة أقلّ مستوى منه، وبرفقةِ سربٍ من سلاح الفرسان، في صباحِ بعدَ غدٍ. سوف يستغرقون أسبوعاً من السفر للوصول إلى موطنه القديم، غَرنَاطَة، وسيكونُ لديهم يومٌ ليرتاحوا فيه من وعثاءِ الطريق قبل حفلِ عرضِ الياقوتة في عيدِ المولدِ النبويّ عند المسلمين.

كان إبراهيم يلعن لسانه الغبي منذ أن اقترح فكرة الخداع والغشّ على دون بِدرو. حتّى في نومه كانت تطاردهُ كوابيسُ مخيفةٌ عن اليوم الذي سيضطرُّ فيه إلى تسليمِ النسخةِ المزيّفةِ إلى سيّدهِ القديم السلطان محمّد. نظر إلى الياقوتة الآن، وتخيَّلَها على قماشِ المُخمَل المصري الأسود في الصندوق الأنيق المصنوع من الفضّة المذهّبة، والأصليّ دون شكّ، والذي يحمل شعاراتٍ عربيةٍ عن الصداقة بين المَلِكَين، والذي قال كريستوبال إنّهُ سيكونُ جاهزاً في الغد. ورأى نفسه ينحني ليقبّلَ يدَ السلطان، ثمّ يقدّم له بتواضعٍ عربون هذه المحبّة الأبدية بين قصر المورَّق وقصر الحمراء. ورأى أن هذه الكتلة الزجاجية المتلألئة هي التعويذة التي ستحمي عرشَ دون بِدرو، وفي نهاية المطاف، الوجودَ الإسلاميّ بأكمَلِه في الأندلس.

"*ماحقة*، أليسَ كذلك سموّكَ؟ هكذا نقول في مهنتنا! *ماحقة*، ها ها..".

نظرَ إبراهيم إلى وجهِ صانعِ الزجاجِ المبتسم. ومدَّ يدَهُ إلى الياقوتة، نعم، لقد أصبح يفكّر فيها على أنها الياقوتة الآن، وشعرَ بسعادةٍ غامرةٍ من روعةِ التزييف الذي ارتكبَهُ.

ثمّ أخذَها وانتابه شعورٌ مفاجئٌ وكأنَّ أحشاءه قد سقطت من جسمه.

لن يتمكّنَ من خداعِ أحد. ناهيكَ عن عاشقٍ كبيرٍ للأحجارِ الكريمة مثل السلطان محمّد. كان هناك القليلُ من الدفءِ في راحةِ يدِهِ، مع رطوبةٍ، بل شبه لزوجةٍ مثل حلوى السُّكَّر. والأسوأ من ذلك الوزن ... لم يكن إبراهيم يعرف على وجه التحديد ملمس ووزن الـ 170 قيراطاً. ولكنه أدركَ رغم ذلك أنه لا بدّ أن يكون وزنه ... ماذا؟ زائداً على وزن هذه النسخة المزيَّفَة بالنِّصف.

لا: باستثناء شكل هذه الحلية، فإن هذا الشيء التافه لن يخدع طفلاً حتّى. وقد فات الأوان لفعلِ أيّ شيءٍ حيالَ ذلك.

راقبه الزَّجَّاجُ رافعاً حاجبَيه وقد لوّنَ فَمَهُ ابتسامةً مترقّبةً، بانتظار الكلمة الأخيرة بالموافقة والاستحسان من زبونه.

استدارَ إبراهيم ونظرَ إلى العفريتِ الضاحكِ ومشاهدِ قطعِ الرؤوس ونارِ جهنّم، وتساءل كيف ستنتهي رحلتُه إلى غَرنَاطَة.

الفصل الثاني والعشرون

قال أبو عبد الله: بربِّكَ، يا سِنَان. انظر دائماً إلى الجانب المشرق".

كاد سِنَان أن يسمح لنفسه بالانقضاض على سيّده. ولكنه تحمّلَ بدلاً من ذلك الألم المدوِّي في صمت، وواصلَ التحديق عبر النافذةِ ذات القضبان، عبر الوادي وظلالِهِ المتدفِّقَةِ عند قصر الحمراء، الذي أصبح أبيض اللون في هذا الضوء المحتضر. ارتجفَ المشهدُ بأكمَلِهِ وتشوَّشَ أمامَه. لقد أثرّت الضربةُ على بَصَرِه.

تابع أبو عبد الله: "انظر، ربمّا نكونُ في السجن، ولكنَّه على الأقلّ سجنٌ يتمتّع بإطلالةٍ خلَّابة، كما أنكَ تعلم قول الله تعالى في القرآن الكريم: " *وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً* ...".

قال سِنَان: " *وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ* ... سورة البقرة، الآية 216". والتفتَ إلى سيّدِهِ ونظرَ إليه من عالمه البعيد، وكانت الظلال على وجهه قد أصبحت أكثر قتامةً في الشَّفَق.

"أعتقدُ أنكَ دقيقٌ للغاية في استذكارِ المراجِعِ، يا بُني. وبالمناسبة، تبدو جذّاباً للغاية في تلك الضِّمادة، حتّى مع بقع الدم ..." وأضاف بنبرة هادئة: "ربمّا من الغريب قولُ ذلك، ولكنني لستُ متفاجئاً من إعجابِها بكَ".

التفتَ سِنَان ونظرَ إلى آخرِ خطوطِ الشرفةِ المعتِمة. واخترقتِ الصمتَ من مكانٍ قريبٍ صرخةٌ طويلة. فاتّحَدَ الغثيان مع الألم: لم يكن هذا مكاناً للحبسِ فحسب، بل للتعذيبِ أيضاً.

قال سيّدُهُ متجاهلاً الصوت: "أتعلم، لم أفكّر أبداً فيكِ كشيءٍ يجذبُ الجنسَ اللطيف، ربمّا من الأفضل أن أضعَ الخطّةَ البديلة موضِعَ التنفيذ ...".

نظر سِنَان حوله ورفع حاجبَيه مذهولاً. *يا إلهي، حتّى رفعُ الحاجبَين كان مؤلماً.*

"... أو ينبغي أن أقولَ، تلك العملية، الجراحةُ التجميليةُ الصغيرةُ التي ربمّا اقترحتُها من قبل. كما ترى، فقد اكتشفت السعر الحالي للخصيان. قد تُعوِّضُ قدراتُكَ الكتابية عن لونكَ غير العصري". ثمّ رفعَ يدَهُ "لا تأخذِ الأمر على محملٍ شخصيّ، يا غلامي العزيز، فالموضوع ببساطة أنه منذ مقتل والد السلطان، لم يعد اللونُ الأسوَدُ هو لون العبيدِ هنا في غرنَاطَة".

شاهدَ سِنَان سيّدَهُ يضحكُ بصمت.

رنّت صرخةٌ أخرى، مثل صرخة الطاووس، وانتهت بغرغرةٍ خانقة.

ذابت البسمةُ من وجهِ أبي عبد الله "تعلم جيّداً، أيا سِنَان، أنني أموت قبل أن أبيعكَ. وعندما أموت سوف تكون حُرّاً في وصيَّتي. هذا ما سيحدث ... أمّا ما سيحدث من الآن إلى حينها، فالله وحده أعلم. هذا إذا خرَجَ أحدُنا من هنا حيّاً".

قال سِنَان بجدّية: "هيَّا، يا مولاي. انظر دائماً إلى الجانبِ المُشرق".

ابتسمَ أبو عبد الله. "طيّب، لنفترض أننا خرجنا من هنا، ناقصَينِ بضعةَ أظافر أو أيّ شيءٍ آخر. لا تزال أمامنا تلك المشكلةُ الصغيرةُ الأخرى ... فأنتَ تعرفُ مثلي وضعَنا المالي. نحن لا نمتلك شيئاً. صفر. يا إلهي، لماذا كان على هؤلاء الهنود الأذكياء اختراعَ هذا الرَّقْم اللعين؟ وليسَ من الضروري أن أخبركَ أن وزارَتي قد تحوَّلَت إلى مجرّد دُخان. وتلاشَت معها وظيفتُكَ ككاتب سرّ. أعني أن هناك شخصاً واحداً فقط كان بإمكانه أن

يُوقِعَنا بهذه الطريقة. سماحةُ الراعي العظيم الذي كان مستقبلُنا يعتمدُ عليه، صديقي القديم لسان ...".

انطلقَ صوتُ فتحِ قفلِ الباب ثمّ صريره وفتحُه. وظهرَ مصباحُ زيتٍ من الظلام، يحمِلُهُ شخصٌ ضخمٌ يرتدي رداءً وزيرياً عظيماً. "لسان ... الدين! والله، يا لسان الدين، ليطولَ عمرُكَ إذا كانت تلكَ الخرافةُ القديمةُ صحيحة! لقد جئتَ في الوقتِ المناسبِ حقّاً"!

قال الوزيرُ واضعاً يدَهُ على كتفِ الرجلِ النحيل: "عزيزي، أبا عبد الله ... سامحني، وأنتَ، أيضاً، يا سِنَان. لم أقصد أن يستخدموا القوّة معَكُما. ولكنَّ رجالَ صاحبِ الليل ليسوا معروفين بدقَّتِهِم، وبسبب مظهرِكَ غير المعتاد، خافوا وضربوا على نحو استباقي عندما رأوكَ. لا يسعني إلّا أن أتمنّى أن يكون كلاكما بأحسنِ حالٍ قدر الإمكان في ظلِّ هذه الظروف" ووضَعَ المصباحَ في كوَّة النافذة.

قال أبو عبد الله: "كنتُ أخبرُ سِنَاناً للتوّ، إنها على الأقلّ زنزانة تتمتّعُ بإطلالةٍ وتحتوي على مراحيض خاصّة أيضاً. ليس لدينا أيّ شكاوى حتّى الآن ..." اخترقتِ الهواءَ صرخةٌ أخرى قريبة، أشبهُ بضحكةِ ضبعٍ نصفِ بشرية. "والسجناءُ الآخرون يتمتّعونَ بروحٍ معنويةٍ عاليةٍ بعضَ الشيء، رغم ...".

فابتسم لسان الدين. "أنتَ لستَ في السجن، يا صديقي. أنتَ في مارستان البيَازِين".

قال سِنَان: "مارستان، يا سيّدي؟ أتقصد مستشفى؟"

"بالضبط. لم تمرّ فترة طويلة على افتتاحِه. إنهُ طفلٌ آخر من أطفالي. أنتُم الآن في جناحِ الطبِّ النفسي الآمن، في إحدى الغرف العليا، ويجبُ أن أضيفُ، المخصّصة للنُزلاءِ المتميّزين. كان هذا أقلّ ما يمكنني فعلُه.

وسيكونُ لديكَ أيضاً مجموعةٌ من الموسيقيّين الذين يعزفونَ لكَ في فِناء *الإيوان* غداً. بعض الأعواد والرباب الدفوف. لا شيءَ مثيرٌ بالطبع".

"موسيقيون، يا سيّدي، في المستشفى؟"

"بالطبع، يا سِنَان. وذلك كلّه جزءٌ من العلاج. وقد أكّدَ جالينوس، والفارابي، وابن سينا، والفلاسفة والأطبّاء الكِبار كلّهم على أهميّة الموسيقى في إعادةِ التوازنِ إلى الأمزجةِ غير المتوازنة".

قال أبو عبد الله: "لا أريدُ أن أبدو جاحداً، ولكنَّ مزاجي متوازنٌ تماماً، وقد كانَ كذلك دائماً. أمّا بالنسبة إلى سِنَان، فقد يكونُ عرضةً لنوبةٍ غريبةٍ من الإثارةِ المفرطة، أتتهُ من ولادتِهِ في تلك المنطقة المحمومة، أو ينبغي أن أقولَ المنطقة المجنونة، كما تعلم، ولكن، يبدو أن تلكَ الضربة على الرأسِ قد وَضَعَتِ الأمور في نصابِها الصحيح في الوقتِ الحالي. ما أعنيه، يا لسان الدين، أننا لسنا مجنونَين، بل لسنا من المجانين المتميّزين أو المتفوّقِين حتّى، *فلماذا نحن هنا*؟"

طوى الوزير ذراعَيه المُطرَّزَتَين. "لا أعرفُ تماماً كيفَ سأخبرُكَ بذلك ... لنقل إنّهُ قد وجبَ عليَّ إخراجَكَ من المشهدِ، على الأقلّ مؤقّتاً. إلى ما بعد المولد النبوي".

"ولكن، *لماذا*؟ ما الذي يفترض أننا فعلناه؟ هيَّا بربِّكَ، لقد كنّا ضحايا محاولة قتل! أنتَ تعرف ذلك، أليس كذلك؟"

"عزيزي أبو عبد الله، أنا وزير غرناطَة. أنا أعرف كلّ شيء" ونظر إلى عينَي صديقه "وأشكرُ الله على نجاتِكَ من الموت. ولكن، هناكَ مسألةٌ أخرى ... اسمح لي أن أتحدّثَ بصراحةٍ دونَ لفٍّ ودوران: لقد شوهدتَ تزورُ منطقةَ اللقاءِ السرّيّ للمتآمرين العازمين على سرقةِ الكنزِ السلطاني".

نظرَ أبو عبد الله إلى صديقِه. "ماذا؟"

"ذلكَ الكهفُ الذي فوق مقبرة البَيَازِين ... وقد كانَ تحتَ المراقبة. لقد شوهدتَ أنتَ وسِنَان ليسَ فقط في أثناء دخولكَ إليه، بل كنتُما أيضاً تفتّشانِه بدقّةٍ كبيرة".

"ولكن، يا لسانَ الدين، أستطيعُ أن أشرحَ أنني كنتُ أحاولُ مساعدةَ ... شخصٍ ما ..." وكان صوتُ أبي عبد الله قد جفّ في فَمِه.

ومرّة أخرى وضعَ الوزيرُ يداً ثقيلةً على كتفِ صديقِه.

"لا حاجةَ للشرحِ، يا صديقي. أعلمُ أنكَ بريء، على الأقلّ بريء من ارتكاب أيّ خطأ، مهما كان الشيء الآخر الذي تعتبر مذنباً به. ولكنَّ هذا ليس هو الاعتقاد السائد في بعض الأوساط. وأنا لا أرغب في الواقع بإخباركَ بهذا، ولكنني أخشى أنني مضطرّ لذلك، لقد بثَّ أحدُهُم السمومَ ضدّكَ على مسامعِ جلالته".

اتّسَعَت عينا أبي عبد الله غيرَ مصدّقٍ ما سَمِعَهُ: "السلطان؟" فأومأ لسانُ الدين برأسِه. "اللعنة، يا سِنَان، لقد غصنا في مستنقع".

قال لسانُ الدين بهدوء: "مستنقعٌ أعمقُ ممّا تتصوّر. أتعرفُ أن العميلَ الذي أبلَغَ عن زيارَتكَ للكهف قد عُثِرَ عليه بعد وقتٍ قصيرٍ من عودَتِهِ من هناك، مقتولاً".

وهذه المرَّة ضَحِكَ أبو عبد الله. "هيَّا، يا لسان الدين، لقد وصلتَ بطُرفَتِكَ إلى حَدّها الأقصى. هل تريدُ منّي أن أصدّقَ أننا مشتبهٌ بنا بقتلِ عميل من عملاء السلطان؟ دعكَ من التهمة الأخرى".

هزَّ الوزير رأسَهُ الثقيل. "أخشى أنكَ موضعُ شكٍّ كبير. إذا سمحتَ لي أن ألعبَ دورَ ما يسمّيه النصارى advocatus diaboli، محامي الشيطان، سأقول إنكَ المشتبه به الرئيس. يُعتقَد أنه كان لديكَ دافعٌ مرتبطٌ

بزيارتِكَ للكهف. فأنتَ كنتَ في المكانِ المناسبِ في الوقتِ المناسب. ويا صديقي العزيز، من المؤكّد أنكَ تمتلكُ السّلاح".

قال أبو عبد الله وهو يلتفت إلى عبده: "سِنَان، من فضلكَ، قل لي إنَّ هذا كلّهُ مجرّد كابوس".

كرَّرَ الوزيرُ بهدوء: "لديكَ السلاح. والسلاحُ معكَ هنا الآن. بينما أتحدّثُ إليكم الآن. بالجُرمِ المشهود".

لقد فَقَدَ أبو عبد الله القدرةَ على الكلام. فسألَ سِنَاناً نيابةً عنه. "أيُّ سلاحٍ هذا، يا سيّدي؟"

"أنتَ، يا سِنَان".

اخترقَ أنينٌ حيواني طويلٌ الصمتَ عبر النافذة. كان صوتَ الألمِ البشريّ الذي لا يوصف.

أغمضَ لسانُ الدين عينَيه. "هناكَ عدة عشرات من الناس، المستعدّين ليشهَدوا على قوَّتِكَ غير العادية، يا سِنَان. لقد رأوكَ جميعاً تمزِّقُ ذراعَ رجلٍ وتشلعُها من مفصَلِها. بل إن البعض قال إنكَ مزَّقتَ ذراعه، ولوّحتَ به كالهراوة، ومضغتَ لحمَهُ، ونحو ذلك من الهراء. النقطةُ المهمّة هي أنَّ العميلَ المقتولَ قُتل على يدِ شخصٍ يمتلكُ قوّةً غيرَ عاديّة مماثلة، أي شخصٍ يتمتّعُ بالفطرةِ بالعُنفِ الوحشيّ".

نظر سِنَان إلى الوزير في ضوء المصباح.

"أكرّرُ، أعلمُ أنكَ بريء. كلاكُما في الحقيقة. ولكنَّ كثيرينَ آخرينَ لا يعتقدون ذلك. ومنهم كما قلتُ السلطان نفسه حفظَهُ الله ورعاه ... وهناكَ المزيد من الأشياءِ التي ينبغي تقييمِها. وصلتِ التوتّراتُ في قصر الحمراء إلى درجةِ الحُمّى مع الاحتفال القادمِ بالمولدِ النبويّ. وتابعَ لسانُ

الدين بصوتٍ خافت: "فبعضُ الناسِ سوف يسعدُهُم فشلُ الاحتفال، وعلى وجهِ الخصوص، شخصٌ معيّنٌ لديه مخطّطاتِه للوصول إلى منصب الوزير".

همسَ أبو عبد الله: "كاتب السرّ السلطاني، ابن زَمرَك؟".

فبدا لسان الدين متجهّماً. "إذا تحققت هذهِ المخطّطات، فإن حياتكُما ستكون في خطرٍ حقيقي. سوف تكونان بأمان ..." رفعَ رأسَهُ "طالما بقيتُ الوزير، وسأظلُّ كذلك بفضلِ الله". ورأى سِنَان أن صوت لسان الدين كان يفتقر لأوّل مرّة إلى القناعة الكاملة. وأضافَ بصوتٍ هامسٍ الآن، وهو ينظر إلى سِنَان: "ادعُ الله لبقاء هذه الفضل، يا صديقي، يا صديقَيّ. الله أعلم، فربّما تُستجاب أدعية العبد عندما لا تُسمعُ توسّلاتُ الأحرار".

جاءت صرخةُ أليمة أخرى من زنزانةٍ مجاورة. وظهرت ابتسامةٌ قاتمةٌ على وجهِ الوزير. "في الوقت الحاليّ، فكِّر في الأمر باعتبارِهِ نقاهة، إذا كانت هذه هي العبارة المستخدمة في هذه الحالة" وصفّق بيدَيه.

جاء اثنان من العبيد الإسبان حاملَينِ صندوقاً. وأوضح لسان الدين: "هذه أمتعتكما الشخصية. و.." ودخل عبد ثالثٌ ومعهُ رقعةُ شطرنجٍ وصندوقُ شطرنجٍ ومصباحٌ آخر" ... شيء يساعدكَ خلالَ إجازتِكَ غير الطوعية. آملُ أن يكونَ الطعامُ حسب رغبتِكَ. وضعتُ الوصفات جميعها، بل وجدول قوائمِ الطعام بأكملِهِ، وَفْقَاً لأدقّ مبادئ علم التغذية الجالينوسي، كما شرحها الرازي"، ثمّ نهض قائلاً: "والآن اسمحوا لي. لا أتوقّعُ أن أراكَ إلّا بعد المولد النبوي وعودة الياقوتة". فعانقَ أبا عبد الله في حضنٍ قصيرٍ، ثمّ أمالَ رأسَهُ إلى سِنَان. كانت عينا الوزير مشرقتَين على نحو غيرِ طبيعي في ضوء المصباح، لقد وجدهما سِنَان مشرقتَين ومغرورقتَين.

توقّفَ بجسدِهِ الضخمِ عندَ المدخل، ثمّ عادَ إلى الوراء. "مرّة أخرى

أطلبُ منكما، أن تدعُوا لي. ادعُوَا لكي يسيرَ كلُّ شيءٍ كما ينبغي. فليسِ مستقبلي ومستقبلكَ وحدَه هو الذي يتوقّف على الأسبوع المقبلِ وذروتِه بالغةِ الأهمّية، بل مستقبلِ العرشَين أيضاً ... وربمّا حتّى مصيرِ الإسلامِ في الأندلس".

أُغلق الباب وانزلقَ المزلاجُ. جلسَ سِنَان وأبو عبد الله صامتَين. كان كلّ شيءٍ مظلماً الآن خارج بركة ضوء المصباح الذي كان يهتزّ كما لو كان يتلاشى لينتشر على الظلال. أرادَ كلُّ رجلٍ منهما ألّا يتحدّث عن محنتِهِ.

قال أبو عبد الله أخيراً: "حسناً، هيَّا، يا فتى، جَهِّز رقعةَ الشطرنج".

أخذَ سِنَان قِطَعَ الشطرنج من الصندوقِ ببطءٍ، فأيّ حركةٍ مفاجِئةٍ تجعلُ الدمَ يتدفّق مثل النارِ المنصهرةِ عبرَ صدغَيه. فبدأ بالمَلِكَين، ثمّ وضعَ بجانبِ كلٍّ منهما وزيراً. وقالَ مصحوباً بآلامه: "أليس من الغريب، يا مولايَ، أن تعكِسَ اللعبةُ الحياة على نحوٍ دقيق. فالمَلِكُ بالكاد يتحرّك، ووزيرُه هو العنصرُ الفاعل، الذي يتحرّكُ في الاتِّجاهات كلِّها. وحتّى أدنى الرجال، إذا بذَلَ نفسَهُ، يمكنُه أن يصبح وزيراً".

قال أبو عبد الله بابتسامةٍ قاتمة: "ابن زَمرَك".

تصوّرَ سِنَان كاتب السرّ السلطاني وهو يخرجُ من الظلّ، وارتعشَ من الصورة، أشبهَ بجيفةٍ دُهنيّة. خطرت في بالِه ذكرى مفاجئة، عندما قرأ في مكانٍ ما عن جثثٍ مدفونةٍ تنضحُ منها الدّهون: كان يُطلَق عليها اسم شمع القبر.

قالَ أبو عبد الله بينما كان سِنَان يرتّبُ قِطَعَ الشطرنج: "لندعُ الله ألّا يسقطَ لسانُ الدين، ولكن، رَكِّز جيّداً، فقد أغلبكُ ولو لمرّة، وعقلكَ مشوّشٌ بسببِ تلكَ الضربة". وحرّك جندياً عاجياً إلى الأمام. "إذن، جَهِّز نفسَكَ، أيُّها السيّدُ المعجزة الأبنوسية".

هاجمَهُ أبو عبد الله مباشرة. فردَّ سِنَان بحركاتٍ دفاعيةٍ متقطّعةٍ، وأخذَ وميضُ اللونَين الأسود والأبيض المتبدّلَين يلتمعان في وميضِ المصباحِ المتقطِّع. لم يكن حقَّاً في مزاجٍ مناسبٍ لِلَّعب. ولا يتعلَّقُ الأمر بكونِ دماغِهِ يغلي. بل يبدو أن عقلَهُ كانَ في مكانٍ آخر.

"ها هو" وأخذ أبو عبد الله أوَّلَ جنديٍّ أسود. "هذا يُحدِث تغييراً لخوض المعركة على أرضٍ مستوية".

أرسلَ سِنَان أحدَ أفيالِهِ في طلعةِ غارةٍ متهوّرةٍ، وهو ينظرُ إلى القطعة التي أخذها حصانُ سيِّدِه. ثمّ فَقَدَ جنديَّين آخرَين في حركتَين متتابعتَين سريعتَين.

قال أبو عبد الله بابتهاجٍ وهو يفركُ يدَيه ببعضِهما: "يا إلهي، كأن عقلكَ غائب حقَّاً. سوف يعتقد أيّ شخص أنكَ قد غيّرتَ موقفكَ. إن كنتَ قد نسيتَ، فأنتَ أسود، يا سِنَان، وأنا أبيض، كما كنّا دائماً، منذ أن كنت حتّى بطول خمسة أشبار ...".

صاح سِنَان: "هذا هو الأمر برُمّته، يا مولاي. أبيض وأسود، وأصفر!"

بدا أبو عبد الله في حَيرةٍ من أمره.

"ألَا تتذكّر، قبل أن يهاجمونا في السوق، كنتَ تتحدّثُ عن الصين، وتلكَ السهام النارية، وكيف يتمُّ تصنيعُها؟"

"أتذكّر بالفعل، يا سِنَان. ولكنني لم أُولَد بالأمس، وإذا كنتَ تعتقدُ أنكَ ستتمكّن من إيقافي عن هجومي في اللعبة بالدردشة الفارغة، فأخبرني ..." وقام بنقلِ قلعة إلى أعلى مربَّع في الرقعةِ، وزرعَها هناكَ منتصراً. "هيَّا، ماذا ستفعل حيالَ ذلك؟!".

تجاهلهُ سِنَان "وكما ترى، يا مولاي، ليس المكان الذي تنظر إليه هو المهمّ، بل كيف تنظر".

انظر، يا بني، قال له والدُه الميت من بعيدٍ في تلك الحياة الأخرى، بذلك اللسان الآخر. *انظر من كلّ زاوية حتّى يضرب الضوء الآثار*.

"هيَّا، توقَّف عن الفلسفة، يا فتى، وتابِع حركاتِكَ".

"ولكنها فلسفتُكَ أنتَ، يا مولاي، والتي قُلتَها في الكهف".

"باركَني الله، لقد فعلتُ حقّاً. ولم يقل أحدٌ شيئاً أكثرَ حكمة من هذا. هيَّا، العب! يُفترضُ أن تتحرّكَ في الوقتِ الذي تستغرقُه قراءة الفاتحة".

تجاهلَهُ سِنَان مرّة أخرى. لقد قلتَ: "خليطٌ خيميائي، مكوّنٌ من فحمٍ أسود، وكبريت أصفر، والمادّة البيضاء التي سمّيتَها "الثلج"، المادّة التي قلتَ إنها تأتي من الأقبية والمراحيض. وبعد ذلك، قبل أن يهاجمونا، تذكَّرتَ أمرَ عليّ الخيميائي الذي كان يجمعُ أشياء من مراحيضِ المساجد".

كان أبو عبد الله يحدّقُ في سِنَان. "تابع، يا بنيَّ، لا تُبقِني في حالةِ تأهّبٍ شديدٍ فقط بسببِ لعبةِ الشطرنجِ التافهة".

"فكِّر، يا مولاي. الخيميائي يجمعُ شيئاً ما في المراحيض ... الألوانُ الثلاثة في أبيات الخيميائي ... الإشارات جميعها في البيتِ تشيرُ إلى النار ... أظنّ، لا، بل أنا متأكّدٌ، يا مولاي، أنَّ البيتَ يشرحُ كيفيةَ صنعِ وصفةٍ لل ...".

"للدواء، هذا موجودٌ في القصيدةِ أيضاً، وبالطبع هذا هو الاسم الذي يطلقُه البعض على الأشياء التي يضعونها في تلك الأنابيب التي تُصدر صوت الانفجار! وأذكرُ أنني رأيتُ بعضَهم في اثنتَين وخمسين في حصن جبل طارق، ذلك الجبلُ الكبيرُ الذي هبطنا فيه، بجوار الجزيرة الخضراء، وهو الذي يلتصق بالمضيق. قال القائد: (تعالَ وانظر إلى هذا، أيُّها الرجل العجوز، هذه أحدث التِّقنِيَّات. الأمر سرّيٌّ للغاية. نحن نسمّيها المدافع) كنتُ أعبثُ بإبهامي وهو يشرحُ الأمرَ ثمّ قلتُ: "نعم، هذا شيءٌ معروف.

لقد رأيتُ تلك الأشياء منذ سنواتٍ مضت، عندما كنتُ سفيراً مفوَّضاً لسلطان الهند لدى القان الأعظم في الصين وبلاد الخِطا. وهذا ما حَرَمَ شراعَهُ من الريح، صدّقني، هذا ما حدث. أو ربّما ينبغي أن أقول، حَرَمَ الدواءَ من مدفعه".

وقهقهَ أبو عبد الله في نفسِهِ تحتَ ضوءِ المصباحِ الوامض. أعادتهما صرخةٌ مفاجئةٌ تشبهُ صرخةَ قردِ الغيبون من أحد المجانين إلى تلك اللحظة.

قال سِنَان: "يا مولاي، لنفترض أننا على حقّ في هذا كلّه، فإن ما لا أفهمه هو لماذا قرّرَ الخيميائي إخفاءَ وصفةِ الدواء في قصيدة، أعني إذا كان الجميع يعرف ذلك بالفعل. لقد قلتَ إنّكَ قد سمعتَ عن الدواء في عام اثنين وخمسين. وذلك منذ ستّة عشر عاماً. لا يمكن لهذا أن يبقى سرّاً حتّى اليوم".

"أنتَ محقٌّ في هذا، يا سِنَان ... ولكن، ربّما توصّلَ الخيميائي إلى نوعٍ من الوصفة المحسَّنة للدواء. أعتقدُ أن السرَّ يكمنُ في ذلك الجزء الثاني من القصيدة، الجزءُ الذي يذكُرُ أسماءَ الأماكن. تلك الأماكن الثلاثة هنا في إسبانيا. يا إلهي، ماذا كانت الأبيات؟ لا بدّ أنني قد فقدتُ ذاكرتي".

أغمضَ سِنَان عينَيه وحاولَ سحبَ الأسماءِ من ذاكرتِه الموحِلة، منذُ ظُهرِ ذلك اليوم قبلَ أسبوعٍ في مكتبة الوزير. ولكنَّهُ لن يتذكَّرَ، فقد سَدَّت قضبانُ الألمِ دماغَه.

فتحَ عينَيه، وسقطت نظراتُه على الزاوية التي لم يمسَّها أحدٌ من جانبِهِ على رقعة الشطرنج. "الأسود ... قلعة ... هذا هو، يا مولاي!"

عن أسوَد عن قلعة بطليلطة لا تكثر التسآل كيلا تخسرا

جبَل قادِس يا قمّة مرصودة صفراء أغوت قلبه كي يحذرا

ذا رُجَمُ أرَغونٍ ونورٌ باهرٌ بيض الرؤى من نارِهِ فوقَ الذُّرى

بدا الأسبوع الماضي فجأةً وكأنّهُ فترةٌ هائلةٌ، وكأنهُ هاويةٌ من الزمن. لقد أرهقَهُ جهد التذّكر. تحوَّلَ الألمُ غير المركّز في رأسِهِ الآن إلى نبضٍ إيقاعيّ، بدا وكأنه ينبضُ بتلكَ المقاطعِ الغريبة.

طليطلة ... قادس ... أرغون ...

****

كان ضوءُ المصباح قد استهلكَ نفسَهُ منذ فترة طويلة. لكنَّ أسماءَ الأماكن تلك كانت تنبضُ، وتتآمرُ مع الألمِ الشديد في رأسِ سِنَان، وكانتِ الحصيرةُ الرقيقةُ، والأرضيةُ الصلبةُ تصدُّ أيَّ أملٍ في النوم. وعرَفَ من أنفاسِ أبي عبد الله الخفيفة أنَّ سيّدَهُ كان مستيقظاً أيضاً، فوقَ فراشِهِ العلويّ الفاخر المُدمجِ بالحائط. تنافست كلّ من طليطلة وقادس وأرغون مع صرخاتِ النزلاء الآخرين الليلية.

يتعلَّقُ الموضوعُ بالطريقةِ التي ننظرُ بها.

لقد نظرَ طويلاً، بشدّة لدرجة أنه لم يعد يستطيع رؤية أيّ شيء. *انظر من كلّ زاوية.*

طليطلة ... قادس ... أرغون ... تجوّل عقلهُ للحظة، دون جدوى، حتّى فكّر بالإفطار. وتساءَلَ عمّا سيقدّمونه لهم، عندما يأتي الصباح، وما هي وصفة جالينوسية.

لقد صدَمَهُ الجواب نقياً وواضحاً مثل شعاع القمر المائل عبر القضبان. نادى وهو جالس: "يا مولاي!".

تمتم أبو عبد الله بارتباك: "مَن؟ ماذا؟ الفَجر؟ حقّاً؟ بحقّ السماء، أيُّها الفتى، انظر إلى القمر. لا نزال في منتصف الليل".

"ولكن، ماذا عن بيتَ الشِّعر، يا مولاي. الوصفة. الدواء".

فقال أبو عبد الله في نفسه: "سِنَان، توقَّف عن الهذيان، مسكين لا ينبغي أن أشدّد عليه. لا بدّ أن الأمر متعلّق بتلك الضربة على رأسه".

"ولكن، ألَا تستطيع أن ترى، يا مولاي؟ إذا كانت وصفة، فهناك شيء واحد تحتاجه الوصفات دائماً".

قال أبو عبد الله بوضوح هذه المرّة: "هيَّا، إذن. أوضِح ما تريد".

"يا مولاي، ألَا تذكر أنكَ علّمتَني الأبجدية؟"

الفصل الثالث والعشرون

"إنها الأبجدية!"

حدّقَ السِّباعُ في حيدر. كان الرجلُ الذي اعتادَ قياسَ كلماتِهِ ومشاعرِهِ مثل مساحيقِهِ وأدويتِه، بكمّياتٍ صغيرةٍ دقيقةٍ، يصيحُ فرِحاً ويقفزُ في مكانِه.

"يا شيخ ليث، قصيدة الخيميائي، لقد عرفتُ معناها، أتتذكّر الأبجدية؟"

سادَ صمتٌ وحَيرةٌ، ثمّ تحدّثَ وهو يتلو الأحرف بإيقاع غريب أشبه بالتعويذة "أبجد هوّز حطّي كلمن ...".

حدّق حَطّام الذي لا يزال مغطّى بدماء المملوك في وجهه. "ما هذه التعويذة الشرّيرة؟ أعوذ بالله من سِحركَ!"

ضحك صارم "عزيزي حَطّام، هذا ليس سِحراً" فنظر السِّباع جميعاً إلى صارم الآن. "ماذا تعتقد أننا فعلنا نحن العربَ بالأرقام قبل أن نرث أرقام الهنود؟ لقد استخدمنا الحروف. أبجد وهي الأحرف ألف وباء وجيم ودال، أي واحد واثنان وثلاثة وأربعة، وهكذا، تتحوّل الأحرف إلى أرقام حتّى حرف الشين، والذي يمثّل الألف".

قال حيدر: "أو بالأحرى، حتّى حرف الغين، والذي يمثّل الألف في الأبجدية الشرقية. ربّما يعود ذلك إلى انحرافه الفطري، أو لأنه أراد إبعادنا عن المسار الصحيح، فتجنّبَ الخيميائي نظامَنا الغربي لصالح النظام الشرقي. أعترفُ أنه قد ضلّلني".

قال ليث محتاراً وغير مقتنع: "ولكن، يا حيدر، ما الذي يجعلكَ متأكّداً جدّاً؟"

قال حيدر: "الموضوع أكثر وضوحاً ممّا أدركناه، يا شيخ ليث، انظر، تقول أبيات الخيميائي أن الأسوَد هو قلعةٌ في طليطلة ... والأصفرُ جبل في قادس، وهكذا. ولم يقل الأسود من .. أو الأصفر من ...".

صرخ صارم مبتسماً: "آه، حيدر، لم أكن أعرف أنكَ تملك عقلاً حقًّا!"

قال ليث، ولا يزال الشكُّ يظهرُ عليه: "استمرّ، إذن، واشرح".

"ما يعنيه حيدر، إذا كنتُ قد فهمتُهُ جيّداً، هو أن البيتَ يحتوي على أسماء الأماكن، وقد توقَّعنا بطبيعة الحال أن هذه الكلمات كأسماء أماكن تعني أصول الموادّ ومنشأها، أو ربّما وجهاتٍ، ولكنها سماتُها كأمكنةٍ تشيرُ إلى جوهرِها وصفاتِها ككياناتٍ محليّةٍ أو مكانيةٍ في حدّ ذاتِها ...».

رفعَ ليث يدَه "بعد إعادة النظر، دعونا نسمع من حيدر".

قال حيدر: "حسناً، يا شيخ ليث، عندما رأيتُ أن أسماءَ الأماكن لا معنى لها على هذا النحو، سألتُ نفسي ماذا يمكن أن تعني هذه السلسلة من الحروف إذا لم تكن تعني كلمات. الاحتمال الآخر الوحيد هو ...".

عبس ليث: "الأرقَام فهمت. ولكن، ما الذي يجعلكَ متأكّداً لهذا الحَدّ؟"

"يمكنكَ إجراءُ العمليّة الحسابيّة بنفسِكَ، يا شيخ ليث. سأكون سعيداً بتأكيدِكَ للنتائج التي وصلتُ إليها".

أومأ ليث برأسه، ثمّ رفع صوته. "ما الذي تحدّقون فيه جميعاً، أنتم الباقون؟ هيَّا، عودوا كلٌّ إلى مهمَّتِه!" وسَرَت همهمةٌ خفيَّة من القلق. "أعلمُ أن الوقتَ قد حانَ لتناول الطعام تقريباً، ولكنَّ هذا ليسَ سبباً لإضاعةِ هذا

الوقت في الدردشةِ الفارغة. لا بدّ أن نكرّسَ كلَّ ثانيةٍ من حياتِنا لمهمَّتنا المقدّسة! صارم، نحن بحاجة إليكَ هنا. وأنتَ، يا حَطّام" أضاف ليث بصوتٍ منخفضٍ "اذهب وتوضّأ ولا تنسَ الغُسل. إذ تفوحُ منكَ رائحةٌ كريهةٌ من الدم المهرطق"، وحدَّقَ مطوّلاً في الرجلِ بعينَيه الخضراوَين. حدّقَ حَطّام في وجهِهِ، ثمّ استدارَ واتَّجهَ إلى غرفةِ الوضوء.

جلسَ ليث وصارم وحيدر معاً في ضوء المشعل. أخرَجَ صارم علبةَ أقلامٍ ولفّةٍ من الورقِ من وشاحِ خصرِهِ وبدأ في الكتابة.

رَسَمَ أوّلاً عموداً من الحروف والأرقام، الأبجدية الكاملة حسب النظام الشرقي:

أ	a	1
ب	B	2
ج	J	3
د	D	4
ه	H	5
و	W	6
ز	Z	7
ح	H	8
ط	T	9
ي	Y	10
ك	K	20
ل	L	30

م	*M*	*40*
ن	*N*	*50*
س	*S*	*60*
ع	*C*	*70*
ف	*F*	*80*
ص	*S*	*90*
ق	*Q*	*100*
ر	*R*	*200*
ش	*Sh*	*300*
ت	*T*	*400*
ث	*Th*	*500*
خ	*Kh*	*600*
ذ	*Dh*	*700*
ض	*D*	*800*
ظ	*Z*	*900*
غ	*Gh*	*1000*

ثمّ كتب العبارات من القصيدة:

قلعة بطليطلة

جبل قادس

رجم أرغون

وقام بتقسيمها إلى الأحرف التي تكونها، محوّلاً الأرقام إلى معادِلاتها من الحروف، ثمّ حَسَبَ المجموع لكلٍّ عبارة:

100	ق
30	ل
70	ع
5	ه
2	ب
9	ط
30	ل
10	ي
9	ط
30	ل
5	ه
300	المجموع

3	ج
2	ب
30	ل
100	ق
1	ا
4	د
60	س
200	المجموع

ر	*200*
ج	*3*
م	*40*
أ	*1*
ر	*200*
غ	*1000*
و	*6*
ن	*50*
المجموع	*1500*

قال صارم: "إذن، وَفْقَاً لحساباتي، الأسود هو 300، والأصفر هو 200 والأبيض هو 1500. لا يمكن وَفْق قوانين الاحتمال أن تكون المجاميع الثلاثة جميعها أعداداً عشرية".

ضحِكَ حيدر متحفّزاً، ومرّر ورقته الخاصّة إلى ليث قرأ ليث: "فحم 300"، "كبريت 200"، "ثلج صيني 1500"... الأرقام متطابقة".

قال حيدر وهو ما يزال مبتسماً: "وهذا ما خشيتُهُ ...".

سأله ليث: "ماذا تقصد، ما الذي كنتَ تخشاه؟".

"تعطينا قصيدة الخيميائي النِّسَبَ نفسها لتركيبة الدواء التي كنّا نستخدمها طوال الوقت. وهي على وجه التحديد النِّسَبُ التي تعطيها الوصفة السورية. ثلاثة إلى اثنَين إلى خمسة عشر".

وسأل ليث وقد بدا صوته أجوف: "إذن، أين هو اكتشاف الخيميائي الجديد العظيم؟"

هزَّ حيدر كتفَيه.

زأر ليث وقد اهتزَّ جسدُه كلّه: "لقد كان يخدعُنا طيلة الوقت، خدَعَنا وحرَمَنا من كنزِنا! لعن الله روحه خالداً مخلَّداً في جهنّم. لقد خدَعَنا وأعمانا بالكلمات!".

وضع صارم يده على ساعد ليث. وقد شعرَ حتّى من خلال القماش السميك لِلكُمِّ بحرارةِ غضبِهِ، وقال بلطف: "شيخ ليث، قد يكون هناك تفسيرٌ آخر".

ضربَ يد صارم وأبعدها عنه: "اللعنة على التفسيرات! لم أعد أهتمّ بعد الآن! لدينا ما يكفي من الدواء للمضي قدماً، حتّى بدون التحسينات الخيالية اللعينة للخيميائي. وفّقنا الله!"

قال صارم متوسّلاً: "ولكن، يا شيخ ليث، اسمع، أتوسّل إليكَ، هناك احتمالية أخرى".

أغلق ليث عينَيه للحظة، ثمّ تنهّد. "تفضّل".

"مطلعُ قصيدة الخيميائي ...".

"أوه، أخبرنا بوضوح بحقِّ السماء".

"تحدّدُ الأبيات الافتتاحية موضوع الشاعر عن طريق التشبيهات البسيطة - الليل والضحى وما إلى ذلك". ثمّ صمت صارم. فأشار إليه ليث ليتابع: "لقد ثبتَ الآن أن القسم الأساسي من القصيدة، والذي يجدُ فيه المرء عادة الموضوع الرئيس، أي النخاع إذا جاز التعبير، هو خدعة متقنة، تخفي عنّا ما كنّا نعرفُهُ بالفعل، ولكننا لم نكن نعرف أننا نعرفه، واعتماداً على ..." حدّقَ فيه ليث وقد فَقَدَ صبرُهُ "وهكذا يبقى لدينا الخاتمة".

"ماذا؟"

"الملخّص، أو النهاية".

"ذلك الهراء حوّلَ تحويل الدقيق إلى حبوب، أو لا أدري ماذا يسمّونه؟" ارتسمت ملامحُ ضِرغام الشاحبة في عينَي ليث. كان الصبي يمشي مرتبكاً حاملاً صينية من الكُسكُس. فصرخ ليث: "أوه، ضَعها أرضاً، أيُّها القرد!".

نظرَ صارم دونَ حماسٍ إلى كومةِ الحبوب عديمة الشكل، متلألئة بصلصة رقيقة ودهنية. *"النار برقٌ قاتلٌ في ديمة ... ها كلّ ما تطحنه .."*.

قاطعَهُ حيدر: "... يغدو حبّةً" محدّقاً في الكُسكُس كما لو كانت المَنّ من السماء، ثمّ حدَّقَ في صارم وسأله متعجّباً "صارم، أعتقد أنكَ على وشك الوصول إلى شيء ما!"

بدا صارم مرتبكاً للحظة. ثمّ أضاء تعبير أشبه بالغبطة ملامحه التي تشبه ملامح العلماء. "أوه، يا للبلاغة! السهل الممتنع".

صرخَ ليث: "هل يخبرُني أحدكُم بما يجري بحقّ الجحيم؟"

قال صارم: "لقد فسّرتُ هذه السطور في البداية على أنها إشارة إلى شيء مثل الفشل الحتمي"، وأخذت كلماتُه تتوالى بسرعةٍ غير معهودة. "*ها كلُّ ما تطحنه* يغدو حبّةً" أمّا الآن، فالتفعيلاتُ سقطت من عينَي، ووجدتُ أنه ينبغي علينا إخضاعَ نهايةِ القصيدةِ للتفسير الأكثر حرفيّةٍ وظاهريّةٍ، مثل ما يفعل المؤمنون الحقّ جميعهم مع كتاب الله العزيز ..".

هزَّ ليث رأسه. "سيكون موتنا على يدَي نقدِكَ الأدبي".

فقال حيدر وهو يبتسمُ ابتسامةً عريضة: "ما يقوله صارم، يا شيخ ليث، هو أن هذه الأبيات قد تعني بالضبط ما تقوله".

فردَّ صارم: "هذا صحيح، رغم ندرةِ هذا تماماً في الأساليبِ الشِّعريةِ الحديثة".

فقال ليث: "ماذا تقصدُ بأن الخيميائي كان يقول لنا أن نحوّلَ الدقيقَ

إلى حَبّ؟" أومأ الاثنان الآخران برأسِهما بقوّة. "انسوا هذه المستحيلات وكُلُوا، باسم الله، الواحد الأحد الذي بيدهِ ملكوتُ كلّ شيء!" وطوى كُمَّيه وغرسَ يدَه في الكُسكُس.

قال صارم: "إذن، يا شيخ ليث، هذا الكُسكُس، على سبيل المثال، مستحيل؟ كيف تمّ صنعه، من أجود أنواع الدقيق المطحون، المخلوط بالماء "في ديمةٍ"، ولكن، كيف يتشكّل في حبيبات ذات حجمٍ موحّد؟"

صرخ حيدر وقفزَ وكاد يقلب الصينية: "يمرَّرُ عبر المُنخُل!".

هسهس صارم: "حيدر، تمالَك نفسَك، كنتُ أتحدّثُ نظرياً بالطبع، يا شيخ ليث".

فهتفَ حيدر: "ولكن، لماذا نظرياً، يا صارم؟" وحدّقَ الرجلان الآخران في زميلهما السبع، العالِم الهادئ في غرفته الخلفية يتمتّعُ بلحظتِه من التألّقِ بخميرةِ اكتشافهِ. "ألَا تتذكّر؟ لقد تحدّثَت عن مُنخُل الكُسكُس تلك القَينَة ... حدَّثتنا كيف أفسَدها الخيميائي.. أقسم بالله، يا صارم، أنكَ قد فعلتَها!"

الفصل الرابع والعشرون

إنه نوم الموتى، قالت لبنى لنفسها وهي ترفعُ رأسَها عن الأرضِ الصلبةِ، وذهّبَ شروق الشمس قبور البَيَازِين. *لو كان باستطاعتها أن تموت*.

لم تكن متأكّدة وهي مستلقية على التراب بجوار قبر عليّ، إذا ما كانت قد نامت أصلاً. لم تدرك شيئاً سوى البرد في نخاعها والجوع الذي عضّ معدتها وقطّع أمعاءها.

هل سيبعثون فريقاً يبحث عنها، تلك القَينَة الهاربة؟ ابتعدت عن المنطقة القريبة مباشرة من الكهوف. أرشدها الخوف أنهم قد يأتون ليبحثوا عنها هناك. ولكنَّها هنا قريبة أيضاً، فلمَ لا يبحثون هنا؟ ولكنَّ شيئاً آخرَ أخبرَها أن هذه البقعة، إذا ما مثَّلت شيئاً بالنسبة إليها، فهي نوع من الملجأ، والفراغ المقدَّسِ بين النومِ واليقظة، والحياةِ والموت.

المشكلةُ أن كأس الماء الذي تسوّلَتهُ من حفّاري القبور قبل ساعةٍ أو ساعتَين لن يكفيَها طويلاً. تخيّلَت وجوههم المندهشة في ضوءِ المشاعل عندما ظهرت أمامهم كشبحٍ مقنّعٍ من وسط الضبابِ الكئيبِ قبل طلوع الفجر. ثمّ فكّرت في خايمي، الشبح الحيّ الآخر، إذا كان حيّاً أصلاً.

قال شقيقها *إن خايمي قد مات*.

ولكن، كان عليها البقاء على قيد الحياة. يمكنها البحث عن الجذور والأوراق وأيّ شيء قابل للهضم. بعد أن أخذَ الطاعون والدَيها، في تلك الحياةِ الأخرى الماضية، أو بالأصحّ الحياة الأولى، قبل الماضية، قبل استعبادها،

نَجَت وخايمي في تلك الجبال العبوس. ألا ينبغي عليها مغادرة هذا المكان، والصعود إلى أعلى الوادي، قبل أن تشرق الشمس؟ ولكنّها تذكّرت سورَ المدينةِ، المتلألئِ على طولِ الخطِّ الجانبيّ فوق خطّ الكهف. لا، كان البقاء هنا أكثر أماناً، مَحمِيَّة بحرمة الأرض وبحجابها الذي يخفي هويتها. يمكنها البقاء على قيد الحياة من الحفر للبحث عن الجذور والتسوّل ورحمة الله.

وهنا كانت فرصتها الأولى: نعشٌ يترنّحُ محمولاً على الأكتاف عبر ضوءِ الصباح الباكر، محمولاً على طول الطريق الآتي من قصر الحمراء، مع موكبٍ كبير. دخل الموكب المقبرة، وتفرّقَ الحشد وشقّوا طريقهم عبر المقابر إلى الحفرة الجديدة التي صنعها حفّارو القبور في أحد المُدرَّجات العليا.

تسلّقت لبنى نحو المشيِّعين. سوف يكونون جميعاً رجالاً بالطبع، ولكنّها تستطيع التعامل مع ذلك. وتخيّلت أنهم سيكونون في مزاج خيّر للعطاءِ كونَهم قد فَقَدُوا أحدَ أحبّائِهم والآخرة في أذهانهم. ولكن، هل يحملون معهم أيّ طعام؟

هذا ما كانت تحتاجه، الطعام وليس المال أو الدعاء.

رأت لبنى وهي تقترب أن معظم الرجال كانوا شباباً ويرتدون ملابسَ متشابهةٍ، يرتدون سُتَراً وعلى رؤوسهِم قبّعاتٌ حمراء. المماليك. تشقلب قلبُها: قد يكون خايمي بينهم! ثمّ فكّرت في ذلك الشبحِ الرثِّ البارحة، وقالت إنه لا يمكن أن يكون معهم. ولكنها شعرت مع ذلك، بل وعرَفَت، أنه كان هناك، من خلال بعض الحواسّ التي تعمل بما يتجاوز العقل.

شكّل المماليك صفوفاً متعرّجةً حول فتحة في الأرض. فتسلّلت لبنى بينهم. لم ينتبه إليها أحدٌ على ما يبدو. كانت مجرّد متسوّلةٍ وامرأة، أي أنها خفيّةٌ على نحو مضاعف. تفرّسَت في الرؤوسِ المنحنيةِ، والوجوه المتجهّمةِ، بحثاً عن خايمي.

تحدّثَ رجل أكبر سنّاً يرتدي عِمامة " ... رجعَ إلى الأرض، التي خلقه الله منها، رفيقنا، الذي استشهد في هذا المكان وهو يقوم بواجبه تجاه خالقه وسلطانه، رفيقنا، وشقيقنا ..." وتعثّر الصوت.

لم تذهب لبنى إلى الجنازات أبداً بوصفِها امرأة. حدّقت في الجثّةِ وهم يرفعونها برفقٍ من حافّة الحفرة ويُنزِلونها ببطء بين فكيّ الأرض المفتوحَين. حدّقت فيهم ودفنت أمواتها مع هذا الجندي غير المعروف المكفّن والملفوف والمجهول، والدها ووالدتها وأصدقاء طفولتها الذين أخذهم الطاعون. وعليّ. كم بدت تلك الحياة بعيدة وغريبة الآن. وسِنَان أيضاً، ووارَتهُم جميعاً في كَفَنَ هذا الغريب.

واصلَ الرجلُ صاحبُ العِمامة في أثناء إنزالِ الجثّة في القبر "... أخونا وصديقنا العزيز، أسكنه الله تعالى إلى الأبد في رياض الجنّة. فكِّروا، يا إخوتي، دائماً بالقبر وعذاباته، وما يأتي بعد القبر، لأنَّ كلّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت، و ...".

ضاعت بقيةُ خطبتِهِ في زفيرٍ مكتومٍ من الحشد، لأنه كانت هناك حركة داخل القماشة الملفوفة، وتدحرج شيء ثقيل وتدلّى، وظهر الرأس، ورأت لبنى سدّاداتِ القطنِ المعطّرِ في الأُذُنَين والخَيشُوم، ثمّ رأتِ الأنفَ لوهلةٍ، الأنف الذي انكسر منذ تلك السنين الطويلة، ثمّ طوتِ الأيدي الحيّة الرأسَ بحنانٍ كبيرٍ مجدّداً في الكفَنِ، ووُضِعَ خايمي على الأرض.

****

قال حيدر: "أعتقد أنني قد فعلتُها".

كان قد قضى الليلة في مختبره وهو يشعرُ بالدوار مع الكثير من الأرقِ والإثارة. لم تنتهِ لحظةُ اكتشافهِ بعد.

"أترى، يا شيخ ليث، كيف خلطتُ الدواء مع القليل من الماء لصنع

عجينة؟" وأمالَ الوعاءَ النحاسيّ لإظهارِ الخليطِ الأسوَدِ لليث: "لقد حاولتُ أوّلاً فَركَهُ في كريّاتٍ بين راحتَيّ، بالضبط كما يفعلُ المرءُ لصنعِ الكُسكُس. ولكن الأمرَ لم ينجح. ثمّ تذكّرتُ ما قالتهُ القَينَة، أن الخيميائي قد أفسد مناخل الكُسكُس. وقد أدركتُ بعد قدرٍ معيّنٍ من التجربةِ والخطأ، أنه على الأرجح قد استخدم المناخل للكبس على الخليط وتشكيله، هكذا ..." وأخذَ ملعقةً من الخليطِ وكبسَ عليها في شبكةِ المُنخُل. وظهرت، من الجزء الخلفي للشبكة، ديدانٌ سوداءَ صغيرة من العجينة. ومرّرَ حيدر شَفرةَ سكّينٍ عبر الشبكة ليكشُطَها، ثمّ نثَرَها وجمَعَها على صينيّة.

تفحّصَ ليث تلكَ الكرياتِ الرطبة الصغيرةِ دون أن يقتنع "وكيف يؤدّي هذا لتحسينِ الدواء؟"

"لا أعرف، يا شيخ ليث. لا يسعني إلّا افتراض أننا من خلال إضافة العنصر الإضافي، الماء، فإننا نُدخِل الرطوبة إلى المعادلة الخيميائية. وهكذا عند الاشتعال، سوف يتعيّن على الدواء، والذي تتمثّل صفاتُه في الجفافِ والسخونةِ، أن يتفاعَلَ مع كلّ من نقيضِهِ الخلطيّ، برودةُ الهواءِ المحيط، بالإضافة إلى المستخرَجِ المتبقّي للرّطوبة" كان ليث لا يزال يحدّقُ عابساً في الحبوب السوداء. "ويمكنُ لهذا، من الناحية النظرية، أن يوصِلَ قُوَّتَهُ إلى الضّعف". نظرَ إليه ليث. "أو أكثر من الضّعف".

والآن ابتسم ليث. "وأخيراً، يا عزيزي حيدر، أصبحتَ تقولُ كلاماً منطقياً. ولكن، أخبرني، إذا ما كنتَ على حقّ، فكيفَ تعتقدُ أن الخيميائي قد اكتشفَ هذا الاكتشاف؟"

"الله أعلم، يا شيخ ليث. ربّما كانت مصادفة، إذ يقولون إن معظم الاكتشافاتِ العظيمةِ تتمُّ بهذهِ الطريقة".

قال ليث: "إذن هم مخطئون. فكلُّ شيءٍ مقدّرٍ لما كان وما سيكون في لحظة الخلق. ليس هناك شيءٌ اسمه مصادفة".

وساد الصمت بينهما. لم تكسره سوى أصوات السِّباع الأخرى التي بدأت أعمالها اليومية في الغرفة وخارجها. قال ليث أخيراً: "إذن، ما الأمر التالي؟".

"لدينا الكثير من الدواء في المخزن. والوصفة التي كنّا نستخدمها طبعاً، هي الوصفة السورية، وهي بالضبط وصفة الخيميائي نفسها. وكما ترى، فإن عملية "التحبيب"، كما أسمّيها بالإشارة إلى قصيدة الخيميائي، واضحة بما فيه الكفاية. حتّى ذلك الأحمق، ضِرغام، لن يجب عليه شيء سوى القليل من الإشراف والمراقبة. وبطبيعة الحال، سيتعيّنُ علينا إجراء اختباراتٍ للتأكّد من صحّة فرضيّتي. ولكن، إذا ثبتَ أنَّ الأمر كذلك، فعند استخدام ما يكفي من الأيدي، فلن تعود عملية التحبيب هي المشكلة ...".

"إذن، أين المشكلة؟"

"أوّلاً، وقت التجفيف. فحتّى لو بقي المستخلَص الخلطي الرطب، فمن الواضح أن الدواء ينبغي ألّا يكون رطباً بالفعل، فكيف سيشتعل في هذه الحالة؟ وكم من الوقت سوف يستغرق ليجفّ، لا أعلم. كلّ ما يمكنُنا فعلُهُ، يا شيخ ليث، هو الانتظار لنرى".

نظرَ إلى العالِم ورأى لأوّل مرّة، تحتَ الخطوط المتوتّرة والعصبيّة الشاحبةِ لوجهِهِ الذي يعاني من الأرَق، ثقةً كامنة: "طيّب، يا عزيزي حيدر، أمامكَ أكثر من أسبوعٍ بقليل. وكلُّ شيءٍ متوقّف عليكَ".

"أعلم، يا شيخ ليث".

قال ليث: "وماذا أيضاً؟" وهو يسمعُ أثراً من الشكِّ في أعمقِ أعماقِهِ تحتَ تلكَ الثقة كلّها.

عَبَسَ حيدر. وظهرَت كلماتٌ لاتينيةٌ محفوظةٌ في ذهنِهِ:

Si fieret instrumentum de solidis corporibus, tunc longe major fieret violentia

"هناك مسألة اكتشاف الراهب الإنجليزي: (إذا كانت الأداة من موادّ صلبة، فسوف يكون العنف أكبر بكثير)، ما زلتُ لا أفهمُ المعنى الكامل لهذه الكلمات، يا شيخ ليث".

قال ليث: "ليس عليكَ أن تفهم".

لم يُفاجَأ حيدر بالرَّد. كان يعلمُ أنَّ ليثاً حافَظَ على السيطرة والأمن، من خلال ضمان عدم معرفةِ أيِّ شخصٍ، ولا حتّى ليث نفسه، بالتفاصيلِ الكاملةِ لمؤامرتِه. كانت مؤامرتُهم تشبهُ الشبابيك الهندسيّة المتقنة التي تزيّنُ وتُخفي الغرفَ الداخليّة في قصر الحمراء: مجموعة من الألغاز المتشابكة من الخشب النفيس واللؤلؤ والعاج، وأصبحت هندستُها كاملةً فقط عندما تمّ إدراج العنصر الرئيس الأخير. كانت مؤامرة السِّباع لغزاً أيضاً، شُبّاكٌ مُصمَّمٌ لإخفاءِ المتآمرين، وإخفاءِ نفسه. فلو احتفظ أيّ سبعٍ منهم بقطع الأُحجيَّة جميعها، ووقعَ في الأسر، فسوف يستخرجون تلكَ القطعِ كلّها منه، واحدةً بعد أخرى، مع الأظافر وأجزاء الجسم الأخرى، على أيدي مسؤولي التعذيب عند السلطان: سوف يسقط التصميم بأكمله، وسوف تفشلُ المؤامرة. لذلك حمل سبعٌ واحد بمفردِهِ الجزءَ الرئيسَ الأخير الذي من شأنِهِ أن يُكملَ التعشيق. لم يتمكّن ذلك السبعُ الوحيدُ من الوصولِ إلى الأجزاء الأخرى، والسِّباع الأخرى حتّى ليث، كانوا يجهلونَ الطبيعةَ الدقيقةَ للقطعةِ التي يحمِلُها، والدور الذي سيلعبه. كان هناك، بالطبع خطرُ أن يتمّ اكتشافُ حاملِ المفتاحِ الحاسم النهائي "أسد"، أوّلُ وأنبلُ أسماء الأسدِ العديدة. كانت مخاطرةً خاضوها، لأنهم حسبوها وعرفوا أنها كانت على الأرجحِ أشبه بالعثورِ على أسدٍ حقيقيٍّ يتجوّلُ في حديقةِ السلطان.

وأضافَ ليث بهدوء: "ليس لأيّ منّا هنا أن يفهم. ولكنني سأتواصلُ

مع السبعِ الذي يعمل بمفرده. مع أسد" وفجأةً اشتعلتِ النارُ في عينَيه الخضراوَين. "لقد حان الوقت، أخيراً، وبعد طول انتظار، لضمِّ القطعِ كلّها التي أبقيناها متفرّقةً مع بعضها البعض".

الفصل الخامس والعشرون

لم يعد للزّمنِ وجودٌ بالنسبة إلى لبنى، فليسَ سوى تناوب بين الضوء والظلام، والحرارة والبرودة، والجوع والمساعدة المؤقّتة التي ستحصُلُ عليها من المشيِّعين الخيِّرين.

كانت تفكِّرُ بالحفاظ إمّا على جسدها أو روحها فقط، ولكن، ليس كلاهما معاً. كان الأمر كما لو أنها وضعت بالفعل قدماً واحدة داخل عالم الأرواح. وعندما تتّصل بالأحياء الذين جاؤوا للنزهة أو الدعاء بصحبة موتاهم، كانوا مستعدّين تماماً لطردها بكسرةِ خبزٍ أو قطعةٍ من الجبن. تلاشى عطشُها من خلال اللفّ على الأوعية المائيةِ الصغيرةِ التي توضعُ عند القبورِ ويملؤها الزوّارُ من وقتٍ لآخر، للطيورِ والوحوشِ والأرواحِ الراحلة.

وبعد ذلك، في صباحِ أحدِ الأيّام، عاد الزمن مرّة أخرى.

سَمعَها الفلاّحون أوّلاً، خارج سورِ المدينة في الروافدِ العُليا لوادي حدرُّه، صاعقةٌ من السماء، ورعدٌ من سماءٍ صافيةٍ تدحرجت عبر الوادي، ممّا جعَلَ الرجالَ يتوقّفونَ عن مهامّهم في الحصاد، وارتجفتِ الثيران وارتعدت فرائصها تحت النِّير الخشبي، وانطلق نهيقُ الحمير ونُباحُ الكلاب وصياحُ الطيور وأزيزُ الذباب المتأخّر الذي ينتشرُ من كوخٍ إلى كوخٍ ومن قريةٍ إلى قريةٍ حتّى وصلتِ الدمدمةُ إلى سورِ المدينة، حيث نظرَ الحرّاسُ بعضَهم إلى بعضٍ وتساءلوا عمّا إذا كان قد تمّ سحبُ زنديقٍ آخرَ إلى الجحيم.

سمعت لبنى ذلك أيضاً، من المكان البعيد الذي سَكَنَتهُ في الأيّامِ الثلاثة الماضية، وبدأت رحلتها إلى الحاضر.

الفصل السادس والعشرون

قال كاتب السرّ السلطاني: "بقي يومان، وكلُّ شيءٍ جاهز ... أو هكذا تقول .." خرجَ من خلف الستارة المحيطة بالقطعة المركزية في القصر الجديد. ودخلَ عاملٌ يحملُ كيساً ذلك الشقّ في قماش الخيمة.

ظهر زيد، صاحب الأشغال ذو اللحية البنّية المحمرّة "نعم، يا سيّدي. أُجريتِ الاختبارات. كلُّ شيءٍ في مكانِهِ تماماً. إننا نضيفُ فقط بعضَ اللمساتِ الأخيرة".

نظرَ إليهِ ابن زَمرَك. كانَ يكرهُ الاعترافَ بذلك، ولكنَّ قصرَ الوزيرِ الجديدِ كان أروعَ مبنى رآه على الإطلاق. كان من الصعب في الواقع تخيّل أن الفنّ أو الطبيعة يمكن أن ينتجا احتمالاً أكثر روعة في الدنيا من جنّة العَريف. لعبَ الضوءُ والظلُّ لعبةَ الغُمَّيضَةِ بين الأعمدةِ وبدا أنهما يضبطان المساحة بأكملها في الحركة، وهي مرآة أرضية للدوران البطيء والمتواصل للسماء. وفي وسط ذلك كلّه، في تلك النقطة الساكنة في هذه السماء من الرخام والجصّ والفُسَيفِسَاء، مفاجأةُ لسانِ الدين الجميلة والتجديفية لسيّدهم السلطان.

قال ابن زَمرَك بهدوء: "حسناً، من الأفضل أن تكون على حقّ"، محوّلاً قناع الشمع في وجهه إلى زيد صاحب الأشغال. "لأنه إذا لم تكن كذلك، فسوف تتدحرج الرؤوس، بدءاً بكَ، يا سيّد زيد، آخر رئيسٍ لبيتِ زيري البربريّ، الذي وضَعَ نهايةً لتاريخِ غرَناطَة الأليم للحكّام السابقين، وبعد ذلك" وشكّل شفتَيه في ابتسامة مستفِزّة "رؤوسٌ أكبر بكثير من رأسكَ ... وعموماً، يا لها من نهايةٍ مؤسفةٍ جدّاً ...!" دخلَ شخصٌ ضخمٌ من الرِّواق الجنوبي،

فرفعَ ابن زَمرَك صوتَهُ في اتِّجاه ذلك الشخص: "سعادتكَ، لقد كنتُ أفكّر بكَ الآن. أطال الله عمركَ!"

أجاب الوزير: "وأطالَ الله عمركَ" وهو يعيدُ المجاملةَ متأمّلاً أن يَخِرَّ كاتب السرّ السلطاني ميتاً على الفور. "ما الذي جاءَ بكَ إلى هنا؟"

"إنَّ تجاهُلَ سننِ الزمنِ المعتادة وقيودِه من صلاحياتِ الله العزيز القدير وحدَه، وبفضلِ إدراكي لضعفِ الحساسياتِ الزمنيّةِ لمخلوقاته، رغبتُ فقط في التحقّقِ من أنَّ كلّ شيءٍ يسيرُ في مواعيدِهِ المحدّدة" توقّفَ ونظرَ إلى القصرِ بتكبّرٍ مدروسٍ "هذا كلّه ... جميل ... جميل جدّاً. ولكن، ماذا عن تلك الآلة الغريبة؟" أدارَ وجههُ صوبَ قطعةِ القماش "ربّما تتذكّرُ أن سيّدي، أنَّ سيّدنا، سوف يتكرّمُ في الصباحِ التالي ليومِ بعد غدٍ، بحضورِ افتتاح هذا القصر، وسوف يُكرِّمه بحضوره المبارك. بطبيعة الحال، كنتُ أشعر بالفضول لملاحظة مدى التقدّم المحرز للوصولِ إلى الموعدِ النهائيّ لسموّكم ..." وتدوّرَت شفتاهُ حولَ الكلمة بتمتمةٍ بطيئةٍ، مثل ثعبانٍ يبتلعُ فريستَهُ ببطء.

قال لسان الدين: "لديَّ ثقةٌ مطلقةٌ في زميلنا المحترم صاحب الأشغال". فانحنى زيد عند سماعِ المجاملة.

قال ابن زَمرَك: "كم أتمنّى أن أشاركَكَ ثقتَكَ. ولكنَّ ما رأيتُهُ بالكادِ يولّدُ التفاؤل. لن أكرّرَ شكواي الرئيسة، حول التصوير التدنيسي للكائناتِ الحيّة ... فمن الصعب توقّع أن يبارك الله تعالى بالنجاح مغامرةً تحاكي بوضوحٍ قدراته تعالى في الخلق. تتعلّقُ انتقاداتي الأخرى الأقلّ حِدّةً، فهي تتعلّقُ بنقشِ أشعاري، والتي سعيتُ موفّقاً باستعمالها لتجهيزِ مفاجأةٍ لجلالتهِ. هناكَ مجموعةٌ قبيحةٌ من الأحرفِ في عدّةِ أماكنٍ، وبعض علاماتِ التشكيلِ المحذوفة ... ولكن ..." والتفتَ إلى زيد صاحب الأشغال بنظرة مختلطة من السُّكَّر والسُّمِّ "ماذا يمكن أن يتوقّعَ المرءُ من سليلِ أولئكَ القادةِ الأمِّيّين الوقحين من بني زيري؟ وآه ..." وأشار بأصابعِ قدمهِ الرفيعةِ المغطّاةِ بخُفٍّ

جِلديٍّ ناعمٍ إلى الفضلاتِ المتناثرة على الأرض المرصوفة بالرخام النظيف النقيّ "وهناكَ المزيد من الأدلّة على وجودِ القوارض".

حدّقَ زيد للحظة في الفضلاتِ "سأتعاملُ مع الأمرِ على الفور، يا سيّدي".

"من الأفضلِ أن تفعل أم أنّكَ نسيتَ إصرارَ جلالتِهِ على النظافةِ المطلقةِ في القصر؟ كيف تعتقدُ أنَّنا نجونا من الزيارةِ الأخيرةِ للوباء؟ فحيثُ توجد الفئران وحيوانات الخُلد وغيرها الكثير من الحشرات، من المؤكّد أن الأبخرة الضارَّة الملوَّثة، والتي تسبّبُ الطاعون تتكاثرُ أيضاً، في أحشاءِ الأرض".

قال الوزير: "من الواضحِ، يا زميلي العزيز، أنكَ لم تقرأ رسالتي حول نظرية العدوى. سأحصلُ على نسخةٍ لكَ على الفور. زيد، من الأفضلِ أن تضعَ بعضَ الفِخاخ، أو تقتني قطّةً أو أيّ شيءٍ آخر. لقد سمعتَ جيّداً: لديكَ أقلَّ من ثمان وأربعين ساعة ... *ليته*" وهنا أضافَ لسانُ الدين بنبرةٍ خافتةٍ، مكشّراً تكشيرةً قاتمةً صامتة وجّهَهَا إلى كاتب السرّ السلطاني، "*كان من السهلِ التعامل مع الأنواعِ الأخرى الأكبر من الفئرانِ والخلدان التي تغزو هذا القصرَ النبيل*".

****

قضى إبراهيم بن زَرزَر ليلتَه الأولى كما يليقُ بمنصبِهِ كسفيرٍ في أراضي غرنَاطَة في مسكن الضيافة العامر لحاكم لوشة، وهو رجلٌ نبيلٌ كان على معرفةٍ به منذ أيّامهِ في خدمة السلطان. كانت إقامتُهُ مريحةٌ، ولكنّه لم ينم، أو ربمّا غفيَت عينُه مجرّد لحظاتٍ انتزعَها بين صلاةِ الفجرِ للمسلمين والضوء الأوّل. أصبحَ الآن على الطريق مجدّداً في الصباح الرمادي، وظهرت أمامَهُ الأنجُد التي لا تنتهي، وبساتينُ الزيتون المتناثرة. كان الصريرُ الإيقاعيُّ للأحزمةِ وقعقعةِ الأسلحةِ من قافلتِهِ المكوّنةِ من مئة فارسٍ من البربر،

ومحاولاتِ المحادثة من قبَلِ زملائِه المبعوثين، وزوج غبيّ على نحوٍ خاصّ من النبلاء، والمشية المنوِّمة لبغله، سوف تجعلهُ جميعها ينامُ على السرج. لولا ذلك الموت الأحمر وراءه.

طاردتهُ لحظةٌ من الغضبِ من بناتِ أفكارِهِ وسَخِرَت منه، المزيِّفُ العظيم، والياقوتةُ المغشوشة في صندوقِها المُذهَّب، والتي تركبُ على رأس قافلة الأمتعة، مثله، على بغلٍ محاطٍ بحراسةٍ مشدّدةٍ ومحمّلٍ بالأغطية. ازدادَ ثقلُ خوفِ إبراهيم وعصبيّتِه مع كلّ ثانيةٍ تدقُّ حتّى يوم عيد نبي المسلمين، أي صباح اليوم بعد الغد، وقد جعلتهُم كلُّ خطوةٍ أقربَ إلى غرَناطَة.

تذكّرَ برعشةٍ فرحَةَ دون بِدرو الطفوليّة عندما وضَعَ عينَيه لأوّل مرّة على تلك القطعة من الزجاج الأحمر قبل أسبوع. صرخَ الملك: "يا لكَ من يهوديٍّ بارع! لقد تفوّقتَ على الخيميائيّين، فقد حوّلتَ ما لا قيمة له إلى شيء لا يقدّرُ بثمن! إنه التحوّل التامّ، التحويل، الاستحالة، ولكن، صه ..." وضع إصبعه على شفتَيه وهمسَ: "لا تُخبِر أحداً أنها جوهرة مزوّرة" ثمّ انفجر بالضحك: "جوهرة مزوّرة! حجرٌ كريم لئيم!" وأمسكَ بيدهِ القويةِ مَرفِقِ إبراهيم، وقادَهُ حولَ بركةِ القصر، ووصفَهُ بأنه منقذُ العروش، وحارسُ الحروب. "أمّا بالنسبة إلى هنري ترستامرا، أخي الجانب الخاطئ من بطانة أبي الراحلِ الشريفة، فيمكنُه الذهاب والعبث مع نفسِه. يا سلطان غرَناطَة الحبيب، مع هذه الياقوتة التي أمنحُكَ إيّاها، معاً سوف نقضي على الزنويّ! قال الملك: "هيَّا، يا إبراهيم، أيُّها البائس، انضمّ إليّ"، ممسِكاً بذراعِ صديقِهِ المقرّب بشدّةٍ لدرجةِ أنه قد أسكتَهُ من الألم.

"معاً سوف نقضي على الزنويّ!"

انطلقتِ العبارةُ التي تكرّرت مراراً وتكراراً وتردَّدَ صداها في أرجاءِ القصر وطيّرَ الحمَامات.

قال إبراهيم عندما تنفّس الملك: "ولكن ... يا صاحب السموّ". أراد من دون بِدرو أن يمسك القطعة المزيّفة، ليشعر بفراغها، ويواجه الواقع قبل أن يتراجع إلى الأبد. فالتفت إلى الملك وحملها أمامه.

ولكن بِدرو لم يأخذها. بل تراجع وجاءت كلماته من بعيد، من الماضي: "أنا ... لم أحبّها على أيّ حال. أبعِدها عنّي، يا إبراهيم .."، ثمّ نظر إليه بتلك النظرة المجنونة المفاجئة الزرقاء الباردة وتردَّدَ الصدى في أرجاء القصر: "*خذ هذا الشيء اللعين بعيداً عنّي*".

والآن ركبَ إبراهيم الطريقَ إلى غرَناطَة، إلى قصر الحمراء، عارفاً أنه إذا ما كان هناكَ أيّ شيءٍ قد يتسبّبُ بالحروب ويكلّفُ الكثيرَ من العروش، فهو هذه الحلية الحمراء بلون الدمِ المحمولة وراءه.

الفصل السابع والعشرون

قال أبو عبد الله: "تبقّى ليلتان، يا بنيّ، ثمّ سنخرجُ من هذه المزبلة. *إن شاء الله*".

كان الضوءُ يتلاشى بسرعة في غرفتهم العليا في مستشفى البَيَازِين. شاهدَ سِنَان موسيقياً يختتمُ عزفَهُ في الأسفلِ في الفِناء، بينما كان عازفان آخران يتبادلان الحديث بجانبه. تأمَّلَ سِنَان غرابة الاستماع كلّ يوم، كما كانوا يفعلون، للموسيقى التي كانت موسيقى آلاتٍ وألحان وحسب دون شِعر. ولكن، هذا مفهوم: فالمشاعرُ التي تثيرُها كلماتُ الأشعار في الأُغنيَّة قد تكون خطرةً على نزلاء الجناح النفسي. تخيّل سِنَان أن المساحة التي ينبغي أن يشغلها المغنّي تشغلها لبنى، القَينَة، الجارية التي تغنّي. وتساءَلَ كيف كان صوتُها عندما تغنّي، هل كان لديها نبرةً حادَّة في صوتِها أم كان صوتها كان يتشكّل ويُصقَل بحسبِ اللحن. تحدّثَ إليه ذلك الصوتُ في ذهنِه يقول للمرّة الألف "إنّا غريبان ها هنا ...".

ولكنَّ الصوتَ جاءَ من الماضي.

كرّرَ أبو عبد الله مغطّياً على الكلماتِ التي كان يتذكّرُها سِنَان: "لقد قلتُ، بقي ليلتان، إن شاء الله" لطالما كان سِنَان المحكَّ الذي يجرّبُ فيه سيّدهُ صلاحيةَ أفكارِه، وليس أفكارَه هو.

"نعم، يا مولاي".

رافقت جوقةٌ من الصرخات الموسيقية المجنونة الحزينة تودّع الفرقة التي تغادر في الأسفل.

"ولا حتّى يوماً واحداً. لم أعد أحتمل المزيد من هذا، وإلّا سوف أُجَنُّ مثل البقية هنا. وأمّا بالنسبة إلى تلك الأشياء التي لا أدري ماذا سمَّاها لسان الدين ... . التغذية الجاموسية، أليس كذلك؟"

"التغذية الجالينوسية، يا مولاي".

"نعم، هذه الأشياء. حسناً" ونظرَ إلى البقايا الكئيبةِ لطبقٍ من الكُسكُس مع صلصةِ الخضار التي بلا طعم "أعطِني قطعةً كبيرةً من لحمِ الضأن الدُّهني وكميّةً جيّدةً من المخلّلاتِ كلّ يوم. هذا هو نوع الطعام الذي يحافظ على توازن معدتي. على أيّ حال، لم يتبقّ سوى أقلّ من ثمان وأربعين ساعة، وسنعود إلى أماكن المتعة الحقيقية والرفاهيّة. فكّر في تلك اليخنات التي يطبخها العبد الطبّاخ لدى لسان الدين، مع العسل والجوز الأخضر، وحساء اللوز، والمرصبان ...".

هضَمَ كلاهما الأطباقَ المتخيَّلة لفترةٍ، وقال سِنَان في النهاية: "مولاي"، ثمّ سكَتَ حائراً في الكلمات التي يريد استخدامها للتعبير عمّا يدور في ذهنه أو في ذهنَيهما، في حقيقة الأمر. أدركَ سِنَان أنه لطالما لعِبَ دوراً إضافياً، إلى جانب أدواره في فهم المراد والذاكرة والضمير المؤقّت، وقد تجسّدَ هذا الدور في العبارة النصرانية الخلَّابة التي اقتبسها الوزير، وهي (محامي الشيطان). وقال مجدّداً: "مولاي، ماذا لو كانت هناك عقبة ما ...؟! ماذا إذا سقط الوزير؟! ماذا بعد؟!"

نظرَ إليه أبو عبد الله ومرّر إصبعه على حَنجَرته إشارة للذبح: "أقصد، يا بنيّ، أننا لا نحتمل التفكير في هذا الاحتمال. لذا لا تفعل".

لكن، كلاهما كانا يعرفانِ أنه مع اقترابِ يوم الحفل في قصر الحمراء، سيكون هذا كلّ ما سيفكّران فيه.

"مولاي، يجبُ أن نكونَ واقعيِّين".

"هذه فكرةٌ جيّدةٌ، لنلعب جولة شطرنج جيدة حقًّاً، إذن. حتّى لو عدتَ إلى نموذج الفوز القديم الذي اعتدتَ عليه".

"أرجوكَ، يا مولاي، فَكِّر في الأمر. فنحن نعرفُ بشأنِ الدواء. لا بدّ أن نُوصِلَ الخبرَ إلى الوزير ".

"اسمع، لقد كنتَ تصرخ بشأن الدواء طوال الأسبوع، وما زلتُ غير مقتنع. على أيّ حال، حتّى لو أردنا إِخبارَ لسانَ الدين، فلن نتمكّن من ذلك. فقد أرسلونا إلى الواق واق".

"إلى الواق ... يا مولاي؟"

"الواق واق. ألم أخبركَ عنها من قبل؟ إنها جزيرة فيما وراء الصين، على حافَّة العالم. تُعدُّ من هنا، الجزءَ الأبعد من العالم المسكون. يقولون، والله أعلم، إن الفتيات العذراوات يَنمونَ على الأشجار هناك، وعندما يبلغنَ وينضُجنَ لما تعرفُهُ، أعتقد أحياناً أنكَ لا تعرف، ولكن، هذا ليس موضوعنا، يسقطنَ عن الأشجارِ ويصرخنَ في أثناء سقوطِهنّ (واق واق! واق واق!" ورفرفَ بكُمَّي جُبّتِهِ وكرّرَ العبارةَ بأعلى صوته، ممّا جعلَ سِنَاناً يبتسمُ رغماً عنه. جاءت صرخةُ استجابة من أحد زملائهم النزلاء في زنزانة قريبة تقول: آآآآه. أضاف أبو عبد الله وهو يتنهّد: "العذارى اللواتي ينمُونَ على الأشجار ... كدتُ أن أصلَ إلى هناك بنفسي".

قال سِنَان بجدِّيةٍ مرّة أخرى: "ولكن، بالعودة إلى ما كنّا نتحدّث فيه. لا أعرف لماذا تحتاج إلى الإقناع، يا مولاي. بصرف النظر عن أيّ شيء آخر، فإن الاحتمال الرياضي أن يكون مجاميع تلك الحروف الأبجدية أعداداً عشرية بالمصادفة ...".

"... يقارب الصفر. نعم، يا سِنَان. لقد شرحتَ بمنطقكِ الذي لا تشوبه

شائبة، مئة مرّة. ونعم، لقد استوعبَ عقليَ المتهالِك كلّ شيء. إذن، هذا هو الدواء. وهذه مؤامرة. وقد أخبرتُكَ مئات المرّات: حتّى لو كان لديهم الكثير منها، ماذا سيفعلون؟ سوف يقومون بالتفجير باستعمال تلك الأنابيب النارية والمدافع حتّى تهرب قوّات المماليك بأكملها في سلطنة غرَناطَة وتختبئ خلف تنُّورات أمَّهاتها؟ ثمّ سيُوجِّهونها على بابِ خزائنِ السلطان ويهربون بالياقوتة؟ كما قال لسان الدين، الياقوتة آمنة ولا يمكن سرقتها. أعني، سيكون الأمر سهلاً مثل سرقة .. أوه، ماذا أقول ...؟! مثل سرقةِ الحجرِ الأسودِ في مكّة المكرّمة".

"مولاي، لقد سَرَقَ القرامطةُ الزنادقة الحجرَ الأسودَ في مكّة في أيّام الخلفاء".

قال أبو عبد الله: "نعم ... هذا ما فعلوه حقًّاً" وزمَّ شفتَيه.

قال سِنَان وهو ينظرُ من النافذةِ الصغيرة المغلقةِ إلى ضوء النهار يتلاشى من جدران قصر الحمراء: "على أيّ حال، يا مولاي، لستُ متأكّداً من معنى هذا" الأحمر" الذي يحاولون الوصول إليه".

"ماذا تعني؟"

"أعني، لستُ متأكّداً من أنها الياقوتة".

تفرّسَ أبو عبد الله في ملامح سِنَان الثابتة والتي أصبحت داكنة للغاية مع تلاشي الضوء: "هذا هراءٌ، يا فتى. ماذا يمكن أن يكون إذن؟ هيَّا، تفضّل، عَبِّر عن نفسكَ. يمكنني الشعور بنظريَّاتكَ العبقرية القادمة".

لم يُجِب سِنَان، ولكنه استمرّ في مراقبة الظلال تتماوج في الوادي، والبهاء والأبّهة يلعلعان من جدران القلعة، والظلام يستجمع قواه ويزداد حُلكَةً.

كان هذا هو الوقت الذي يسمّيه البعض ساعة سليمان. الوقت قرب صلاة المغرب، عندما تشعرُ بالضغط الناعم الرقيق للظلام القادم. *والليالي من الزمان حبالى*، قال سِنَان لنفسه، *مُثقلاتٍ يَلِدنَ كلّ عجيب*.

حتّى المجانين صمتوا.

قال أبو عبد الله في الفراغ الذي خلّفه الصوت: "أتساءَلُ أين هي؟ لبنى!". وابتسم. "هل تعلم، لطالما قلتُ إن هناك الكثير من الغزلان في السهل؟! وكانت هناك الكثير بالفعل. أم أن الموضوع متعلّق بأنني كنتُ الأفضل في صيدهنّ؟ لبنى، ربّما كانت هي التي يمكنني قضاء بقية حياتي معها ... كان هناك واحدة من قبل هناك في جزر المالديف ... هل يمكنكَ الحصول على أكثر من واحدة، لتقضي بقية حياتك معها؟"

اشتدّ الظلام، وكان أبو عبد الله الذي اعتادَ إحداثَ الكثيرِ من الضوضاء حتّى وهو صامت، صامتاً حقّاً هذه المرّة.

ثمّ عاد إلى الحديث: "ولكنها كانت معجبةٌ بكَ، يا سِنَان ... ! أيُّها الفتى المسكين، لم تكن تعلم ما يدور من حولكَ حقّاً. في رأسها وفي قلبها، وفي *كبدها*، هناك يحدثُ كلّ شيءٍ حقّاً".

واصل سِنَان النظر عبر القضبان.

"أ،تدري يا سِنَان؟ أتساءل أحياناً عمّا إذا كنتُ سأكون أكثر سعادة الآن لو أنني وُلدتُ مثلكَ. أقصد ... صنماً من الأبنوس، من الصخر الأسود الأصمّ، أرى كلّ شيء، وأعرف كلّ شيء، ولكنني في الوقت نفسه .. ماذا أقول؟ بدون شعور ... بدون ... وعي ذاتي؟"

أغمضَ سِنَان عينَيه.

"هل سأكونُ أسعد، يا سِنَان؟ لا أعرف" وتلاشى الصوتُ إلى حروفٍ ساكنةٍ عديمة الصوت "فعلاً لا أعرف".

تنفّس خمسون مؤذّناً في أرجاء غَرنَاطَة جميعها أعلى السلالم الملتوية في خمسين مئذنة، مستنشقين الليلة الآتية. وبدت المدينة والزمن نفسه للحظةٍ طويلةٍ يحبسانِ أنفاسهما في الوقت نفسه.

فتحَ سِنَان عينَيه في هذه اللحظةِ المعلَّقة ورأى أمامهُ ندبةً حمراءَ دمويةً على طول سفح الوادي: كانت جدران قصر الحمراء تتمرّغُ في ضوءِ الشمسِ المحتضرة، ذلك الأحمر الداكن والمشبع. بدأ اللون يتسرّب ببطء، وهو يراقبُ الموتَ اليومي للضوء. وغبارَ الطوب الجافّ. وزهور الوردِ الميتة. التفتَ إلى أبي عبد الله، الذي تحوّلَ الآن إلى ظلّ ساكنٍ ومنكمشٍ مستند على الجدار الأبيض. "مولاي ... مولاي؟"

لم يتحرّك الظلّ. ثمّ قالَ صوتٌ خافت: "لا تقلق. لم أمت. بَعد".

"مولاي، كيف سُمِّي قصر الحمراء بهذا الاسم؟"

"قصر الحمراء؟ لم أفكّر بذلك أبداً". بدا أبو عبد الله شارداً ومرهَقاً. "يسمّونه الحمراء. صفة مؤنّث. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه صديقنا المثقّف لسان الدين ... . قول مأثور".

"أعتقد أنكَ تقصد لقباً أو صفةً، يا مولاي ".

"شكراً لكَ، يا سِنَان" عاد أبو عبد الله الآن إلى نفسيّتِهِ المبتهجِة المعتادة. "أنتَ تعلم، نعم، أنتَ تعلم بالتأكيد، كما يسمّون فاس البيضاء وحلب الشهباء وقصر الخليفة القديم في دمشق بقصر الخضراء وما إلى ذلك. أمّا الحمراء، ربمّا سمعتُ أن الأمر يتعلّق بالطين الأحمر أو الحجر الأحمر؟ أعتقد أنه يبدو أحمر تماماً في بعض درجات الضوء المختلفة. أو ربمّا كان اللون الوحيد المتبقّي عندما كانوا يبحثون عن ذلك اللقب أو الصفة أو لا أدري ما يسمّونه".

قال سِنَان بهدوء: "مولاي، أتذكُرُ في الرسالة اللاتينية التي أرانا إيّاها

الوزير، *rufa*، *rufi*، الأحمر؟ كما تعلم، الشيء الذي يحاول المتآمرون الوصول إليه. وكانت إحدى الكلمتَين مذكَّراً والأخرى مؤنَّثاً. ألَا تعتقد أنه يمكن أن يكون ...؟"

فنهضَ الظلُّ وانفصلَ عن الجدار: "قصرُ الحمراء؟ *القلعةُ نفسها*؟"

انضمّ إليه أبو عبد الله إليه أمام النافذة، وأخذ يحدّقُ عبر القضبان في آخر بقعةٍ باهتةٍ من اللون الأحمر الذي يتسرّبُ من جدران القلعة.

"أعتقد أنكَ تتخيّلَ أن تلك الصدمة على الدماغ قد ضخّت فيه بعض الحكمة ولو لمرّة واحدة. إذن، يا فتى، هناك خيطٌ رفيعٌ يفصلُ بين العقلِ والجنون ..." وتوقّفَ عن الكلام، كما لو كان يستمع إلى تلك اللحظة المعلَّقة، لحظةِ الصمتِ قبلَ أن يخيّمَ الظلام. ثمّ قال فجأة وبهدوء: "يا إلهي، اسمع، يا سِنَان.. قد تكون محقّاً. لقد كنّا نفكّر طيلة الوقت ... على نطاق ضيّق. لا يتعلّق الأمر بمجرّد حجر أحمر تافه، حتّى لو كان يستحقّ فدية السلطان. بل يتعلّقُ الأمرُ بشيءٍ لا يقدّر بثمن: قلعة، مدينةٌ في السماء، رمز للقوّة، حارسة للسلام ... لا بدّ أن نخبر لسان الدين. لكن، كيف نفعل ذلك؟ كيف؟"

في اللحظةِ التي غابت فيها آخر ومضةٍ من الشمس وراء الأفق، انطلق النَّفَسُ من خمسين مئذنة. ولعلَعَت موجةٌ من الأصوات على سفح الوادي. وحدّق الرجلان في القلعة، في قصر الحمراء، والذي أصبح الآن بلون العظام، وهي رميم، عديم اللون.

الفصل الثامن والعشرون

انحسر آخرُ أذانٍ بعيداً عن مقبرة البَيَازِين. واستلقت لبنى على الأرض الصلبة، تستمعُ إلى الكلاب من حولها التي تتشمّمُ رائحةَ جسدِها الهامد. ارتفع جزء من عقلها في الجوّ، ونظر إليها ليرى ظلّاً ممتدّاً بجانب قبرٍ متوسّداً حجراً، مثل الصوفيّين المجانين ساكني المقبرة، والذين رأوا رؤى فوضوية مضطربة.

ولكن رؤى لبنى لم تكن فوضوية. فقد رأت منذ الصاعقة الثانية قبل أربعةِ أيّامٍ أشياءَ كثيرة بوضوحٍ مستقلّ ومذهل.

بدءاً برؤية رأسِ أخيها. فقد شاهدَتهُ بعينَي عقلها يموتُ عدّةَ مرّاتٍ من قبل، حتّى أصبحت مستعدّة بطريقة ما لرؤية جثّته الحقيقية. كانت قد سمعت صرخاتِ الصبي خايمي في يوم أسرِهما قبل ستّة عشر عاماً، وسمِعَت في هذه الصرخاتِ عذاباتِ موتِه المُتخيَّل. وعندما جاءت الأخبار بعد فترة طويلة، أنه أخيراً قد نجا ونُقل لينضمّ إلى المماليك، أثارت أخبار كلّ حرب حدودية في ذهنها صوراً لجسد خايمي الشابّ وهو يرقدُ دون دفنٍ في ساحة المعركة. مات خايمي مرّة أخرى في انقلاب البرميخو ضدّ السلطان، وتُوفيِّ في المنفى مع السلطان في الجانب الآخر من المضيق، وتُوفيِّ في كلّ زيارة للطاعون. لذلك أحدثَ هذا المشهدُ له وهو ميتٌ في الواقع حلقةً من كابوسٍ متكرّرٍ، ورعبٍ محض يخدّره التكرار.

أمّا الشيء الجديد المرعب حقّاً، فهو حدسُها بأنها كانت مسؤولةً

عن وفاته. قال الرجل المعمَّمُ في دفنه: "لقد استُشهد في هذا المكان". وتخيّلت نظرة خايمي الجنونية المملوءة بالخوف عندما وجدوه مختبئاً بين المقابر في ذلك اليوم، إلى الساعات الأخيرة، وربّما الدقائق الأخيرة من حياته. لم يُسعِفها عقلُها في معرفةِ السبب، أمّا غريزتُها، فقد أخبرتها، في تلك اللحظة الفظيعة عندما تحرّكَ الرأسُ من تحتِ الكفن، أنها كانت قاتلةُ شقيقِها، حتّى لو لم تكن هي التي استخدمت السكّين.

لم تدرك كم قضت من الوقتِ في أعتابِ الظلام الخارجي لهذا الكَشف.

كانت تلك الموجةُ الصاخبةُ من الرعد، تلك الصاعقةُ التي تتدحرج من السماء هي التي أعادتها إلى النور مجدّداً. أعادها اندلاع العاصفة، والحُمّى في دماغِها، إلى ليلةِ مقتلِ عليّ، وإلى ذلك الرأس الآخر، رأس حبيبِها، وعيناهُ تتوسّلان إليها.

ما زالت العينان تتوسّلان. ولكنهما أصبحتا تتوسّلان الانتقام، لكلَيهما: الحبيب والأخ، حياتَيهما السابقتَين، وكلاهما أُهرقَتا بطريقة وحشية للغاية، وكلاهما مدفون في الجزء شديد الانحدار نفسه من هذه الأرض.

ولكن، كيف تنتقمُ لهما؟ كيف؟

بينما كان القمر يجتاز بمداره العريض السماء، كان عقلُ لبنى يدورُ حول القبور، حول أزقّة رَبَض البيَازين المتشابكة ومتاهة الأحداث التي قادتها إلى هنا، بحثاً عن الطريق الذي يؤدّي إلى الانتقام. وعندما عاد عقلها إليها أخيراً، كان عقلها مرهقاً مستنفداً ويفتقر إلى الرضا.

آخرُ شيءٍ تذكّرَتهُ لبنى، كما هو الحال دائماً، عندما دخلت أخيراً عتبات النوم، كان وميض عينَين أخريَين، خضراوَين فوق اللثام.

****

وفي غرفة ليست ببعيدة في دار ضيافة السلطان، ظهرت عينان أخرَيان لإبراهيم بن زَرزَر وهو على حدود النوم، منها النظرة الزرقاء الباردة الجنونية لدون بِدرو، والنظرة البنّية العميقة لسيّده القديم، السلطان محمّد سلطان غَرنَاطَة. وسوف يواجه في غضون أقلّ من ستّ وثلاثين ساعة، ومع قطعةٍ من الزجاج الأحمر، وجهاً لوجه تلك النظرة الثانية، وكانَ يعرفُ جيّداً المخاطرَ الكامنة في أعماقِها الهادئة.

فكّرَ مرّة أخرى في هذا اليوم الأخيرِ من الرحلة من إِشبِيلِيَة، هذه الرحلة نحو الهلاك. ظهرتِ الخيولُ الجديدة في أواخر فترة الظَّهيرة، لتحلّ محلَّ البغال، وحملتهُ مع الياقوتة المزيّفة واثنَين من النبلاء المملّين خلال الفراسخ المتبقّية إلى غَرنَاطَة بالسرعة المروّعة والحتميّة لفرسان الهلاك الأربعة للأبوكاليبس المسيحي، نهاية العالم. كان الشللُ الزاحفُ بتؤدة قد خدّر أطرافه في أثناء الصعود النهائي إلى بَوَّابة قصر الحمراء المضاءة بالمشاعل، وهناك، تحتَ النظرةِ المجرّدة لتلكَ الرؤوسِ المقطوعةِ التي أرسَلها دون بِدرو قبل سنواتٍ عديدة، كاد إبراهيم أن يُسقِطَ الصندوقَ عندما سلّمَهُ إلى قائد المماليك.

أصبحت القطعةُ المزيّفةُ الآن هناك في خزائن قصر الحمراء، تنامُ بأمانٍ في عهدة الله والمماليك، بانتظار حفلِ استعادتها العام في صباحِ يوم بعد غدٍ. أمّا إبراهيم، فقد هجَرَهُ كلٌّ من النومِ وربِّ آبائه العبرانيّين.

حاول ولأوّل مرّة منذ سنوات عديدة، استدعاءهم بالمزامير. ولم يخطر ببالِه سوى آية واحدة: "*إِلهِي، فِي النَّهَارِ أَدعُو فَلاَ تَستَجِيبُ، فِي اللَّيلِ أَدعُو فَلاَ هُدُوَّ لِي*".

****

أراكَ سحابةً فيفيضُ زَرعِي

سمع الوزير، الذي كان يترجّل بتثاقل عند بَوَّابة قصره هذه الكلمات والتفتَ مندهشاً، إلى ذلك الصفّ الطويل الدائم من أصحاب الحاجات الذين يجلسون القُرفُصاء. لقد قضى ليلة أخرى بلا نوم في قصر الحمراء، وكان مصمِّماً على قضاء ساعة أو ساعتَين من الصباح في جنّته الخاصّة قبل العودة إلى الإشراف المزعج الذي لا نهاية له على الاستعدادات. وفكّر بكآبة أنه إذا ساءت الأمور في الغد، فقد يتم طرده من فردوسِه إلى الأبد.

لم يكن ليلاحظَ حتّى أصحاب الحاجات الذين كانوا جزءاً من المشهد ومجرّد خلفية بشرية غامضة. أمّا هذا الصوت، فلم يستطع تجاهُلَه. لقد رأى في الحال الشخص الذي تلا هذا البيت: كانت امرأة شعثاء مغبرّة، ولكنها محجّبةٌ ومحتشمةٌ على نحو لائق. نظرت إليه نظرةً ثابتة. ثمّ تابعت، بلغتها العربية الفصحى التي لا تشوبها شائبة، ولكنها لم تكن تتكلّم، بل تهتف، بنبرةٍ حادَّةٍ غريبةٍ لعبت على أوتارِ قلبِه كما تعزف القوس على الرباب:

أراكَ سحابةً فيفيـضُ زَرعِي
لِما خَزَرَت رُعودُك خافِـقَيَّ؟
وأنتَ الرّيّ والصحراءُ روحي
فلا تستـــكثرن مَطراً عَليّا

تردّدَ صدى هذا الاحتكاك في الصوت، وتلكَ الرعشةُ في جسدِ لسانِ الدين المنهَك، لم يعرفه لسنوات. شعرَ بأطرافِهِ ترتعشُ معها، وشعرَ بماذا أيضاً؟ بمملوكِهِ العجوز كما سمّاهُ أبو عبد الله، يحاول إيقاظ نفسه.

قال: "يا لها من طريقةٍ قديمةٍ ساحرةٍ لجذب انتباهي. مَن أنتِ، يا امرأة؟"

"أنا التي كانت قَينَة عليّ الخيميائي، يا سيّدي".

حدّق فيها الوزير للحظة، ثمّ استدار نحو بَوَّابة قصره وقال للحرّاس: "دعوها تدخل".

****

جلست لبنى على مقعدِ في غرفةِ انتظارِ خافتةِ الضوء، وغرقَت في أحلامِ يقظتِها مجدّداً: كيف وجدت نفسَها جالسةً منتصبةً بجانبِ القبرِ قبل ساعةٍ أو نحو ذلك، وعيناها مفتوحتان على مصراعَيهما على ضوء الفجر البارد، ولكنَّ عقلها لا يزال نصفُهُ مشغولاً بالحُلم الذي أيقظَها.

كانت في المنزل القديم، منزلُ عليّ قبل مقتلِهِ مباشرة، في ذلك المساء الأخير، وقد أنهت الصاعقة حياتَها الثانية. كانت في المطبخ، تعدُّ العشاءَ وتهمهمُ بأُغنيَّةٍ كانت والدتُها تغنّيها دائماً عندما كانوا في الهواء الطلق في الجبال، في تلك الحياة القديمة. جعلها طَرقٌ مفاجئٌ على البابِ الرئيس المطلّ على الشارع تجفلُ في مكانِها. فالتفتَت لتفتحَ الباب، ولكنّها سمعت صريراً عندما فتَحَ عليّ الباب بنفسِه.

ثمّ سمِعَتِ المحادثةَ يتردّدُ صداها بوضوحٍ من مدخلِ القاعة عبر الفِناء، الذي كان فِناءً منذ أقلّ من ثلاثةِ أسابيع، وأصبح بلا قاعٍ مثل وادٍ في جهنّم.

قال صوتٌ مجهول: "لقد أخبرتَني أنه سيكون جاهزاً". كان صوتاً رقيقاً، ولكنّه صوتٌ باردٌ لدرجة أنه جعلَ لبنى ترتجف حتّى الآن، حتّى بعد أن انكسر الصوت بمرور الزمن وفي عالم الأحلام. "قلتَ لي: إنها مجرّد أيّام قليلة. لقد وعدتَني، وأنتَ تعرفُ ما يحدثُ لمَن يخلفون وعودَهم".

قال عليّ: "ولكن ... ولكنني بحاجة للمزيد من الوقت. أرجوكَ، القليل من الوقت فقط. ولا تنس الضغوط ... والديون، هناك النحّاس كبداية. سيكون من المفيد إذا استطعت فقط ...".

فقال الصوتُ المجهولُ بهدوء: "إذن، إليكَ ذهبي". ثمّ تحدّثَ هامساً،

ولكن الهمسَ كان مسموعاً عبر الفِناء، وعبر هذا الشقّ في الزمن. "ولكن، اعلم أنكَ من الآن فصاعداً لن تكسبَ منّي شيئاً سوى غضبي".

أُغلِقَ الباب، على الرَّغم من أن لبنى لم تسمع أيّ خطوات تغادر. هل كان الزائر المجهول لا يزال هناك في البيت؟

سمِعَت عليَّاً يقول: "يا إلهي .." لم تسمعه يدعو الله من قبل. "يا إلهي ... لو كان بإمكاني فقط التراجع عمّا فعلتُهُ. فقط لو كان بإمكاني ذلك". ثمّ أُغلق باب الحُلم أيضاً، ووجدت لبنى نفسها مستيقظةً، جالسةً بجانب قبر عليّ. هناك في ضوء الفجر الرمادي عرَفَت أنَّ الحُلم لم يكن حُلماً، بل كان ذكرى حقيقة واضحة وعرفَت صاحبَ الصوتِ المجهول. وعرفَت ما كان عليها فعلَه. وكان عليها أوّلاً وقبلَ كلِّ شيءٍ قتلَ مخاوفِها، من الضربِ والانتهاكاتِ التي ستتعرّضُ لها من شقيقِ عليّ، والخوف الآخر، والذي كان بلا وجه وبلا شكل، من الرجل الذي تحدّث إلى عليّ في مدخلِ البيتِ في تلكَ الليلة، ذلك الرجلُ الملثَّمُ بعينَين خضراوَين.

****

سألَ لسانُ الدين القَينَةَ: "إذن، لمَن أدين بهذا الشرف؟" وقد سمعَ كلماتِه كما لو أنها جاءت من فمِ شخصٍ غريبٍ، وقد عرَفَ السبب: فجزء منه ماتَ من التّعب، ولكنَّ جزءاً آخرَ منه كان حيَّاً أكثر ممّا كان عليه لفترةٍ أطول من أن يستطيع تذكّرها.

أخبرتهُ لبنى بكلِّ شيء. تحدّثت عن مقتل عليّ، وعن الصاعقةِ والحريقِ، وعن إقامتِها القصيرة في الكهفِ الذي حَمَلت إليه رسائل عليّ، وعن أسرِها واستجوابها من قِبَلِ الرجل الذي أطلقوا عليه اسم "الشيخ ليث" في الكهفِ الآخرِ الأكبر، واستجوابَها الآخر من قِبَلِ صاحبِ الليل. وأخبرَتهُ عن الرجلِ المغربيّ اللطيفِ وعروضِه الشُّجاعة للمساعدة (ولاحظَت أنّ

الوزير قد ابتسمَ عندها ابتسامةً عريضة)، وعن بحثِها في الكهفِ الأوّلِ مع أبي عبد الله والهجومِ اللاحق عليهم في سوق البَيَازين، وعن لوذِها الطويل في المقبرةِ وحضورِها المروِّع لدفنِ شقيقِها. وأخيراً أخبرتهُ عن الحُلم الذي لم يكن حُلماً، بل ذكرى، وعن تلك المحادثة التي سمِعَتها في بهوِ المدخل. واختتمت قائلة: "سيّدي، على الرَّغم من أنني لا أستطيع تمييز طبيعة الخيط الذي تنتظم فيها هذه الأحداث المتباينة، إلّا أنني أعلمُ أن هناك خيطاً ما. وأنا أعلم أنه قد يؤدّي إلى مزيدٍ من الأحداثِ والمخاطرِ التي لا يمكنني تخيّلها حتّى. وأنا أعلم، يا سيّدي، أن الخيطَ بيدِ الرجل صاحبِ العينَين الخضراوَين الذي استجوبَني. لذلك أتوسَّلُ إليكَ، سعادتكَ، أن تجدَ ذلك الرجل. قبل فوات الأوان".

شابَكَ لسان الدين، الذي استمع كما لو كان منتشِياً بسردِ القَينَة الغريبِ، أصابعَهُ تحتَ ذقنِهِ وأغلقَ عينَيه لدقيقةٍ وأكثر، حتّى تخيّلت لبنى أنه قد نام. ثمّ فتحَ عينَيه وتملّى فيها من وجهِهِ الممتلئ. "إذن، وقبل فوات الأوان لمنع الأحداث الوشيكة والمحفوفة بالمخاطر، والتي نجهلُها تماماً، ينبغي عليَّ إيجادَ رجلٍ والقبضَ عليه، والذي يُعرفُ فقط باسم الشيخ ليث، والذي لا نعرف عنه شيئاً سوى عينَيه الخضراوَين، والذي ينبغي البحث عنه في موقعٍ تحتَ الأرض غير معروفٍ تماماً. وهذا كلّه اعتماداً على شهادة شاهد واحد، والذي تصادف أنه ليس امرأة وحسب، بل امرأة قَينَة أيضاً" مسّد خدّه وقال: "سامحيني، ولكنَّ هذه الأدلّة ملبّدةٌ بالغيوم إلى حَدٍّ ما ..." وأثارت العبارة حماسه عندما قالها: أثارته تلك الصورة الشِّعرية التي استخدمها، السحابة التي تصبُّ أمطارّها الشهيّة على صحراءِ هذه المرأة العطشى ... وتساءلَ عمّا إذا كان أبو عبد الله قد قدَّمَ لسيِّدِها الجديد عرضاً لشرائها حتّى الآن. يمكنهُ حينئذٍ المزايدة عليه، ولكن، هل يمكنه فعل شيء كهذا لصديقه القديم؟

قالت لبنى: "إذن، يا سيّدي، أعتقدُ أن هناكَ شخصاً واحداً يمكنه تبديد هذه الغيوم". ثمّ أضافت مُطرقةً برأسِها: "أو بالأحرى، شخصان. ولكنّني لا أعرفُ ما الذي حدثَ لهما، أو حتّى إذا ما كانا لا يزالان .. على قيد الحياة" وكان صوتُها قد تلاشى.

"هل تقصدين أبا عبد الله وعبده؟" فنظرت لبنى إلى الوزيرِ وأومأت برأسِها.

أبو عبد الله على قيد الحياة وبصحّة جيدة.

فسألت لبنى: "وسِنَان؟ أعني فتى أبي عبد الله؟"

فابتسمَ لسان الدين لنبرةِ القلقِ والحماس التي لم تستطع إخفاءَها في سؤالها، وقال بلطف، بل وربّما مع القليل من الحزن. "سِنَان أيضاً على قيد الحياة وبصحّةٍ جيّدة" فرأى عينَيها تلتمعان فوق اللثام، ونظرِ إليهما مليّاً. ثمّ قالَ أخيراً: "يا امرأة، الله وحده يعلم لماذا، ولكن كلامكِ حرّكني بطريقة لا أستطيع التعبير عنها، أنا .. أنا .."،

ولكنَّ الكلمات خذلتِ الوزير، لذلك صفّقَ مرّتَين بدلاً من ذلك.

ظهر عبدٌ مُسنٌّ، وهو كبير خَدَم القصر.

قال لسان الدين: "خُذ هذه المرأة إلى مساكن الجواري الخادمات. وأطعِمها واعتنِ بها. ثمّ أرسِل رسالة إلى المستشفى. واطلب منهم إطلاق سراح أبي عبد الله وعبده وإحضارهما إلى هنا. بأسرع ما يمكن".

الفصل التاسع والعشرون

شدّ أبو عبد الله ملامحَ وجهِهِ السنجابيّ في نظرةٍ مملوءةٍ بالاشمئزاز. "وماذا عن التغذية الجاموسية الناموسية التي كانوا يقدّمونها لنا، يا لسان الدين ...".

قال سِنَان: "التغذية الجالينوسية، يا مولاي". فابتسم لسان الدين بتعبٍ ... من خلال مكتبته الكئيبة. "ولكن، يا سيّدي، ينبغي أن نخبرَ سعادَتَهُ عن اكتشافاتنا. فالوقت يمرّ ...". عرف سِنَان جيّداً أن الاقتحام المباشر إلى هذه النقطة كان ذروة فساد آداب الحديث. ولكن، بما أن الموضوع يتعلّق بمؤامرةٍ من البارودِ ضدّ غَرنَاطَة ... فقد أدرك سِنَان أيضاً أن سيّده يمكن أن يكونَ بارداً بشكل مزعج مثير للسخط تحت الضغط.

كان أبو عبد الله ينظر إليه كما لو كان جالساً على قمّة ثلجية في الأطلس الكبير. "العجلة من الشيطان، يا سِنَان، والأناة من الرحمن. كما كنتُ أقول، يا لسان الدين، مع تلك الفوضى الرهيبة في توقيت إطعامنا، فلم أكن أعرف إذا ما كنتُ سوف أموتُ من الجوع أوّلاً، أو سأُصاب بالجنون مثل بقية نزلائكَ في المارستان".

قال الوزير بلطف: "يا صديقي العزيز، يسعدني بحرارة رؤية أن الله قد حَفِظَ عليكَ جسَدَكَ وعقلكَ. ولكن ..." ثمّ صمتَ لوهلة. "على الرَّغم من أنني يجب أن أقول إنني لم أُفرِج عنكَ من حجزكَ الوقائي وَفقَ رأيي أنا. لذلك هناك خطرٌ كبيرٌ علينا جميعاً، بما في ذلك عليّ أنا".

فسأله أبو عبد الله: "لماذا أطلقتَ سراحنا إذن؟".

"بسبب معلومات استخباراتية، وردَت من ... لنقل من مخبرٍ مميَّزٍ على نحو خاصّ. معلومات تتطرّق إلى مسائل عُليا بالغة الأهمّية. وليس أقلَّها مسألةُ المؤامرة، المحكومِ عليها بالفشل بالضرورة، لسرقةِ ياقوتةِ سلطاننا المبارك"

فتحَ سِنَان فمَهُ ليتحدّث، ولكن نظرةً من أبي عبد الله أسكتَتهُ.

وتابع الوزير: "وبهذه المعلوماتِ التي تلقَّيتُها" وأدار فجأة فانوس وجهه الداكن بأكملهِ على أبي عبد الله: "ماذا تعرفُ عن رجلٍ ملثَّمٍ بعينَينِ خضراوَين؟"

قال المغربي الضئيل: "أوه، ليس كثيراً"، وهو ينظر بلا مبالاة في الكوّات الملآنة بالمخطوطات "باستثناء أنكَ لا تريد أن تصادِفَهُ في زقاقٍ مظلمٍ في الليل، هل تتذكّر ذلك، يا سِنَان؟ لقد قلتُ: "لا تريد أن تصادفه في زقاق مظلم في الليل " وهذا ما حدث معنا للتوّ! حرفياً، وأخذ يضحك على مزحتِه.

لم يبتسم سِنَان.

وتابع أبو عبد الله: "كانت الليلةُ التي وصلنا فيها إلى هنا إلى غرناطَة. قبل دقيقة أو دقيقتَين فقط من الصاعقة التي ضربت رَبَضَ البَيَازِين. ولكنَّ سِنَاناً يمكنُهُ أن يخبركَ المزيد عن تلك العينَين الخضراوَين. لقد التمعت تلك العينان في وجهكَ، أليس كذلك، يا فتى".

قال سِنَان للوزير الأعظم: "يا سيّدي، الهجوم علينا في سوق البَيَازِين، كان قبل وقت قصير من نقلِنا إلى المارستان ... والرجل الذي استهدفني كان هذا الشخص نفسه. كانت عيناه خضراوَين، وكان ملثماً جيّداً وملتحفاً بطيلسان. ولكن، سعادتكَ، لدينا معلومةٌ أكثر أهمّية بالنسبة إليكَ ..".

قاطعَهُ أبو عبد الله: "في الحقيقة، وبفضل قدراتي في الاستنتاج والاستدلال، والتي شحذَتها فتراتٌ طويلةٌ كما تعلم من الدراسة مع أشهر المناطقة من اليونانيّين والهنود والصينيّ،ين". وعبس ومسّد لحيتَه ونظر إلى سِنَان "ماذا كانت يا فتى، المعلومة الأكثر أهمّية؟"

" الدواء، يا مولاي ".

"أوه، نعم، بالتأكيد. الدواء" وشرَحَ أبو عبد الله مع الكثير من الارتباك والكثير من الزيادات التي وضعها من عنديّاته اكتشافهم للغزِ المخفيِّ في قصيدة الخيميائي. وتابعَ الوزيرُ كلماتِهِ عن كثب، وكانت ابتسامةٌ بطيئةٌ تظهرُ على وجهه. واختتم أبو عبد الله قائلاً: "سوف يحلّ سِنَان الأرقام المعادِلة للحروف الأبجدية من أجلكَ".

فقال سِنَان: "سيّدي، أنا متأكّدٌ تقريباً من أن النظام المستخدَم هو الأبجدية الشرقية. وبناءً على ذلك، فإن القيمة العددية للأسوَد، والتي نعتقد أنها تعني الفحم – قلعة بطليطلة هي 300. والأصفر، أو الكبريت، أي جبل قادس هي 200. والأبيض أو الثلج الصيني، رُجَمُ أرغون" هي 1500".

كان لسانُ الدين الآن يومئُ برأسِه بقوةٍ بخدَّين مرتجفَين: "ثلاثة أجزاء زائد جزأين اثنَين زائد خمسة عشر جزءاً ... ما يسمّى بالوصفة السورية، شُرِحَت هذه الوصفة لأوّل مرّة في كتاب "الفروسية والمناصب الحربية" لحسن الدمشقي، المعروف باسم الرمّاح، وتوجد نسخةٌ منه هناك، في قسم العلم والتِّقنِيَّة. وهي النِّسَبُ نفسُها التي تستخدمها الترسانة السلطانية هنا في غَرنَاطَة منذ سنوات، بل منذ عقود في حقيقة الأمر. ولقد عرفنا جميعاً أنها سوف تتسرّب عاجلاً أم آجلاً ..." وعبَسَ وغضّنَ حاجبَيه "وفيما بيننا، وعلى الرَّغم من أنه ربّما يكون سرّاً آخر مفضوحاً الآن، فإن "الدواء"، نعم، هكذا يسمّيه البعض، بعيدٌ كلّ البُعد عن كونِهِ سلاح الدمار الشامل

الذي حاول صنعه بعض الناس في أوساط معيّنة. ولكن، هناكَ تلك الدعاية كلّها حول الدواء، والتي تقول إن الشيطان بنفسه هو الذي صنعه، وحول المدافع التي تبخّ نار جهنّم وتمطِرُ القذائف وكأنها الطير الأبابيل في القرآن الكريم يوم الفيل، وتسبِّب الجروحَ المستعصيةَ غير القابلة للشفاء، والوَفَيَاتِ المستمرّة من آثارِ الدخان السامّ. هذا كلّه هراء، على الرَّغم من أن هناك بالطبع الكثير ممّن ينخدعون به".

جلسَ الوزير. ونظر إليه سِنَان بدهشة. ولكنّ أبا عبد الله كان يومئ برأسه بالموافقة الآن "لا بدّ أن أقول، يا لسان الدين، أنَّ هذا كلّه يتوافق مع ما أتذكّرُ رؤيته في الصين، على متنِ واحدةٍ من تلك السفن التي يسمّونها الجنك. لقد عرضوا على شرفي، بصفتي السفير المفوَّض فوق العادة لسلطان الهند، بعض ما يسمّى بالأسلحة المضادّة للقرصنة التي طوّروها. وإذا أردتَ رأيي، فقد كانت فعاليّتها أشبه بضرطةٍ في مهبِّ الريح".

وتابعَ الوزير: "ولنأخذ مثالاً أقلَّ غرابةٍ قليلاً من مثالكَ، ابن ملك إنجلترا، الذي يسمّونه الأمير الأسود. لقد استخدم المدافع في انتصاره الكبير على الفرنسيّين قبل عشرين عاماً أو أكثر، وتلك الأسلحة الصغيرة المحمولة باليد التي يسمّونها المكاحل. ولكنَّ الذي حَسَمَ المعركة في النهاية هم رماةُ الأسهمِ بأقواسِهِم الطويلة. وحصَلَ الأمرُ نفسُه عندما قاتلَ العام الماضي من أجل دون بِدرو، ضدّ هنري الزنويّ. الأقواس الطويلة الإنجليزية ... هذه هي التِّقنِيَّة التي ينبغي علينا امتلاكها، وليسَ ما لدينا نحن. أو إذا فشلنا في ذلك، يكفي فيلقٌ من رماةِ القوسِ والنشّاب، وهو ما لدينا. الدواءُ مجرّد صوتٍ مرتفع وغضب محض".

قال سِنَان بعد فترة صمت: "إلّا إذا تمكّنَ المتآمرون، يا سيّدي، بطريقة ما من تطوير إمكاناتها لزيادةِ قوّتِها التدميرية". عبسَ الوزيرُ، ثمّ أشارَ إلى سِنَان ليتابعَ كلامه: "لا يمكنني، يا سيّدي، مقاومة شعوري بأن هناك لغزاً

آخر مخفياً في نهاية قصيدة الخيميائي: النار برقٌ قاتلٌ في ديمةٍ ... . مرّت بها هونا رياحٌ صَرصَرَا".

قال الوزير، مكمِلاً الأبيات، وهو يشعرُ أنه مسكونٌ بصورِ المطر: "*ها كلّ ما تطحنه يغدو حبّةً*. قد تكون على حقّ، يا سِنَان. يمكنكَ فعلاً أن تكون على حقّ ..." وهزّ رأسَهُ: "لو كنّا نعلم فقط ...".

علقتِ الكلماتُ في الهواء مثل غبارِ الكُتُب في صمتِ المكتبة. وجلسوا لفترة من الوقت واستمعوا إلى صوت النافورة خلف النوافذ الشبكية.

قال سِنَان أخيراً مستشعراً أن الوقت قد حان للحديث عن اكتشافه الآخر: "سيّدي، أعتقد أننا توصّلنا إلى فكرةٍ ثاقبةٍ بخصوصِ لغزٍ آخر، اللغز الموجود في الرسالة اللاتينية التي اعترضتَها. أقصدُ، يا سيّدي (الأحمر) أي الهدف الظاهر للمتآمرين".

تدخّلَ أبو عبد الله وكأنهُ قد استيقظَ من غفوة: "آه، نعم، باركَ الله فيك، يا سِنَان، لتذكيري، كنتُ على وشك أن أتحدّث عن هذا الآن، عن ثاني استنتاجاتي المهمّة. فبعد تطبيق المبادئ الأكثر صرامة لأرسطو ... المنطق الأرسطوقراطي على هذا اللغز، أدركتُ أن المتآمرين قد يخطّطون ليس لسرقة الياقوتة وحسب، بل لشنِّ هجومٍ على قصر الحمراء نفسه أيضاً، القصر الأحمر للسلالة النصرية"، وتوقّفَ قليلاً للسماح للكلمات بأن تتوغّلَ في مسامعِه. ولكنّهُ لم يكن بحاجةٍ إلى ذلك، فقد اندهشَ لسان الدين على الفور. وتابع أبو عبد الله: "ولكن، كيف، قد تسألني، كيف توصّلتُ إلى هذه النتيجة العجيبة المخيفة؟" وراح يتجوّل في الغرفة، كما لو كان يبحث عن الجواب بين الأكوام الضخمة من الكُتُب. "كيف؟ أنا أسأل نفسي" ونظر إلى سِنَان وقال وهو يشدّ أسنانه "سِنَان، كيف؟".

"يتعلّق الموضوع، سعادتكَ، بجنس الكلمة المستخدَمة في الرسالة

اللاتينية، فإذا كنتُ أتذكّر الكلمات جيّداً، أعتقدُ أنكَ، يا سيّدي، قد قلت: *Rufi* وهي كلمة مذكّر، ومع ذلك فإن *Rufa* مؤنّثة مثل كلمة الحمراء باللغة العربية. وقد تساءلتُ ... إذا كان ذلك ممكناً" وتنحنَحَ سِنَان وبلعَ ريقَه. لم يكن متأكّداً حتّى من أنه تذكّر الكلماتِ الغريبةِ على النحو الصحيح. ولكنّ الصدمة الدماغية المصحوبة بالارتجاج في مستشفى المجانين بدت فجأة مربِكةً وغير ممكنة ومقبولة أيضاً في الجوّ الأكاديمي البارد لمكتبة الوزير. قال سِنَان وهو يلقي نظرة على أبي عبد الله: "أو بالأحرى، قد تساءلَ مولاي، وقد كانت سلسلة أفكاره "الأرسطوقراطية" هي التي أوصلَتهُ إلى هذه النتيجة، رغم اعتقادي أنه قصد أن يقول الأرسطوطاليسية".

قال أبو عبد الله وهو يومئ برأسه موافقاً بشدّة: "شكراً لكَ، يا بني".

وشابَكَ لسان الدين للمرّة الثانية هذا الصباح أصابعه تحت ذقنه وأغمض عينَيه لفترة طويلة. ثمّ قال أخيراً: "إذن، نحن على يقين بما لا يدع مجالاً للشكّ من أن المؤامرة المفترَضة التي كشفنا عنها تنطوي على استخدام الدواء. أمّا هدف المؤامرة، فقد يكون الياقوتة أو الحمراء أو كلَيهما. ولكن، ليس لدينا ما نخشاه في الحالات جميعها. فالياقوتة مخفيّة في عمق قصر الحمراء. إنها في أمان كما كانت يوماً قبل اكتشافها في أحشاء الأرض" صرخ طائر في الضوء الساطع ما وراء النافذة الشبكية. "أمّا بالنسبة إلى قصر الحمراء، فهو محصَّنٌ بشدّة بقوّاتِ النخبة من المماليك، وتحرسه أسراب من سلاح الفرسان البربر ودوريات المشاة النظامية. وقد رفعتُ مستوى الأمن إلى مستوى لم يسبق له مثيل في سلطنة غَرنَاطَة، نظراً لأهمّية احتفال الغد".

"ولكن، لا تنسَ، يا لسان الدين، أن لديهم الدواء".

رفع الوزير ذقن رجل الدولة الثقيلة "حتّى لو كان هناك خمسمئة متآمر، مجهّزين بأحدث الأسلحة النارية، فسيتمكّنون بالكاد من خدش جدران

قصر الحمراء الهائلة قبل أن يُقتلوا عن آخرهم. هل تعرف كم تستغرق إعادة تذخير حتّى واحدة من "المكاحل" الضئيلة؟ أربع دقائق كاملة، والتي يمكن خلالها لرامي القوس المُدَرّب أن يطلق عشرات من الأسهم" وتوقّف لتذوّق كلامه: "لا" ثمّ تابع "ليس علينا أن نخاف من أيّ شيء، إلّا إذا ...".

"إلّا إذا ماذا، يا لسان الدين؟"

"إلّا إذا كان عبدُكَ اللامع والدقيق على حقّ، وهناك لغزٌ آخر مدفون في البيت الأخير". وأطرق برأسه.

تنهّدَ بعمق، وصَمَت.

وتابع الوزير فجأة "أو إلّا إذا كان هناك بعض ... بعض الثغرات في دفاعات قصر الحمراء. مثلما كان الوضع في سنة ستّين".

فسأل سِنَان: "عام الستّين، يا سيّدي؟"

"عندما قام البرميخو، الرجل ذو الشَّعر الأحمر على البَوَّابة إذا كنتَ ما تزال تذكره، بتنظيم أوّل انقلاب له. كنّا نصلحُ جزءاً من السور، وتسلّقوا ودخلوا عبر الثقب في البناء ..." وفجأة نهض الوزير شامخاً ببشرته الداكنة كجنيٍّ أُطلقَ من قُمقُمِه. "كفى، كفانا رضا عن الذات! سوف أبحث في قصر الحمراء بأكمله".

قال أبو عبد الله: "يا إلهي، يا لسان الدين، تبدو وكأنكَ ستنطلق كعاصفة في المكان. تبدو أسود كالرّعد".

نظر الوزير إلى صديقه. *أسود كالرعد ... خَزَرَت رعودُكَ خافقيَّ* ... وسمح لعقله بالتجوّلِ للحظةٍ في مساكنِ الجواري، هناك إلى قَينَة الخيميائي، وشعر بوخز مثير للشفقة من الغيرة عند التفكير في تركِ أبي عبد الله بالقرب منها.

"من الأفضل أن تأتي أيضاً، يا صديقي. وأنتَ، يا سِنَان. يمكننا الاستفادة من قدراتكَ في الملاحظة".

"ولكنني ظننتُ أننا لا زلنا مشبوهَين وضمن دائرة الشكّ في جريمة القتل، يا لسان الدين".

"اللعنة على الشكّ والشبهات! أنا وزير غَرنَاطَة، وأنتَ تحت حمايتي!"

****

شعرَ سِنَان أنه قد استكشفَ كلَّ زاوية من زوايا القصر الضخم والحصن الهائل مع انتهاءِ فترةٍ ما بعد الظَّهيرة التي اجتاحَ فيها الوزيرُ قصر الحمراء كعاصفةٍ جامحةٍ لا يمكنُ مقاومتُها، من برج المراقبة الغربي الضخم الذي صعدوا إليه صباح اليوم الأوّل، والذي يبدو الآن أنه كان منذ فترة طويلة، إلى الحصون الشرقية البعيدة المشرفة على الهوّة الفاضلة بين المدينة العالية الرئيسة التي يمثّلها القصر عن الحديقة الغنّاء التابعة له، جنّة العَريف. لقد مشّطوا الأروقة والممرّات، وتفقّدوا الأبراج والحَمَامات، وتجاوزوا الحدود الشاهقة لسور قصر الحمراء الذي يبلغ طوله ميلاً ونصف. رأى سِنَان القصر بأكمله من موقعه في قلب هذه العاصفة البشرية، كلّ شيء باستثناء الحجرات الخاصّة للسلطان، التي عهد لسان الدين وبتردّد كبير بتفتيشها إلى ابن زَمرَك، كاتب السرّ السلطاني وفريق من الخصيان. وقد التقى الآن فريقا البحث في البهو الجديد المكتمل، حيث ذُهِلَ سِنَان باللوحات المكتملة لفنّاني الديكور النصرانيّين، ودهش من الثراء الهائل والغنى والرفاهية التي تميّزُ كلَّ شيءٍ من حوله.

وحده ابن زَمرَك الذي بدا منيعاً ومحصّناً أمام هذه الروعة كلّها، والتي أخذ يتمعّن فيها بسخرية واضحة. قال وهو يتفرّسُ في الرصيف الرخامي اللامع: "لا توجد فضلات قوارض، يسعدني هذا. ولكنني لا يسعني إلّا

الإشارة إلى وجود نوعَين أكبر من الحشرات، على حدّ تعبير وزيرنا الأعظم العزيز، وأحدهما من أخطر الأنواع على الإطلاق، وهو الأسود". وعبس في وجه أبي عبد الله وسِنَان بنظرة ملؤها الازدراء السافر، ثمّ التفت إلى لسان الدين: "ما الذي تنوي فعله بحقّ الله، سعادتكَ؟ هذان هما المشتبهان الرئيسان في قتل أحد مماليك جلالته!" وأدار أتباع ابن زَمرَك الخصيان وجوههم السمينة على الرجلَين، وذاق سِنَان سُمّ نظراتهم.

أجاب لسان الدين بهدوء: "إنهم في ذمّتي، وفي حال لم تلاحظ، أودّ تذكيركَ بمنصبي كوزير غَرناطَة، ممّا يعني أنني رئيسكَ".

قال ابن زَمرَك مقتبساً من القرآن الكريم: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ..." وفي حال لم تلاحظ رغم قدراتكَ العالية في الملاحظة، فإن الله سبحانه وتعالى وحده هو المتعالي الجبّار. وفي حياتنا الدنيا، في عالم الخلق والهلاك هذا، يأتي وزراء ... ويذهب وزراء ... حتّى الوزراء الأعظم". ودلَفَ بصمتٍ إلى حافَّة القصر، ليجتاز الأعمدة بسرعة، يرافقه خصيانه الصامتون.

شعر سِنَان بنظرة كاتب السرّ السلطاني وهي تخترقه من خلال الأعمدة. فحاول تشتيت انتباهه من خلال التفكير مجدّداً في ذلك اللغز في وسط القصر. القصر الجديد، لأن هذا هو ما كان عليه فعلاً: مسكن ملكي جديد بالكامل، مكشوف أمامهم الآن بكامل أُبّهته وروعته، باستثناء نقطة واحدة محورية للتصميم بأكمله. لاحظ سِنَان استبدال الستارة القماشية حول القطعة المركزية بستارة أكبر من الخيمة بكثير، جناح صغير ورائع خلّاب من الديباج. وبقيت مفاجأة السلطان سرّية مغطّاة ومغلّفة الآن تغليفاً ملَكِياً.

لاحظ سِنَان أيضاً زوجاً من الحبال تخرج من داخل الجناح، كانت شبه مخبّأة في إحدى قنوات الصرف الأربع الضحلة التي قسمت البلاط إلى أربعة أرباع، مثل التصميم الرباعي لحديقة رسمية. كما لفتت الحبال انتباه الوزير، وأخذ زيد صاحب الأشغال يشرح تِقنِيَّتها له. "كما ترى، سعادتكَ،

إذا أمسكتُ الحبل، أو الحبلَين، وسحبتُ بلطف، يسقط الجناح كاشفاً عن مفاجأتنا في الداخل".

سألَ أبو عبد الله: "هل يمكن أن تقدّموا لنا عرضاً توضيحياً صغيراً؟ فربّما لا نحصل على مقاعد جيّدة في الحفل غداً ...".

قال الوزير على نحو قاطع: "لا، لن نفعل ذلك" وتابع مخاطباً صاحب الأشغال: "والآن، يا زيد، لقد انضممتَ إلينا في لحظة مناسبة. لقد أجرينا تفتيشاً شاملاً على قصر الحمراء لأسباب أمنية. وبحثنا في كلّ زاويةٍ وفي كلِّ ركنٍ وكلِّ جزءٍ من القصرِ وملحقاتِه، ويسعدني القول إننا لم نجد شيئاً غير عادي" وتلا على زيد قائمة طويلة من المواقع التي فتّشوها. ورأى سِنَان ابن زَمرَك في أثناء تلاوة أسماء الأماكن يتراجع، ولكنه بقيَ بالقربِ من المجموعةِ يستمع، وتابع الوزير "ولكنني أتساءل مع ذلك إذا كنتَ بصفتكَ صاحب الأشغال قد تعرفُ أيّ أماكنَ سرّية للاختفاء في قصر الحمراء المجيد هذا، أي بعض الأماكن التي ربّما تكون قد غابت عنّا". ونظر بعناية إلى ملامح زيد البربرية الجميلة.

لاحظ سِنَان أن صاحب الأشغال قد مرّر يدَه على وجهِه، كما لو كانَ يركّزُ أفكارَه "أعتقد، يا سيّدي، أنكَ لم تدّخر جهداً كما يقولون" وتوقّفَ وفكَّرَ مجدّداً. ثمّ أضاءت ابتسامةٌ خافتةٌ عينَيه "على الأقلّ في قصر الحمراء. ولكن، هناك أماكن أخرى، سعادتكَ، أماكن غير معروفة حتّى لحضرتكَ".

قال لسان الدين عابساً: "ما الذي تقصده؟ أين؟".

ابتسم زيد الآن: "تحت قصر الحمراء، سعادتكَ".

لم يلاحظ أحدٌ سوى سِنَان لحظةَ الرعب متناهية الصغر التي تملّكت ذلك الوجهَ الشمعيَّ لابن زَمرَك، كاتب السرّ السلطاني.

الفصل الثلاثون

سَمِعَ سِنَان كاتب السرّ السلطاني يقول لقائد الخصيان: "وإجراءات الوقاية ضدّ السموم الجوفية، والانبعاثات الكريهة التي تُسبِّب الطاعون، هذا هو". واستدار سِنَان ليرى ابن زَمرَك يحملُ مضغةً داكنةً ولامعةً في أطرافِ أصابعِه الشاحبة. كان أكثر ما تشبهه كتلةٌ من سمادِ الحمير المفرزة للتوّ. رفعَها ابن زَمرَك بحذرٍ إلى أنفه وتشمَّمها بعمق. وأخذَ يشرح: "هذه الفوّاحة مكوّنةٌ من الكافورِ والفُلفُلِ وخشبِ الصّندل وزهور الورد، مطحونةٌ مع بعضِها البعض، ثمّ مخلوطة بماء الورد والصمغ العربي والطين الأرمني".

قال الوزير بصوت عالٍ لأبي عبد الله: "هل تصدّقُ أنه يقعُ فريسةَ هذا الدَّجل. يا إلهي، يمكنكَ شمّ رائحةِ ذلك الشيء من هنا، مخلوطةً برائحةِ ذلك الخلِّ المنتنِ الذي غَمَرَ نفسَه به وخصيانه. وذلك كلّه لدرءِ سمومِه المنتنة".

كانت الظلالُ تطولُ واقتربت صلاة المغرب بسرعة عندما مرّوا بالضريح الصوفي على المنحدر الجنوبي الشرقي لتلّة الحمراء. انعطفَ زيد صاحب الأشغال في المقدّمة من المسار الرئيس ودخل فجوة في جدارٍ مرتفعٍ وطُحلبِيّ. وتبِعَهُ بقيةُ فريق البحث بتردّدٍ واضح. سَمِعَ سِنَان همهمةً بين الرجال، ميّزَ منها بوضوح كلمة واحدة: الجنّ.

قال زيد صاحب الأشغال للوزير الأعظم: "أليس غريباً، يا سيّدي، أن يُقال دائماً إنَّ الجنّ يقيمون في أماكنَ مهجورةٍ مثل هذهِ الحديقةِ القديمة؟"

وافترّ وجهُهُ البربريّ الجميلُ عن ابتسامة. "كان هذا صحيح على الأقلّ عندما كنّا صغاراً، وكان هذا المكان بأكملهِ بمثابةِ ملعبنا الخاصّ".

سأل لسان الدين: "هل هذه هي ... الأماكن تحت الأرض التي يُفترَضُ أن نفتِّشَها؟ لا يهمّني، يا زيد، ذكريات طفولتكَ، بل أمن جلالته وسلامته. الويل لكَ إذا كنتَ تهدر وقتي".

قال زيد بهدوءٍ وهو يدخلُ الفجوةَ في الجدار: "سوف يتّضحُ كلّ شيء قريباً، سعادتكَ". وتابع عندما دخلَ الوزير: "أنا متأكّدٌ، يا سيّدي، أنكَ تعرف، سعادتكَ، نظراً لمعرفتكَ التاريخية الموسوعية، أنه عندما حكمَ أجدادي بنو زيري غرنَاطَة، فقد بَنَوا بعض التحصينات المتواضعة في الطرف الآخر البعيد من تلّ الحمراء. وفي سياق المسوحات التي سبَقت هذه الأعمال، اكتشفوا عدداً من الكهوف الطبيعية والشقوق التي اخترقت التلّ. قام أسلافي بتوسيعها تدريجياً، واستخدموها لتخزين الذخائر، ويقال الكنوز أيضاً. كان هذا قبل وقت طويل من عهد السلاطين النصريّين ...".

هسهسَ ابن زَمرَك الذي كان قد اقترب ليستمع: "*أطال الله أعمار سلالتهم*".

".. قبل أن يبنوا قصرَ الحمراء العظيم".

كان الرجال جميعهم بحلول هذا الوقت قد تجاوزوا الفجوة في الجدار، واخترقوا الشجيرات البرّية المتشابكة المتهالكة من المُدرَّجات المنهارة التي كانت ذات يوم حديقة، بعد أن أُجبِروا على الدخول في صفّ واحد بسبب ضيقِ المسار الهابط. لم يكسر الصمت سوى بعض الهمساتِ العرَضية من الأدعية ضدَّ الجنّ، أو الشتائم المقذعة عندما يتعثّرون بالجذور والأشواك أو عندما تعلقُ في جلابيبهم أو أسلحتهم.

استأنفَ زيد أخيراً حديثَهُ مخاطِباً الوزير بصوتٍ منخفض: "وتماماً، يا

سيّدي، كما كَسَفَت شمسُ النصريّين المشرقة السلالات السابقة جميعها، فقد دفعت عَظَمَة قصر الحمراء التي لا تُضاهى الناسَ لنسيان وجود الخزائن التي تقع تحته. ولكنَّ المعلومات الخاصّة بهذه هذه الأقبية والأنفاق قد تناقلناها عبر عائلتنا الزيرية، ولطالما أتيتُ إلى هنا!".

انطلقت صرخةٌ أشبه بصوت أنثوي رفيع عالٍ من أحد الخصيان الذي علق في أجَمَةٍ وأطبقَ عليه جنّيٌّ متخيَّل: "لقد تلبّسَني!" وتلتها ضحكةٌ متوتِّرةٌ من المماليك.

وتابع زيد: "... اعتدتُ المجيءَ إلى هنا عندما كنتُ صبياً، مع أخي الأكبر، رحمَهُ الله. كنّا نتجوَّلُ في الغرف والأنفاق تحت الأرض، باحثين عن الكنزِ المفقودِ لبني زيري. وقد اعتدنا حينها على أحلام اليقظة ... المتعلّقةِ باستعادة ثروات عائلتنا" ابتسم زيد بحزن "لم نعثر على الكنز أبداً. ثمّ أخذ الطاعون، في زيارته الأولى والأفظع له عام 48، أخي وأبناء عمّي الوحيدين المتبقّين. وكما تعلم، يا سيّدي، فأنا آخرُ فردٍ من بني زيري" وصمتَ قليلاً. كانوا يقفون في مكانٍ صغيرٍ أجردَ في الغابة. وكان أمامهم بابٌ عند سفح التلّ. بابٌ بدون مقبضٍ ولا قِفل.

قال زيد: "هذا .. الباب ... لم يكن هنا من قبل سوى باب محطّم قديم يتدلّى من مفصّلاته".

نظر إليه لسان الدين: "لا يوجد مدخلٌ أو مخرجٌ آخر؟" فهزّ زيد رأسه بالنفي، فأمَرَ الوزير قائلاً: "اكسروه"، وانقضّت مجموعةٌ من المماليك على الباب.

"لا، لا تلمسوه!" فاستدار الجميع نحو الصوت. كان هذا كاتب السرّ السلطاني مع نظرةِ رعبٍ على وجهه. "هذه حماقة! سوف تُطلقون العِنان لسموم الطاعون التي لا تُوصَف، والتي تكمن في أحشاء التلّ!" فتردّد المماليك، ونقّلوا نظراتهم من ابن زَمرَك إلى الوزير.

قال لسان الدين بهدوءٍ مثبّتاً نظرتَهُ الكئيبة على ابن زَمرَك: "لو أنكَ قد أبديتَ ما يكفي من الاهتمام لإلقاءِ نظرةٍ على نسخةِ رسالتي حول نظرية العدوى التي أرسلتُها إليكَ، لعرفتَ حقيقة الوباء. سوف تعرفُ أن السمومَ الوحيدة، أيُّها الزميل العزيز، موجودةٌ في دماغكَ. وسوف تعرف أن الوباء لا ينتشر عن طريق الهواء النتن، بل عن طريق العوامل البشرية. وستدرك أن المجموعات المعزولة عن بقية الناس، مثل البدو في عمق الصحراء والسجناء في الحبس، لا يتعرّضون للعدوى. باختصار .." وتابعَ وهو يرفعُ صوتَهُ أكثر: "الحماقةُ من نصيبِكَ أنتَ، لتشبُّثِكَ بأساطيرٍ عفا عليها الزمن، رغم كونها غير علمية وغير عقلانية وجديرةٍ بالنساء المسنّات العجائز! قلتُ لكم اكسِروه". ضرب المماليكُ الباب بقبضاتهم، ثمّ بأقدامهم، ثمّ بأكتافهم، ولكن، عبثاً. ثمّ وجد رفاقهم جذعاً صغيراً لشجرة ساقطة، وأخذَ الباب يتهاوى أخيراً باستخدامهم للجذع ككبشٍ ضارب. وقفَ ابن زَمرَك أمام الباب متجمّداً من الخوفِ والذهشة، يحيطُ به لسان الدين من جهة، وأبو عبد الله وسِنَان من جهة أخرى. كان زيد، الذي يحدّقُ بين المتفرّجين، يتمتمُ في أُذُن الوزير: " ... هذا شيء غريب لا يمكن تفسيره، سعادتكَ ... ليس لديّ أدنى فكرة عمّن قد يكون قد أغلق المدخل على هذا النحو ... ليست لديّ أدنى فكرة ..".

أخيراً بدأ اللوح المركزي للباب في التصدّع، وظهرت حافّة من الظلام داخل الإطار. أدركَ سِنَان أن ابن زَمرَك كان يقضمُ شيئاً رمادياً وزلِقَ المظهر، بين الاستنشاق المتناوب فيما بين فوّاحته وشيء آخر، وهو حَفنَة من أغصان الآس. هتفَ الوزير: "بصلٌ مخلّل؟ بحقّ السماء، أنتَ تعيش في عصر العلم والعقل، يا رجل".

أجاب ابن زَمرَك وهو لا يزال محدّقاً في الباب: "كما لو أن العلم والعقل سيحميانكَ من إرادة الله الحتمية. سوف ترى قريباً ما الذي تُطلقه، وستتمّ تبرئتي!" ضحكَ ضحكةً تقتربُ من حافّةِ الجنون، ثمّ أخذ يتلو من سورة

نوح: "إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..." وأخذ شمّة أخرى من الفوّاحة، وقضمةً أخرى من البصل. "قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوْا اللهَ وَاتَّقُوْهُ وَأَطِيْعُوْنِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ".

ولكنَّ الباب قد تحرّرَ من إطارِهِ في النهاية، وبدا للحظة على وشك أن يترنّح دونَ أيّ دعمٍ معلّقاً في الهواء، ثمّ سقط إلى الداخل مع ضربة خفيفة وموجة من الغبار. تفاداه المماليك على نحو لا إرادي، ومال المتفرِّجون الآخرون إلى الوراء كما لو كانوا قد تعرَّضوا للدفعِ بقوّةٍ ما ناتجةٍ عن سقوطِه. انحنى ابن زَمرَك إلى الأمام، وألقى نظرة خاطفة، مبهوراً، وهو يضعُ قماشةً من الكَتَّان المنقوعِ بالخلِّ على فمِه. وفي الداخل، كان هناك ...

الظلام. والصمت.

لم يرَ أحدٌ شيئاً سوى سِنَان: ومضة عينَين، مملوءَتَين بالغضب الذي لا يوصف والكراهية والعنف، كما لو كان وحشاً محاصراً في عرينه. كان متأكّداً تقريباً أنها ومضة خضراء.

ولكنهم سمعوا جميعاً، في لحظة الصمتِ تلك الكلمة الرقيقة والسامّة في الوقت نفسه، التي قُذِفت من فم النفق في وجه ابن زَمرَك، لقد بصقّها شخص ما مثل سُمّ الأفعى: أيُّها الخائن.

قال الوزير وهو يلتفت إلى ابن زَمرَك: "إذن، يا زميلي العزيز. ها هي سمومُكَ تخاطبكَ بصوتٍ بشري" ثمّ قال للمماليك: "خذوا كاتب السرّ السلطاني من هنا. خذوه إلى مكان يكون فيه آمناً من طاعونه ... ريثما أتمكّن من المجيء والتعامل معه. أمّا الذين في الداخل، والذين خانهم على نحو مفيد" وسمح لسان الدين لنفسه بابتسامة صغيرة، ولكنها مفعمةٌ بالنصر "فقد وقَعوا في الفخّ الذي صنعوه".

بدت ملامحُ ابن زَمرَك الشمعيّة على وشكِ الذوبان. فتحَ فمه وأغلقهُ مراراً وتكراراً، ولكنّه لم يُصدِر أيّ صوت. بدا الخصيّ ذو المظهر الوحشي والفكَّين الثقيلَين كما لو كان يتقدّم للدفاع عنه، ولكن المماليك نفضوه جانباً، وسار كاتب السرّ السلطاني لاهثاً حائراً في كلماته.

قال لسان الدين للمماليك والخصيان المتبقّين، الذين كانوا يحملون مشاعلهم: "اتبعونا". وتقدّم الجميع في مدخل النفق، وخلفهُ زيد صاحب الأشغال وسِنَان وأبو عبد الله. "ابحثوا في كلّ منعطف، وفي كلّ زاوية. وحاولوا القبض على أيّ شخص تجدونه حَيَّاً. ولا ترحموهم أبداً في حال المقاومة. يجب ألّا يكون هناك مَهرَب".

شعرَ سِنَان بأن السّواد يبتلعُ نفسَه. ضاقَ النفق، مثل العضلة العاصرة. كانت رائحتُهُ رطبةً ومتحلّلة. ثمّ بدأت حواسّه الأخرى في التكيّف، وآخرها عيناه. استَحضرتِ المشاعلُ الأعداءَ من الظلام. وجَفِلَ بسببِ نقرةٍ على كتفِه.

كان هذا سيّدُه، وهمسَ أبو عبد الله: "إذن، يا بني، يبدو كما لو أننا قد خرجنا من الغابة إلى النور أخيراً". فالتفتَ سِنَان إليه: كانت العبارة غريبة نظراً لوضعهم، عالقين هنا في كهفٍ في غابة عند الغسق. "أعني أن لسان الدين قبض على فأر الحقل أو الخُلد أو لا أدري ما كان اسم ذلك الحيوان. ولم يعجبني منظرُه قطّ ابن زَمرَك ذاك. والآن لدينا الفئران الأخرى جميعها محاصرة هنا".

"لا تتفاءَل، يا مولاي، فهذه هي لحظة الخطرُ الأكبر ... عندما تقبضُ على أوّل واحد منهم". وفجأة تردّد صوت والده عبر السنين. لقد كانوا في الهواء الطلق مع الرجال، يصطادون أسداً قتل للتوّ ذكَراً كبيراً مكتملَ اللِّبْدَة. ورأى سِنَان نفسهَ طفلاً جاثماً على الجثّة، مغرقاً بالضحك، كعادتِهِ في تلك الأيّام. فهمسَ والده، هذه هي *لحظة الخطر الأكبر، عندما تقبض*

على أوّل واحد منها ... وفي اللحظة نفسها التي كان يتحدّث فيها سمعوا زئيراً وحفيفاً واندفاعاً وتكسّرت الشجيرات، هجمت إحدى الإناث مندفعة بقوّةٍ نحو رمح والده الذي كان ينتظرها.

قال أبو عبد الله: "لحظة الخطر الأكبر ... هل أنتَ جادّ، يا سِنَان؟ لا تكن مبالغاً إلى هذا الحَدّ". ووضعَ يدَهُ على فمِهِ وتحدّثَ بنبرةٍ مخفضة: "لا بدّ أن هناك تعديلاً وزاريًّاً في الطريق مع خروج ابن زَمرَك من الصورة، فَكِّر بإيجابية. فَكِّر *بالمناصب الوزارية!*"

اندهش سِنَان وأومأ برأسه. وكان على وشكِ أن ينشّطَ ذاكرة سيّده بشأن منصبِهِ ككاتب سرّ، عندما لفتَ انتباهَهُ شيءٌ غير متوقّع تحتَ الضوءِ المتقطّع لمشاعل المماليك. لقد لمح شكلاً منتظماً يتكرّرُ إلى درجة أنه يخفي نفسَهَ بالتكرار: من أعلى ارتفاع يمكن أن يصل إليه الرجل إلى مستوى الأرض، كانت جدرانُ النفق تحمل علاماتِ النحت، أو الكشط بالأحرى، بانتظامٍ متعمّدٍ متكرّر. ويبدو أن العلامات قد حُفرت بواسطة معاول أو أزاميل. "مولاي، انظر.." وأشار إلى أبي عبد الله لينظر إلى الخدوش المتتالية المنتظمة.

فقال العجوز: "وماذا في ذلك؟ لقد سمعتَ زيداً صاحب الأشغال يحدّثنا كيف قام أجداده بتوسيع الكهوف الأصلية".

"نعم، يا مولاي. ولكنَّ ذلك كان منذ قرونٍ مضت. تبدو هذه العلامات كما لو أنّها قد حُفِرت مؤخّراً. كنت أفكّرُ فقط فيما قلتَهُ لي ... عن الثلج الصيني. قلتَ إنه كان يُكشَطُ من جدران الأقبية والمراحيض ونحو ذلك. ألَا تعتقد أنه ينبغي علينا تذكير الوزير؟ أقصد تذكيره بأننا نتعامل مع أشخاص يمتلكون الدواء؟ والله أعلم كم أنتجوا منه. ألَا تعتقد أننا يجب أن ننصحَهُ بالحذر؟"

كتم أبو عبد الله ضحكَتَه: "لقد ظننتُ أنكَ من المفترض أن تكون البطل الجريء الذي يمزّق أذرع الأشرار ... ولكنهم سوف يأتونَ إلينا بمدافعِهم أو مقاليهم وطواجنهم أو مهما كان اسمها. لقد أخبرتُكَ من قبل أنني رأيتُها ... تلك *الأسلحة النارية*. إنها تصلح بالكاد لإخافة الفزّاعات".

أدركَ سِنَان في أثناء حديثِ أبي عبد الله أن النفقَ قد ارتفع، وقد اختفت آثار الخدوش من الجدران. ثمّ خرجوا فجأةً دون سابقِ إنذارٍ إلى غرفةٍ فسيحة. وهبَّت نسمةٌ خافتةٌ من مكانٍ ما في الأمام. واختفت رائحةُ الرطوبة والعفن. كانت الغرفةُ جافّة، جافّة مثل مخزنِ التِّبن. ويغلِّفُها صمتُ القبور.

كسَرَ صوت أبو عبد الله الصمت: "ألَا تتذكّر، يا فتى؟ كما قال الوزير، الدواء ليس سوى مجرّد صوت وضجيج وغضب ..".

لقد رأوه بعد فوات الأوان: فقد طار من الظلام باتِّجاههم مشعلٌ آخر مشكّلاً قوساً نارياً وهبطَ على الأرض. وانطلق وميضٌ يعمي الأبصار، وجدارٌ من اللهب.

ثمّ سادَ الصمتُ مجدّداً، مع رائحةِ الرجالِ المَشويّين.

الفصل الحادي والثلاثون

استأنفَ أبو عبد الله حديثَه في أثناء سعالِهِ الذي قاربَ الاختناق: "هذا الدواءُ ليس سوى مجرّد صوتٍ وضجيجٍ وغضب. كما قلتُ لكَ".

كانت الغرفة ممتلئة بالدخان ذي الرائحة الكريهة وبارتجافِ وسعالِ وبصاقِ عشرين رجلاً غير مَشويّين، بل مُحمَّصينَ قليلاً فقط. نَفَضَ سِنَان مذهولاً ومندهشاً من بقائه على قيد الحياة بقايا الشَّعر المحروق من لحيته وحاجبَيه، وبصقَ ذلك الطَّعمَ اللاذعَ للأبخرة. ورأى على ضوء المشعل الوحيد الذي لم يطفئهُ الانفجار، رأى الوزيرَ ينظّفُ لحيتَه التي أصابتها حروقٌ سطحيةٌ ويلتفتُ إلى أبي عبد الله: "أعتقد أن المصطلح التِّقنِيّ هو ...".

ولكنَّ كلماتِه ضاعت في صرخةٍ رنّت في الغرفة وفي رأس سِنَان: *الموت الأحمر!*

وهَجَمَت عليهم مجموعة من الظلالِ والأشباح التي تجسّدَت رجالاً، انطلقت من الأفواه الخفية للأنفاق والكهوف الجانبية، هاتفين هتاف المعركة: "*قاتلوا كالسِّباع*".

وقد فعلوا. كانوا أقلّ عدداً، ولكنهم يعرفون مخطّط الغرفة في غمرةِ هذا الدخان والظلام والارتباك. اختار سِنَان أحد الأشباح المهاجِمَة وأدرك أنه غير مسلّحٍ، فضَرَبَه بالقوّة التي استطاعها كلّها، بكلتا يدَيه، وشعر أن إحدى قبضتَيه قد أصابت الهدف، وسمع صوتَ سحقٍ، ثمّ

رأى وجهَ شابٍّ صغيرٍ منتفخٍ ملطّخٍ بالدماء، قبل أن يسقط. حاول الشابّ النهوضَ، ولكنَّهُ سقطَ بضربةٍ قاضيةٍ بسيفِ أحدِ المماليك.

رأى سِنَان خنجراً يلتمعُ في يدِ الصبي المحتضِر، فانتزعَهُ ورمى نفسه وسط حشد المهاجمين. شَعَرَ بالشَّفرة تخترق اللحم والأعضاء، وشعر بها تطحن العظام، وسمعَ أنيناً، ثمّ صرخ آخر: "حَطّام! عليكَ بالعبد الأسوَد".

وتفاداه في الوقت المناسب. ولكنه أصبح الآن في مواجهة الجدار الصخري، وهجمَ عليه شبحٌ ضخمٌ طويل القامة، وابتسامةٌ مخيفةٌ مجنونةٌ على وجهِهِ، ويحملُ بكلتا قبضتَيه خنجراً منحنياً ضخماً، شكلُهُ بين منجلِ الحَصاد ومنجلِ جزِّ العشب. قال سِنَان لنفسه: *يا إلهي، لقد حانت ساعتي*. اندفع إلى الشبح بسكّينه الصغيرة، ولكنَّ مهاجمه كان يتفادى ضرباته ويضحك مع كلّ ضربة، وأصبحت الابتسامة أقرب والضحكة أعلى شيئاً فشيئاً. ثمّ تعالى صوتٌ من داخل تلك الضحكات: "أنا قاطع الرؤوس ... ولكنَّني لم أقطع رأسَ عبدٍ أسودَ من قبل".

جاءتِ النهايةُ الخاطفة. أصبحتِ التكشيرة الجنونية فوقه، بالإضافة إلى تكشيرةِ النصلِ أيضاً، ثمّ جاءت المعجزة من قوسِ ونشّابِ أحد المماليك بضربةٍ صاعقةٍ على عنقِ الرّجُل، وثبّتَتَ التكشيرةَ على وجهه للأبد.

رفعَ سِنَان الجثّة اللاهثةَ التي تهاوت فوقَه، وشمَّ الرائحةَ الكريهةَ الحيوانيّة الحادَّة الواخزة للعَرَقِ والبولِ والدم، والتي اختلطت الآن بالأبخرة الجهنّمية للدواء. ونظرَ إلى أبي عبد الله للحظةٍ بينما كان يلتقطُ أنفاسَهُ، وانطلقَ باتِّجاهِ شبحِ سيّدِهِ الضئيل حاملاً سيفَ الخصيّ الصريع، وهاجَماً بعنفٍ كطاحونةٍ هوائيةٍ في عاصفة. وبينما كان يشاهد، دخل السيفُ في عنقِ رجلٍ يبدو أنه عالِم كان يحاولُ طعنَ أبي عبد الله بخنجرٍ صغيرٍ بطعناتٍ مرتعشةٍ ضلّت طريقَها. ورأى سِنَان أيضاً نظرة المفاجأة المطلقة على كلا الوجهَين، ثمّ تدفّقَ الدمُ من وريدِ الرجلِ الآخر.

هتفَ أبو عبد الله: "لم أظنّ يوماً ... يا لهذه السيوف الغرناطية المصقولة الجميلة! هيَّا، يا سِنَان، كفاكَ تحديقاً فيَّ، هيَّا، تابع القتال".

ولكنَّ وتيرةَ القتال كانت تتباطأ مع سقوطِ خصومهم واحداً تلو الآخر، حيث طغى عليهم التدريبُ القاسي للمماليك والوزن الغاشم للخصيان. لم يستسلم أحد، إلّا لعزرائيل، ملاك الموت.

هدأتِ الغرفة في نهايةِ المعركةِ مجدّداً، ولم يصدر فيها أيّ صوتٍ سوى أنفاس المنتصرين. ولكنَّ سِنَاناً كان يسمع أيضاً بعض الأصوات المنخفضة البعيدة تتحدّث، وأدرك أنها قادمة من ممرٍّ مُضاء. شقَّ طريقَهُ في هذا الممرّ ليجدَ نفسَهُ في كهفٍ جانبيٍّ مضاءٍ بالشموعِ المثبّتة على شمعداناتٍ مغطّاة بالزجاج القاتم.

كان في منتصف الغرفة منضدةُ عملٍ حجرية، عليها القدورُ والأواني وغيرها من الأوعية لأغراضٍ غير معروفة. لاحظ سِنَان أن وعاءً كبيراً كان ملآناً بقطعٍ مَعدنيةٍ خشنةٍ نحاسيّة اللون بأشكالٍ غريبة. وكان هناك كومةٌ من مناخِلِ الكُسكُس لا أَحدَ يعرفُ الغرضَ منها، ولكنَّها ذكّرتهُ للحظةٍ بمختبرِ الخيميائي. ولكنَّ المشهدَ على أحد جوانب الكهف هو الذي استرعى انتباهه. كان يقف هناك الوزير، ونصف دائرة من المماليك متأبِّطينَ أسلحتَهم وعلى أهبة الاستعداد، وكلّهُم ينظرونَ إلى شيء ما على الأرض، بل *إلى شخص ما*. كان لسان الدين يقول بصوتٍ رقيقٍ: "اهدؤوا، إذا ما استطعنا الإمساك بهذا فقط على قيد الحياة ...".

ونظرَ سِنَان من فوقِ أكتافِ المماليك ليرى رجلاً صغيراً بملامحَ حادّة يحملُ مَقلَمَةً في وشاحِ خصرِه، راكعاً على الأرض. كان هناكَ رعبٌ في عينَيه وشعلةٌ مضاءةٌ في يده. وهناكَ على الأرض بينه وبين المماليك صينيّة نحاسيّة كبيرةٌ مغطّاةٌ بنوعٍ من الحبوبِ السوداء، من نوعٍ لم يرَهُ سِنَان من قبل. كانت الحُبيباتُ في ضوءِ اللهبِ يشبهُ فُلفُل مُليبار، رغم

أن الحبوبَ كانت أطولَ إلى حدٍّ ما. اقتربت الشعلةُ من الصينيّة واهتزَّت قليلاً.

قال أحد المماليك محاولاً الحديثَ بلطف، ولكن، بنبرةٍ عصبيةٍ لا يمكنُ إخفاؤها: "هيَّا، يا صاحبي، أعطِنا الشعلة، فقد انتهى كلّ شيء الآن".

اهتزّت الشعلةُ بقوّةٍ أكبر، لدرجةِ أن جمراً مشتعلاً سقط منها وتراجعَ المماليكُ خطوةً إلى الوراء على نحو لا إرادي .. كانوا جميعاً مُركّزين على اللهب المشتعل، لدرجةِ أنَّ أيّاً منهم لم يرَ ما رآه سِنَان، أو بالأحرى ما أدركَ أنّهُ رآهُ بعد أن تمَّ بالفعل: ارتعشت يدُ الرجلِ الأخرى وهو يمدّها إلى مَقلَمَتِهِ ويفتحُ الغطاءَ ويسحبُ وعاءً صغيراً أشبهَ بالمَحبَرَة، ويفتحُ الفلّينة، وبحركةٍ سريعةٍ واحدة ..

الآن انتبه الجميع، ولكن، بعدَ فواتِ الأوان: ارتفعتِ الزجاجةُ الصغيرةُ إلى شفتَيه وانصبَّ السائلُ كلُّهُ في حلقِه.

امتدّتِ اللحظةُ لتغدو دهراً ولم يحدث شيء، ثمّ هدأتِ الشعلةُ في يدِهِ وغادَرَ الرعبُ عينَيه. ابتسمَ كما لو كان يبتسمُ لنفسه، وهمهمَ كلماتٍ غريبةٍ متداخلةٍ خمّنَ سِنَان أنها باللاتينية: *Si fieret ... de solidis corporibus ... tunc ... tunc* ... واهتزّ رأسُ الرجلِ بحزنٍ، ثمّ هدَأ. أصبح وجهُهُ أقربَ للسّوادِ، ثمّ تحوَّلَ إلى قناعٍ غيرِ بشريّ.

****

كان سِنَان هناك في ذلك الماضي السحيقِ، مع والدِه، في كوخٍ مَطليٍّ، قبل *البوليو*. كان والده يقول: *تذكّر، يا بني، لا تنظر إليهم في وجوهِهِم، فلن تتخلّصَ أبداً ممّا تراه.* ولكنه استرقَ نظرةً، وكان أحد الوجوهِ التي رآها هو ما يراه الآن.

****

سقط الرجلُ الراكعُ وسقطتِ الشّعلةُ على الأرضِ وتحرّكَ المماليكُ بسرعة. التقطوا الرّجُلَ، ربّتوا على وجهِ الأسود، وصفعُوه ولكمُوه وهزّوا جسَدَهُ الهامدَ ثمّ ألقوا به. ارتجفَ مرّةً أو مرّتَين ثمّ سَكَن.

همسَ الوزير: "اللعنة".

عادوا إلى الغرفة الرئيسة وعدّوا الجثثَ. مملوكٌ واحد ... وخصيٌّ واحد ... وتسعةٌ ... ولكن، ماذا ينبغي أن نسمّيهم؟

قال الوزير: "إذن، مع المنتحرِ هناك، يصبحُ العدد عشرة منهم ... إذاً مَن هم؟" أخذَ يحدّقُ في الوجوهِ الميتة واحداً إثر آخر. قال وهو يدوس فوق بركةٍ من الدماءِ المتخثّرة ويرفعُ رأسَ ضحيّةٍ أبي عبد الله برأس خُفِّهِ: "مهلاً ... أعتقدُ أنني أعرفُ هذا". رأى سِنَان أن ملامح المفاجأة المطلقة ما تزالُ على الوجه الميت "لقد رفضتُ طلبَهُ للحصول على وظيفةٍ ذاتَ مرّة ... ولكن، هيَّا تحرّكوا ... يجب أن نمشِّطَ بقيةَ الأنفاق. قد يكون هناك المزيد منهم. انقسموا إلى أزواج. أبو عبد الله وزيد وأنا سوف نبقى هنا لحراسة نفق المدخل. وليبقَ معنا اثنان من المماليك".

وجدَ سِنَان مشعلاً ساقطاً على الأرض، فأشعلَهُ مجدّداً وانطلقَ مع الخصيّ في أحدِ الممرّاتِ التي تنبثقُ من الغرفةِ الرئيسة. وسمعَ صوتَ لسانِ الدين خلفهُ يحدّثُ أبا عبد الله: "... كفاكَ بطولاتِ اليوم، يا صديقي. لم أعرف أبداً أن بداخلِكَ هذه البطولة كلّها، ما هذه القدراتُ في استعمالِ السيفِ يا صديقي؟: لقد كنتَ أشبهَ بأحدِ تلك الأصنامِ الهنديّة التي وصفتَها لي ذات مرّة، تلكَ التي لديها الكثير من الأذرع ..." وخفتَت شيئاً فشيئاً ضحكةُ الوزيرِ الصاخبة.

انطلق سِنَان والخصيّ بصمتٍ في سوادِ النفقِ وراءَ بعضهما البعض، يحملُ كلٌّ منهما شعلةً بيدِهِ اليسرى وسيفاً مسحوباً من غمدِهِ في اليمنى.

مشَيَا على أطرافِ أصابعِهِما على غير هدى حيثُ يذهبُ بهما ضوءُ الشعلة. كما أضفى ضوء المشعل حركةً على الظلال وجعلَ فروعَها تمتدّ نحوهما من الجدران الصخرية. قطعا منعطفاً ونَزَلا. رأى سِنَان الذي كان في المقدّمةِ مجدداً علاماتِ الكشطِ على جدرانِ النَّفق. وتساءَلَ عن كميّة الثلجِ الصينيّ التي جمعُوها.

ارتسمَ ظلُّ شَعرٍ ما على رقبتِه وظهرِه: أحسَّ بحضورِ شيءٍ ثالثٍ غير مرئي، كما حصل معه في تلك الغابة الآتية من ماضيه والتي يسكنها الأسد. حضور *شيء ما وراءه*. استدارَ عندما سمِعَ قعقعةَ سقوطِ سيفٍ ما، ورأى الخصيّ يتلوّى على الأرض وهناك سلسلةٌ من الدم الأرجواني على الصخرة بجانبِهِ. ثمّ رأى ظلاًّ.

تملّصَ سِنَان بصعوبةٍ من الخنجرِ المندفعِ نحوَه، ولكنَّهُ شعرَ أنّهُ يقبِّلُ رقبتَهُ العارية. وشَعَرَ بلزوجةٍ رطبة.

تحدّثَ الشبحُ من العتمة قائلاً: "إنه السُّمّ، سُمّ خانق الذئاب، مع لمسة من الإستركِنين. سُمّ سريع وقاتل. ومقابل سُمٍّ كهذا سيغدو سيفكَ ... وقوّتكَ الهائلة، لا شيء".

لم يجرؤ سِنَان على إبعادِ عينَيه عن الظلّ. ودقَّ قلبُه مع الكلمات، وانتظرَ الشعورَ بالخدر، وانتشارَ النارِ في جسدِه. ولكن السائلَ على رقبته كان بارداً. ولم تَكُ ثمّة دماء. فلم يخدش طرفُ الخنجرِ جلدَه حتّى.

قال الظلُّ بهدوءٍ ساخراً ملاطفاً "نعم ... *قبلةٌ* فقط. إنها البداية. تعال إليّ ... تعال إليّ وسأعطيكَ المزيد. نعم ... سوف أدخلكَ بلطف ... وأجعلُكَ تطيرُ من النشوة .." وأضاف الصوت بهمسة غير مسموعة تقريباً "... من *الوجع*".

أمسكَ سِنَان بسيفِهِ بإحكام، وتجهّزَ للهجوم. ولكنّهُ تسمَّرَ في مكانه.

قال الظلُّ بصوتٍ رقيقٍ يحملُ خيبةَ أمل: "لا؟ *إذن سآتي إليكَ*".

هجمَ عليه الظلُّ مرّة أخرى واستحالَ رجلاً. ابتعدَ سِنَان متفادياً النصلَ على بُعدِ شَعرة. لم يعد سلاحُهُ مفيداً في ذلك الممرِّ الضيق، لذلك ألقى به وواجه مهاجِمَهُ، غير مسلّحٍ بشيءٍ الآن سوى الشعلة في يده. والتمعت مجدّداً العينان الخضراوان تنضحانِ كُرهاً وشهوة. للمرّة الثالثة. بل للمرّة الأخيرة: لأنهُ كان يعلمُ أن أحدهما سيموتُ هذه المرّة.

وبدأت رقصةُ الموتِ، وكابوسُ اندفاعِ النصلِ وتفاديه والشعلةُ والنارُ والسُّمّ. أراد سِنَان الصراخ لاستدعاء الآخرين، ولكنّهُ أدركَ أنه حتّى تلك الهفوة الصغيرةِ في التركيز تعني الموت. واستمرّتِ المبارزةُ، لثواني بدت دهراً. وفجأةً، عرفَ سِنَان بواسطةِ غريزتِه التي شحذَتها مطارداتُ الصِّبا، أنّ الرجلَ كان على وشكِ الشروعِ في خطوتِهِ الأخيرةِ القاتلة.

قاتلةٌ لمَن؟ علقَت عيناهُ الداكنتان في اخضرارِ عينَي خصمِه، ليحكمَ على اتِّجاهِ الضربة ... والتصرّفِ الصحيحِ اللازم. أمسكَ رسغَ الرجلِ عندما كان رأس النصل لا يزال على بُعد بوصات من صدره، ولفَّهُ بقوَّته كلّها، وأحسَّ بتمزّقِ العصَب. وسقطَ الخنجرُ، فركَلَهُ بقوّةٍ رامياً إيّاهُ إلى أسفلِ النفق.

أصبحَ كلاهما الآن في الظلامِ تقريباً، حيثُ بقيتِ الشعلةُ متوهّجةً بوهَنٍ حيث سقطَت، وتقاتلا وكلٌّ منهما يشعرُ بأنه محبوسٌ في قفصٍ من الأيدي، حتّى شعرَ سِنَان أخيراً بضعفِ قوّةِ خصمِه تحتَ كتلةِ جسدِه الأضخم. وانطلقت موجةٌ أخيرةٌ من الجهد من خصمِه، صدمة محضة من القوّة الحيوانيّة. لكنّهُ استدعى الطاقةَ المتبقّيةَ من عضلاتِهِ الواهِنة، وصرعَهُ على الأرض، واستلقى فوقه، وأطبقَ عليه بقوَّةِ فخذَيه، وثبّتَهُ من كتفَيه، وشعرَ بالجسدِ تحته ينثني ويندفع، ويلهثُ ويحترق. ورأى العينَين اللتَين تكرهان وتشتهيان. *كلّ ما عليّ فعله هو تثبيته*. وصرخَ في النهاية يستدعي

الآخرين بذرّة القوّة المتبقّية لديه. وعندما نظر إلى الأسفل مجدّداً، أدرك الآن أين رأى هاتين العينين لأوّل مرّة.

في كوخ مَطليّ، في أعماق الماضي السحيق.

حدث ذلك أسرع من طرفة عين. كانت إحدى يدَي الرجل لا تزال طليقة، وبدَت حركةٌ من جانبه، والتمع بصيصٌ ضعيفُ التمعَ كوهج الجمر لخنجرٍ آخر..

رفع سنان الكتفين وضربَهما بالأرض مجدّداً. وسمع صوت تصدّع الجمجمة على الصخور. لقد انشقّ الرأسُ كثمرة القرع الفاسدة، واندلق منهُ الدماغ.

حدّقت به العينان لبضع لحظات، وتلاشت الكراهية. ونظر سنان إلى الأسفل إلى اللون الأخضر الزبرجديّ العميق، ورأى الدموع.

ولكنّ اللون الأخضر كان قد تعكّر.

تعالت أصواتٌ وخطواتُ أقدامٍ مسرعة تقترب. وخفَتَ آخرُ ضوءٍ في العينين ومات تحته. وحطّم مجدّداً الرأس الميت على الصخور في حالة من الإحباط الشديد.

ومجدّداً..

وكأنّه يطردُ روحاً شرّيرة.

الفصل الثاني والثلاثون

قال الوزير: "سوف يستغرقون بعض الوقت للتعوّد على ذلك". ضاقت عيناه بضوء شمس الصباح ونظر إلى الجزء العلويّ من البوّابة الكبرى.

فتبع كلٌّ من سنان وأبي عبد الله نظرته. وهناك فوق المدخل الرئيس لقصر الحمراء، حلّت رؤوس السّباع الأحد عشر الميتة محلّ رؤوس المعتصب البرميخو وأتباعه.

وتابع لسان الدين: "ولكنّ مجموعةً جديدةً من الرؤوس ترسلُ دائماً الرسالة الصحيحة المطلوبة. خاصّة عندما يكون لديك زوّار بارزون. وعلى أيّ حال، كانت نجوم رؤوس البرميخو وصحبه قد أفلت. ولا تنس أن قسم الإعدام والتعذيب كان مستيقظاً طوال الليل يعمل على الرأس التي في الوسط". وكما لو كان ذلك بإشارة منه، هبط غرابٌ على رأس ليث ونقر بنهم إحدى عينيه الخضراوين. "قالوا إن الرأس كان مهشّماً إلى درجة لا تسمح بعرضه... لا أعتقد أنك تدركُ مقدار قوّتك، يا سنان".

لم يردّ سنان بشيء، كان يتفرّسُ في حفلة الاستقبال خلال فترة الصمت الذي لم يكسره شيءٌ سوى حفيف الجلابيب الرسمية وقعقعة أسلحة المماليك. كان رجالُ الحاشية يتحركون مثل قطيع من الطيور الرائعة، وقد ارتدى كلُّ منهم رداءً مختلفاً من الديباج الصقليّ، والدمقس الموشّى السوري، والمُخمل المصري والزردخانة، وثروة الأندلس كلّها من المنسوجات والأقمشة. وحمل كُمُ كلٍّ منهم نقوشاً متقنةً مطرّزةً بأحرف

كوفيّة. كان الوزير مهيباً وفخماً، ولكنّه ظهر لابساً ثوباً أزرق داكناً، أمّا أبو عبد الله، فقد ارتدى اللون الأرجواني الملكيّ منقوشاً بصواعقِ برقٍ ذهبية، وارتدى عِمامةً كبيرةً سماوية اللون كما يليقُ بمكانتِه كعالمٍ وقاضٍ. أمّا سِنَان، فقد شَعَر وهو يرتدي جُبَّةً رماديةً سادة وقُبَّعةً غرناطية خضراء، وكأنّهُ حمامةٌ بين طيورِ الببَّغاء؛ ولكنَّ قدَرُه في الأحوال جميعها أن يبرزَ بوضوحٍ مهما كان ما يرتدِيه.

قال أبو عبد الله أخيراً: "ما لا أفهمه، يا لسان الدين، هو ما كان يأملُ الذين يدعونَ أنفسَهم بالسِّباعِ بتحقيقِه، مختفينَ هناك في الأعماقِ تحتَ الأرض، ومع هذا المقدار المثير للشفقة من الدواء. أقصدُ أنهم لم يكن لديهم أيّ من مرطبانات المربىّ أو الدفعيّات أو لا أدري ما كان اسمها. فكلُّ ما فعلهُ دواؤهم كان مجرّد الوشوشة والضجيج".

قال الوزير: "صحيح، والمصطلح التِّقنِيّ لـ "بووم" التي قلتَها أنتَ، والذي كنتُ على وشكِ قولِه عندما قاطَعَنا السِّباع بوقاحةٍ، هو الاحتراق شديد السرعة. أمّا بالنسبة إلى وصفتهم، فلم يكن المسحوق مناسباً حتّى. هل رأيتَهُ؟ كتلةٌ من الحبيباتِ الصغيرةِ، أشبه بالفُلفُل. أعتقد أنهم كسروا القاعدة الأولى لترسانة الأسلحة الحديثة: حافظ دائماً على جفاف المسحوق".

قال أبو عبد الله: "ربمّا كانوا يديرون مصنعاً سرّياً للكُسكُس. هل رأيتَ تلك المناخل كلّها التي كانت لديهم؟"

ابتسمَ لسان الدين: "لا شكَّ أن زميلي كاتب السرّ السلطاني سيكون قادراً على تنويرنا، قبل أن ينضمَّ رأسُهُ إلى تلك الرؤوس الأخرى هناك. أعتقد أن قسمَ الإعدامِ والتعذيبِ يُطبّقونَ القليل من الضغطِ النفسيّ بينما نتحدّث. ولكنّني أشكُّ أن يحتاجوا للانتقال إلى المرحلة البدنية.

أعتقدُ أن الرجلَ قد أصبح مجرّد حطامٍ هستيريٍّ، وأنه يثير جنونهم بشأن أبخرة الطاعون الملوّثة".

بدأ فريقُ حفلةِ الاستقبالِ يشعرُ بالانزعاجِ بسببِ الانتظار. سمعَ سِنَان اندلاع محادثات أخرى بأصواتٍ منخفضةٍ بين أفرادِ الحاشية. المماليك فقط هم الذين حافظوا على انضباط صفوفِهم، وقد لفتوا الانتباه فعلاً في الدفءِ المتنامي لذلك الصباح.

قال أبو عبد الله: "على الأقلّ يمكننا جميعاً الجلوس والاستمتاع بحفلِ اليوم بأذهانٍ صافية".

فهمس سِنَان لنفسه *إن شاء الله*. كان ليحذِّرَ سيّدَهُ في ظروف أخرى من أخطار الرضا عن الذات. رغم أن هذا لا يعني أن أبا عبد الله كان ليلقي بالاً لهذا الناصح الأمين.

وتابع أبو عبد الله: "لا بدّ أن الأمرَ ممتعٌ للغاية، أقصدُ معرفتكَ بأن المتآمر بين ظهرانَيكَ محبوسٌ بأمان".

"نعم، لقد أوقَعنا بفأرنا الجاسوس. وعلى سبيلِ تغيير الاستعاراتِ المجازيّة، يمكننا القول إذا جاز التعبير، أننا قد واجهنا السِّباع في عرينِها".

قال أبو عبد الله وهو يمسّدُ بقايا الشَّعرِ المجعّدِ على ذقنِه: "ولكن، ليس بدون أن يواجهنا السِّباع أوّلاً. لم أشذّب لحيتي على هذا النحو كما فعل بي دواؤهم".

بدأت كتفا الوزير العريضتان المقصّبتان باللون الأزرق بالارتعاش، وأخذ يُصدرُ أصوات الصفيرِ والصريرِ الغريب التي كانت تمثّل طريقةَ تعبيرِهِ الخاصّة عن الضحك.

قال أبو عبد الله بتردّدٍ مع تلاشي نوبةِ لسان الدين: "أتخيّلُ أنه الآن،

وفي هذه اللحظة من الزمن، وفي هذا الوضع، أقصد مع خروج ابن زمرك من الصورة، ربمّا يتوفّر هناك، ما هي العبارة الصحيحة، ربمّا سيكون هناك شاغر... على المستوى الوزاري".

سَكَنت ملامحُ الوزير فجأة. وسَمعَ سنان في السكون ذلك الصوت المميّز لتلميح سيّده يرتطمُ بأرضٍ صخرية.

قال الوزيرُ ببطء: "يا عزيزي أبا عبد الله الذي لا نظير له"، والتفتَ إلى صديقه وعلى وجهه إبتسامةٌ حزينة "إذا ما تمكنّا يوماً من ترشيحك لتولّي ديوان الطرائف، أو وزارة الطرائف، أو رئاسة مكتب التفاؤل الذي لا يمكن كَبْتُه، فسوف يتمّ تعيينك فيه على الفور... ولكن، اسمع". استقامت حلقاتُ الحاشية، وأصبح المماليك أكثر استعداداً وصلابة. "ها هم قادمون، أخيراً".

شعرَ سنان بها قبل أن يسمعها حتى، دقّاتُ الدفّيات والطبول الكبيرة، وصرخاتُ المزامير، وصوتُ أبواقِ الحرب المجلجلة، تخترقُ الهواء الساكن. والآن اتّضحت الأصواتُ وأصبحت أعلى والموسيقيون يصعدونَ الطريق، حتّى ظهر موكبُ الفرسانِ أخيراً عند المنعطف، كانوا جميعهم يومئون بالخوذات والرّيش الذي يزيّنها، وأرتال من الأبواقِ والرايات والرماح، والأسلحة والأعلام تتلألأُ وحوافرُ وأطقمُ الخيل التي تومضُ في ضوءِ الصباح، متّشحةً بالألوانِ القرمزيّة والأرجوانية والذهبيّة. وقد أُحيط هذا البهاء كلّه بزوجٍ من النبلاءِ الساذجين، بينهما شخص ذو وجه قلق يكاد يختفي تحت ثوبٍ من الديباج الباهظ ويرتدي عمامةً يهوديةً صفراء، وهو إبراهيم بن زرزر، سفيرُ صاحب السموّ النبيل دون بدرو، ملك قشتالة.

****

أمِــنْ تذكُــرِ جيــرانٍ بــذي سَــلَمِ

مَزَجْتَ دَمعًا جَرَى مِنْ مُقلَةٍ بِدَمِ

التفتَ أبو عبد الله إلى سنان عندما انطلقَ ذلك الصوتُ الحادُّ الرقيقُ الذي قطعَ الصمتَ في القصرِ الجديدِ وهمسَ في أُذُنه: "إنها قصيدةُ البردة. المديح الشهير للنبي. والتي كُتبت في مديحِ النبيِّ في يومِ مولدِهِ عليه الصلاة والسلام".

أَمْ هَبَّتِ الريحُ مِن تِلقَاءِ كاظمَةٍ
وأومَضَ البرقُ في الظلماءِ مِن إضَمِ

وانطلقَ صوتٌ ثانٍ حادٌّ أيضاً، ولكنّهُ مختلفٌ اختلافاً لطيفاً، وتلا البيتَ التالي من مكانٍ ما على الجانبِ الآخرِ من القصرِ المزدحم. اقشعرّت رقبةُ سنان عندما توافقت النغمات الصوتية مع الإيقاع، وأخذت النغمات تنحسر وتتدفّق ذهاباً وإياباً عبر الفضاء المتلألئ، وسقط الحشد بأكمله تحت سحرِ الكلمات.

نظر حولهُ إلى صفوفِ رجالِ الحاشية والعلماء والضبّاط، الذين كانوا رائعين بثيابهم متعدِّدة الألوان. وشعرَ سنان بألفِ عينٍ مُسلّطةٍ عليه، تحدّقُ في وصمةِ قابيل التي ورثها من القاتلِ الأسودِ للسلطان السابق، عندما اتّخذ مع أبي عبد الله مكانهما هنا لأولِ مرّة. وخفّفَ الشّعرُ الآن من نظراتهم. وكذلكَ فعلَ الرذاذُ الكثيفُ من ماء الورد وماء المسك، الذي يرشُّهُ الغلمانُ الذين يتجوّلونَ في الحشد. اختلطت هذه الروائحُ مع الروائحِ الأخرى، من عطرِ الزبّاد والعنبر، كما لو كانت العطورُ جميعُها في العالمِ قد رُشّت في هذه البقعة. أمّا الوحيدون الذين لم يشملوا بهذه الروائحِ والأصوات، فكانوا القشتاليّين الرثّين ورفيقهما المبعوث اليهوديّ، والذين بدا بوضوحٍ منكمشاً في ثيابه.

مُحمّدٌ سيّدُ الكونينِ والثّقلينِ

والفَرِيقَــيْنِ مِــن عُــرْبٍ ومِــنْ عَجَــمِ

وانطلقَ إلى جانبِ سحابةِ الرائحةِ سحابةٌ من الدخان الذي يتزايد بكثافة أكبر أيضاً، من المباخِرِ الضخمةِ التي ينطلقُ منها البَخُور العربي، واللبان الجاوي، والعود الصّنفي.

وَكَيــفَ يُــدْرِكُ في الدُّنْيَــا حَقِيقَتَــهُ
قَــومٌ نِيَــامٌ تَسَــلَّوا عنــهُ بِالْحُلُــمِ

وكان جلالةُ السلطان كالحُلم، واضحاً وحَيَّاً، ولكنهُ غير ملموسٍ في الدخان، وقد جلسَ بجانب مفاجأتِه، القطعةُ المركزيّة التي لا تزالُ مخفيّة. كان متربّعاً على وسائد من الحرير المخطّط باللهب تحت مظلّةٍ احتفاليةٍ حمراءَ داكنة ومدعومة بعواميد، عليها أعلامٌ حمراء مطرّزة بالشعار النصري، *ولا غالب إلّا الله*، وافترضَ سِنَان أن السلطان يبدو نصرانياً أكثر من كونه عربياً، مع أجيال من المحظياّت القَشتَالِيّات على الجانبِ الأنثويّ. وبدا أصغرَ من عمرِه الذي يبلغُ ثلاثين عاماً والمِحَنَ العديدة التي تعرَّضَ لها: الإطاحة به، والهروب، والمنفى، والحرب.

كالزَّهــرِ في تَــرَفٍ والبَــدْرِ في شَرَفٍ
والبَحْــرِ في كَــرَمٍ والدَّهْــرِ في هِمَــمِ

وتدفّقَتِ القصيدةُ مستمرّاً متسلسلاً، وذهاباً وإياباً تحكي عن مجدِ النبيّ الكريم وابتسامتِه وعطرِه ونُبلِه، وعن استياءِ وغَمِّ المجوسِ عَبَدَةِ النار في يومِ مولدِهِ في البيت الذي يقول:

كَأَنَّ بِالنَّــارِ مَــا بالمَــاءِ مِــن بَلَــلٍ
حُزْنــاً وبالمَــاءِ مَــا بالنَّــارِ مِــن ضرمِ

وبدا القصرُ بأكملِه في النهاية مسحوراً ومفتوناً حرفياً. واستغرقَ سِنَان

بضعَ لحظاتٍ لفهمِ معنى الكلمات عندما لَكَزَهُ أبو عبد الله فجأة وقرأ له البيت:

وَمَــنْ تَكُــنْ برسُــولِ اللـــهِ نُصرَتُــه
إن تَلْقَـــهُ الأُسْـــدُ في آجامِهـــا تَجِـــمِ

ورأى سِنَان الابتسامات المتبادلة بين سيّده والوزير.

وانتهت القصيدة في آخر المطاف واستيقظَ الجمهورُ من غيبوبتهم، ثمّ أصدروا الكثيرَ من الصخَبِ والسعالِ وعدّلوا جلستَهم استعداداً لمديحٍ أطول، ولكنّهُ هذه المرّة للسلطان. وقال سِنَان لنفسه إن هذا الوقوف الصارم كلّه والوقفة الخاصّة برجال الحاشية كان مجرّد تدريبٍ لليوم الذي سيصبحُ فيه كاتب سرِّ سيّدِه، إذا ما أتى ذلك اليوم.

ولكنَّ أبا عبد الله انحنى نحوَهُ وقال: "لقد أخبرني لسان الدين أنه سوف يُلقي ما يسمّيهِ "خطاباً قصيراً جدّاً "في مديحِ جلالتِه. فالسلطان كما ترى لا يريدُ أن يتفوّقَ على النبيِّ الكريم في يومِ مولدِه. ولكنَّ عبارةَ قصيرٍ جدّاً هي مجرّد عبارةٍ نسبيّةٍ إذا ما تعلّقَ الأمرُ بلسان الدين".

كان الخطاب قصيراً بالفعل وَفْقاً لمعايير الخطاب العربي وفارسِهِ الأوّل في العالم الغربي، فقد تجاوزَ بالكاد شكرَ الله على الانتهاءِ من تشييد القصر الجديد بنجاح، وإنقاذِ العالم من "مؤامرة معيّنة ارتُكبَت مؤخَّراً"، والدعاءِ بدوام الصحّة للسلطان والازدهار في عهده، حتّى لو تضمّنَ ذلك سلسلةً من ألقابِهِ ونسبِهِ الذي يعودُ إلى الأب المؤسِّس للسلالة التي جعلت عقلَ سِنَان يختنقُ من الملَلِ والإرهاق.

كانت الكلمةُ الأخيرةُ من هذه السلسلةِ، اسم السّلَفِ الصارمِ في السلالة، والذي اخترقَ ملَلَ سِنَان وإرهاقِهِ وأصابَهُ بالرعشة: "... ابن نصر، المعروف أيضاً باسم ابن الأحمر".

التفت إلى أبي عبد الله مدهوشاً: "مولاي، لم تخبرني أبداً أن سلف السلطان كان يسمّى (الأحمر)".

"فعلاً؟ ألم أخبرك بذلك؟ ربّما لأنها معلومةٌ معروفة. أعتقدُ أن شعرهُ كان أحمر أو ما شابه. وهذا سبب اختيار اللون الأحمر كلون رمزيّ للسلالة". وأشار إلى اللافتات والرايات القرمزيّة التي رفرفت حول السلطان. "إنهم يفضّلونَ عموماً أن يُعرفوا باسم بني نصر. فهم يعتقدون أن هذا الاسم يحمل رنيناً سلطانياً، مع معنى النصر بالإضافة لكونه اسماً عربياً قديماً أيضاً. ولكنّ معظم الناس يطلقون عليهم خارج غرناطة اسم بني الأحمر... وربّما يفسّر هذا كلُّه سببَ إعجابهم بالياقوت".

حدّقَ سنان في أبي عبد الله. "ولكن، يا مولاي..." وقاطع عبارته ضجيجُ الطبول والأبواق. فصرخَ أبو عبد الله خلال تلك الضوضاء: "ركّزْ ناظرَيكَ على ذلك الشيء في الخيمة".

حدّقت الأعين الألفُ بتلك الخيمة. وانتشرت الحماسة والإثارةُ في أرجاء القصر جميعها، وكانت محسوسةً حقّاً كدخان البَخور.

"مولاي..."

ولكنّ أبا عبد الله لم يكن يستمع.

وقف الوزيرُ بالقرب من الخيمة، وعلى وجهه نظرةٌ من الرضا الكئيب، وكانت هذه إحدى ظهوراته العامّة النادرة التي يقتربُ فيها من الابتسام. وأومأ برأسه في اتّجاه جناحٍ صغيرٍ ينطلقُ من الرّواق إلى القصر، في الجهة الشرقية منه. تبع سنان اتّجاه الإيماءة، ولكنه لم يرَ أيّ شيءٍ في البداية بسبب الدخان المتصاعد من المباخر الضخمة المشتعلة التي تحيطُ بالجناح. وتلاشى الدخانُ لوهلة ولمح الوجه الجميل لزيد صاحب الأشغال، محاطاً بأعمدة، وردّ على الإيماءة، ثمّ انحنى إلى الأسفل.

تذكّر سنان خطّة زيد العبقرية، الحبالُ المزدوجة التي سوف تكشفُ عن المفاجأة السلطانية عند سحبها، وأخذ يمسحُ بعينيه الرخام الذي يرصفُ الأرض. نعم، كانت الحبالُ هناك ممتدّةً على طول القناة الضحلة في الرخام.

حدث خطأ ما: لم يتحرك سوى حبل واحد ... ولكن، وشهق الحشدُ عندما سقطت جدرانُ الديباج التي تشكّلُ الخيمة، ثمّ ساد الصمتُ عندما أُخذ الحشدُ بالمنظر الذي تجلّى أمام أبصارهم، ثمّ لعلعت صرخةٌ: "الله!"، وتعالى الهتافُ والصرخات التي تقول "حفظ الله السلطان!"

لقد رأى سنان أمامهُ مجموعةً غريبةً ورائعةً من الرخام المنحوت. وفي وسطها كان هناك حوض واسعٌ وليس عميقاً، له اثنا عشر ضلعاً، منحوتةٌ ومرسومةً على نحو خلّاب، لم يميّز سنان سوى الأبيات الشّعرية المذهّبة التي ألّفها ابن زمرك الشائن. ورأى أيضاً أن الحوض مستقرّ على أسطوانة رخامية، ولكنه مُثبّت بطريقة تجعله يبدو وكأنه يطفو في الهواء دون دعم، فوق الشيء الأكثر بروزاً في القطعة الفنّية بأكملها: وهي كتيبة الحرّاس، والتي تضمّ واحداً عند كلّ ضلع للحوض، والمكوّنة من اثني عشر حيواناً منحوتاً ومطليّاً. وقف كلٌّ منها بوضعية الانتباه مع أنبوب برونزيّ أو صنبور يخرجُ من فيه. وأدرك سنان عند رؤية الأنابيب ماهية القطعة المركزية: لقد كانت نافورة، ولكنّ أصالتها وجمالها يجعلانك تشكّ بوجود شيء مثلها في أيّ مكان كان على وجه الأرض. وتذكّر سبب إصرار ابن زمرك المستمرّ على مواجهة الشرّ الذي تجسّده، وهو تقليد قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق. لقد فهم الآن: قطيعٌ كاملٌ من الصور المنحوتة ثلاثيّة الأبعاد هنا، في مركز القوّة الإسلامية في الأندلس.

ولكن، هل كان هذا قطيعاً، أم سرباً، أم دزّينةً، أم ماذا؟ لم يستطع سنان في الحقيقة معرفة ما كان من المفترض أن تمثّله هذه المخلوقات

الاثنا عشر. كانت ملامحُ هذه المخلوقاتِ شرسةً للغاية، وما كان يمكن أن يمثّل ستراتٍ قصيرةٍ من الدروعِ المَعدِنيّة، وإذا ما أردنا تشبيهها بشيءٍ ما فهي تشبه ... الكلاب. كلاب الصيد. أو ربّما كلاب الدرواس.

وقال سِنَان عندما أخذ الهتافُ يتلاشى: "مولاي، أليسَ هذا تصرّفاً مشؤوماً ... أقصدُ تصوير حيواناتِ نجسةِ مثل الكلابِ في مكانٍ مقدّس للغاية كهذا؟"

نظرَ إليه أبو عبد الله للحظةٍ، ثمّ غمَرَهُ الضحك، وفي اللحظة التي تحوّل فيها الهتاف العام إلى ضجّة مكتومة من الرضا. أطلقَ عددٌ قليلٌ من أفرادِ الحاشيةِ القريبين منهما نظرةَ اشمئزازٍ على المغربيَ الضئيل والعبدِ الأسود. وتمكّنَ سِنَان من الشعورِ بما يفكّرونَ به الآن، هذا شقيق قاتل الملوك، هذا قاتل المماليك.

قال أبو عبد الله وقطعَت كلماتُهُ الصمت: "كلاب؟ كلاب؟ لا تكن سخيفاً، يا فتى!". وأشارَ سِنَان إلى سيّدِه يرجوهُ خفضَ صوته. فتابع العجوز بصوت أكثر هدوءاً، ولكنّه ما يزال حادّاً: "بحقّ السماء، أنتَ من بلاد السودان! وممّا أخبرتَني به فقد ترعرعتَ وهذه المخلوقات تَثِبُ وتتقافز حول مهدكَ".

"ما هي هذه المخلوقات إذن، يا مولاي؟"

نظر أبو عبد الله إلى الأعلى ينشدُ الصبرَ من السماء: "ألَا تعرفُ الأسدَ عندما يحدّقُ في وجهِكَ، يا فتى؟"

نظر سِنَان إلى الرؤوس الاثنَي عشر المنتصبة حول النافورة. كان هناك شيءٌ ما في نظراتِها القاسية العمياء ذكّرهُ بصورةِ الرؤوس على البَوّابة. اثنا عشر أسداً هنا، وهناكَ أحد عشر، زائد .. "يا مولاي ".

وقد رأى ذلك عندما كانت الفكرةُ في طورِ تَشَكُّلِها في رأسِه، لقد رآه

بمفردِهِ هناك من بين المئات في القصر، والذين ما تزال أعينهم مثبّتةً على النافورة، في انتظارِ أن تنفجرَ نفّاثاتٍ من البلُّور: لقد رأى زيداً صاحب الأشغال، يحجُبُه الدخان، ممسِكاً بملقَطَين ويأخذُ فحماً من إحدى المباخِرِ ويتراجَعُ مجدّداً ...

انطلق سِنَان انطلاقاً أسرع من خطرة الفكر وهو يعبر الفِناء كصاعقة سوداءَ تسابِقُ اللهبَ الذي انتشرَ بسرعةٍ على طولِ الحبلِ الثاني، وكانت نارٌ غيرُ مرئيةٍ ورجلٌ واضحٌ للغاية يقتربان من النافورة، على ..

"السلطان. الأسوَدُ يهجمُ على السلطان!"

ركّزَ سِنَان فقط على اللهبِ الذي أومضَ وانتشرَ بسرعةٍ على الحبلِ نحو قاعدةِ النافورة، ولكنّهُ سَمعَ الصراخَ وعرَفَ أنَّ وميضَ السيوفِ والخناجِرِ كان يقتربُ منه.

الفصل الثالث والثلاثون

التمعت في ذهن أبي عبد الله في الثواني الثلاثة التي استغرقها سنان للركض على طول قطر الفناء، ثلاث فكرات:

أن الأرواح الزنجية قد تلبّست عبده وجعلته يتحرك رغماً عنه، وأنّ آخر خيط من الأمل بمنصب الوزير قد انقطع، وأن الشابّ الذي حلّ محلّ أبنائه المفقودين جميعهم سيموت، مع تلك النّصال كلّها التي انتصبت حول السلطان كأشواك القُنفُذ، والشوكة الفولاذيّة الأخرى التي توجّهت على سنان مباشرة.

ثمّ حدث ما حدث: لقد سقط سنان.

ولكن، لا، أدرك أبو عبد الله، الذي دفعه الحشد الذي تقدّم إلى الأمام، أن سناناً لم يسقط، ولكنه ألقى بنفسه في اندفاع غريزيّ بريّ بعيداً عن الارتطام بالحارس المملوكي، ودفع بنفسه على إحدى القنوات التي شطرت الفناء، وأخذ يُحطّمُ على الفور بقبضتيه العاريتين شيئاً ما على الرصيف الرخامي، مراراً وتكراراً.

وقد ضلّلت اندفاعةُ سنان المماليك لفترة كافية حتى انطلق صوتٌ آمر هزّ القصر بأكمله سمعه الجميع بوضوح رغم حالة الاضطراب: اتركوا العبد الأسود!"

كان هذا صوتُ الوزير الذي شطرَ البحر الأحمرَ الذي تعلوهُ خُوذٌ

المماليكِ الفولاذيّة وخطا باتّجاه المكانِ الذي سَجَدَ فيه سنان، وأخذ يرفعُ جسَدَهُ ببطء. "انهض، يا سنان. أنتَ في أمان".

نهضَ سنان متألّماً. وشدَّ شيئاً ما وهو يرفع جسَدَهُ، ثمّ حمل هذا الشيء ليُريَه للوزير: كانت قطعةً صغيرةً بطولِ ذراعٍ من الخيلِ وأحد طرفيها أسود ويُصدر دخاناً، ثمّ قال لاهثاً: "سعادتك، أعتقد أنك ستجد أن هذه النافورة ... لم تكن مخصّصة للمياه ..." وعبَّ نفَساً قوياً ليتنفّس "بل للنار".

سرَت موجةٌ من انعدام التصديق في الحشد الذي صمَتَ الآن.

وصل سنان إلى أحدِ أفواه السّباع الرخاميّة، وسحب شيئاً من الأنبوب البرونزي، فتوتّر أبو عبد الله وهو يراقبُ ما كان يحدث. وخرج بيد عبده شيءٌ ما، هو حشوة أو سدّادة. وتدفّق بعدها نبعٌ لم يكن من الماء، بل من الحبيبات السوداء.

حدّق لسانُ الدين في الشلالِ الأسود الذي تساقط على الرخام الأبيض ... وقال: "تقدّموا، أيّها المماليك، وفكّوا الجزء العلويّ من النافورة".

ألقى ستّة وثلاثون رجلاً أسلحتهم، وأمسكوا بالحوض الرخاميّ الثقيل. وبدأ يتزحزحُ مع القليلِ منَ الجهد، ويتأرجحُ حتى انفصل أخيراً عن الأسطوانة الموجودة تحته. ووضعَ الرجالُ الحوض على الأرض برفق.

نظر أبو عبدُ الله مندهشاً، بينما أغرق لسان الدين يديه في الجزء الداخليّ المجوّف من الأسطوانة، ثمّ رفعهما، ليفتح يديه ويتساقط منهما المزيدُ من الحبوب السوداء. ثمّ التفتَ إلى السلطان، الذي كان لا يزال جالساً دونَ أن يضطرب. رفعَ السلطانُ حاجبَهُ متسائلاً. فأعلن الوزير: "جلالتك، لقد أنقذ الله الحيّ القيّوم حياتك، على يدي هذا العبد الأسود، أطال الله في عمرك إلى أبد الآبدين" وهتفت الجموع "آمين!"

وتردَّد صدى الهتاف حول الأعمدة. أشارَ لسان الدين إليهم أنِ اهدؤوا. ثمّ تابع "وليس هذا فحسب، بل أنقذَ أرواحَنا جميعاً، وأنقذَ الإسلامَ في الأندلس".

سُمعَ خلال لحظةِ الصمتِ التي أُخِذَ فيها الحشدُ بالكلماتِ المؤثّرةِ صوتٌ حزينٌ خفيضٌ من الجانبِ الشرقي من الفناء:

كَأَنَّ بالنَّـــارِ مــا بالمَـــاءِ مِـــن بَلَـــلٍ
حُزْنـــاً وبالمَـــاءِ مـــا بالنَّـــارِ مِـــن ضَرَمِ

التفتَ الجميع إلى الصوت، ورأوا وجه زيد صاحبِ الأشغالِ البربري بلحيتِهِ البنّية، لا يزال مكلّلاً بالبَخُور ويحملُ ملقطاً لا يلتقط شيئاً.

فأجابَ صوتٌ آخر "والجنُّ تهتفُ" ملتقطاً البيت الذي قالهُ صاحبُ الأشغال من قصيدة البردة:

والجـــنُّ تهتـــفُ والأنـــوارُ ســـاطعةٌ
والحَـــقُّ يَظْهَـــرُ مِـــنْ مَعْنًـــى ومِـــنْ كَلِمِ

كان هذا صوت السلطان.

فحبَسَ كلّ مَن في الفِناء أنفاسه.

قال لسِنَان وهو ينهض عن عرشه الوثير: "تعال، أيُّها العبد".

مشى سِنَان متردّداً نحوَه، وشعرَ أن يدَ السلطانِ تأخذُ يدَهُ وتجذبُه إلى جانبه. قال السلطان للبلاطِ المجتَمعِ أمامَهُ بأكمله: "انظروا إلى هذا العبد الأسود". وصَمَتَتِ الجموع لدرجة أن أبا عبد الله تمكّن من سماع الطقطقة الدقيقة لحبوب الدواء، والتي كانت لا تزال تتساقط من فم السبع. "لقد قَتَلَ أحدُ أبناءِ عِرقِه والدي، رحم الله روحه الشهيدة. ولكن هذا العبد الأسودَ أنقذَ حياتي، بإرادة الله الخالق الذي وهبه القوَّة والذكاء. وبذلك

يكون قد غَسَلَ الدّمَ الذي لطّخَ عِرقَهُ بأكملِهِ في عيونكم. يا سِنَان". ونظر إلى الوزير الذي أومأ برأسِهِ تأكيداً للاسم، فقال السلطان مجدّداً "سِنَان" محتفياً بمنقِذِهِ "لديَّ اقتراح: يجبُ عليكَ من الآن فصاعداً أن تخدِمَني بوصفِكَ ... سِنَاناً، رأس الحربة، لحرَّاسي الشخصيّين!"

شعرَ أبو عبد الله بشرخٍ انفتحَ في نفسِهِ بين الكبرياء والحزن.

فحدّقَ سِنَان في الرخام الأبيض الناصع عند قدمَيهِ مذهولاً على ما يبدو بشهامةِ السلطان. وتحدّثَ في نهاية المطاف بهدوءٍ ووضوحٍ وهو ما يزالُ ينظرُ إلى الأرض: "مولاي ... لا أستطيع".

سَرَت همهمةٌ ورعشةٌ خافتةٌ في الحشدِ للحظة.

وهنا بدا السلطان حائراً في الكلماتِ "إذن ... إذن على الأقلّ دعني أمنحكَ حرّيتكَ". وابتسمَ فجأة "سوف أقدّمُ لسيّدِكَ عرضاً لا يمكنُهُ رفضُهُ، على عكسكَ بالطبع".

ضحكَ الحشد ونظروا إلى أبي عبد الله، الذي بادلهم ابتسامةً وإيماءةً بعِمامتِه.

لم تغادر عينا سِنَان الأرضَ، ولكنّه التفتَ إلى السلطان وقال: "مولاي" واتّجهت ألفُ عينٍ إليه مجدّداً وانتظرت ألفُ أُذُنٍ كلماتِه. "مولاي، أشكركَ على كرمِ جلالتكَ النبيل. ولكنني لا أريد الحرّية". وسَرَت رعشةٌ أخرى وهمهمةٌ في أرجاءِ القصرِ بأكملِهِ يمكن الآن الشعور بها بدلَ سماعِها. "لا أريدُ الحريّةَ لنفسي. بل لعبدٍ آخر. لجارية. ألتمسُ بكلّ تواضعٍ من جلالتكم وسموّكُمُ الملكيّ شراءَ حرّيتَها، بدلاً من حرّيتي".

سَرَت رعشةٌ ثالثة وهمهمةٌ مبتهجةٌ هذه المرّة ومسموعةٌ في الحشد، وتبِعَها موجةُ تكذيبِ ما سمعوا وعدم قدرتهم على فهم ما يحدث.

قال السلطان: "لكَ ما طلَبتَ. فاليوم، *أنا عبدُكَ*".

****

قال سِنَان: عندما غادرَتهُ أعينُ الحشد أخيراً وانتقلت لزيد صاحب الأشغال، والذي جرّوه خارج القصر الجديد حانياً رأسه "إذن، يا مولاي، لقد وجدنا السبعَ الثاني عشر الحقيقي".

أومأ أبو عبد الله برأسِهِ ببطء "وقد اكتشفنا ما هو الهدفُ الأحمر حقّاً، والذي لم يكن الياقوتة، ولا قصر الحمراء هذا، بل السلطان الأحمر. إذن، لقد أخطأتَ في هذه، أليس كذلك، أيُّها السيّد الذي يعرفُ كلّ شيء؟ ولا يعني هذا أنكَ لم تُعوِّض عن خطئكَ، على ما أعتقد" ونظر إلى سِنَان وهزّ رأسه "حسن، لقد أخبرتُكَ أنكَ سوف تتعرّف على دوائر النخبة العليا عندما تأتي معي، أليس كذلك؟ رغم أنني لم أعتقد أبداً أن هذه الدوائر سوف تكون على هذا المستوى من النبالة. يا لحظّي العظيم، فغلامي يمتلك سلطان غَرنَاطَة عبداً بين يدَيه ...".

هزَّ سِنَان كتفَيه.

وفجأة عَبَسَ أبو عبد الله. "ولكن، لا ترضَ عن نفسِكَ كثيراً، يا فتى. تعتقدُ أنكَ ذكي، أليس كذلك؟ ولكن، هل حقّاً رفضتَ عرضَ عملٍ من جلالته ...؟ ألَا تعرفُ القاعدة الأولى للتسكُّعِ مع الحكّام؟ لا تقل للحاكم لا أبداً على الإطلاق. فهذا من سوءِ الأدب، ثمّ ترفضُ فوق هذا كلّه عرضاً لم أكن لأرفضه! ما الذي كنتَ تخطّطُ له، يا سِنَان، بحقّ الله؟"

فعضّ سِنَان شفتَيه.

نظر إليه أبو عبد الله والعبوس لم يفارق وجهَهُ ثمّ تابع: "ألَا تدركُ أنكَ قد ضيَّعتَ علينا للتوّ جرّةَ الذهبِ التي جئنا إلى هنا في المقام الأوّل بحثاً عنها؟" وتأوّه وأطرقَ إلى الأسفلِ وهزّ رأسه المعمَّمَ ببطء.

قال سِنَان: "ولكنني سعيدٌ كما أنا، يا مولاي. أمّا أنتَ، فسوف تكون وزيراً في يوم من الأيّام، في مكان ما، ولن تضطرّ للسعي للحصول على جِرار من الذهب. أنا متأكّدٌ من ذلك. وكما كنتَ تقول دائماً، إنه عندما يحين ذلك الوقت، فمَن غيري يمكن أن يكون كاتب سرِّكَ؟"

نظر إليه أبو عبد الله، وهو لا يزال يهزّ رأسَه، ولكن، هذه المرّة مع ابتسامة تقريباً، وأشرقت عيناه أكثر من المعتاد. ثمّ سرعانَ ما جالَ بنظرِهِ بعيداً. لم يستطع سِنَان التفكير في أيّ شيء آخر ليقوله.

قاطع ضجيجٌ أجشّ مفاجئ من أصوات الأبواق هدوءَ القصر، وتلاهُ قرعُ طبولٍ مدوٍّ. تنحنحَ أبو عبد الله وصرخَ وسط الضجيج: "ها هي الآن الذروة الثانية للحفل. أو يجب أن أقول ما بعد الذروة، بعد أن أنقذتَ السلطان والإسلام بمفردكَ، وافتديتَ عِرقَ السودِ بأكمله ... وجعلتنا نخسرُ ثروة".

توقّفت موجةُ أصواتِ الطبول. ونظر الوزيرُ مجدّداً نظرتَهُ الكئيبة، وأمَرَ بالصمت. ثمّ أخذَ يتحدّث، عن الياقوتة العظيمة التي لا مثيل لها، والتي سرَقَها قبل ستِّ سنوات الغاصب الملعون، وعادتِ الآن إلى مالكِها الشرعيّ" ... والتي أعادها إلينا جارنا دون بِدرو، طاغية قَشتَالَة الكافر، هداه الله إلى الدين الحقّ، كتعبير جِدّي عن ولائه الأبدي ومودَّته لجلالته، سلطاننا المبارك، أمير المسلمين، وعلاوة على ذلك" تابعَ ثمّ توقَّفَ لوهلةٍ، وبدا وكأنه يجولُ بنظرتِهِ الكئيبة على كلّ شخصٍ من المئاتِ الحاضرين واحداً واحداً، ليرى إن كان هناك مَن يجرؤ على مخالفة كلامه "وعلاوة على ذلك، دحضنا مرّة وإلى الأبد، تلكَ الشائعاتِ الخبيثةِ والتي لا تمتُّ للدين بصلة، والتي انتشَرت بين الجهّال خلال تلك السنواتِ العديدةِ الماضية، والتي تقول إن شيئاً مثل هذه الياقوتة قد يمارسُ تأثيراً سلبياً أو شريراً على الأقدار التي بيد الله وحده سبحانه وتعالى العليم الخبير".

وتوقّفَ الوزير مجدّداً، ثمّ التفتَ برأسِهِ نحو السفراء، والذين تحرّكوا

ببطءٍ وبصلابةٍ نحو عرش جلالته، وإبراهيم بن زَرزَر يحملُ الصندوقَ بيدَيه المرتجفتَين بشدّة، لدرجة أن سِنَاناً تمكّنَ من سماع صوت ارتطام الياقوتة بجدران الصندوق. ونظر لسان الدين راضياً بوضوح عن الرهبةِ التي هبطَت على القلوبِ الكافرةِ بحضورِ جلالته، أمير المسلمين.

نظرَ سِنَان إلى جانبِ الآلاف من العيون الأخرى. وبدا من بعض الجهات التي يُنظر إليها إلى الحدث، أن السفير كان ينكمشُ، ويصغرُ حجمُه كلّما اقتربَ من جلالته. وأخيراً انحنى، عندما أصبح أمام المنصّة السلطانية مباشرة، وبعد صراعٍ مُهين مع الصندوق الذي يحملُه، فَتَحَ الغطاء المذهَّبَ للصندوق.

وأطلّ فيه السلطان.

ثمّ تغيّرتِ الملامحُ المَلكيّة الهادئة، وتغضّنَ جبينُ السلطان وضاقت عيناه. ومَدَّ يدَهَ إلى الياقوتة ثمّ سحبَها فجأة، كما لو كان يسحبُ يدَهُ بعيداً عن شيءٍ مقرفٍ ملوَّثٍ مثيرٍ للاشمئزاز.

لم يحدث شيءٌ للحظة. ثمّ تحدّثَ السلطان، الذي خيَّمَ على وجههِ الغضب، إلى ذلك الشخص المنكمشِ الذي جَلَسَ القُرفُصاء أمامَهُ مرتجفاً. قال السلطان:

"*خذها إلى بِدرو، وقل له أن يحتفظ بها*".

الفصل الرابع والثلاثون

قال الوزير: "هناك شيء آخر قد أنجَزتَهُ، يا سِنَان، بفضلِ سرعة بديهتكَ وتفكيركَ وسرعةِ تصرّفِكَ بالأمس، ولكنني لم أستطع الحديثَ عنه علناً".

رفرفَت راية النصريّين بإيقاعٍ سريعٍ فوقهم في الرياح العاصفة، ونظرَ أبو عبد الله إلى صديقِه. استطلعَ سِنَان المنظَرَ من برجِ المراقبة: كان أمامه المحيطُ الأخضرُ للسهلِ مع الساحلِ البعيدِ من التلال، وجبل شلير الذي يتلألأُ ببواكيرِ الثلوجِ الطازجةِ في بدايةِ الموسم. كانت قد ذَبُلت وماتَت الآن مع قدوم الشتاء أحلامُ الوزارةِ وأحلامُ كتابة السرّ، تلك الآمال كلّها التي ازدهرت عندما وقفا هنا لأوّل مرّة. عرفَ كلاهما في هذا الفجر البارد الصافي الذي أعقبَ اليوم الاستثنائيَّ في بهو السِّباع، أن الوقت قد حان للمغادرة، والذهاب لمطاردةِ الأحلامِ في مكانٍ آخر.

تابعَ لسان الدين: "لقد جنّبتَنا الحربَ، يا سِنَان. الحرب بين غَرنَاطَة وقَشتَالَة". التفتَ سِنَان إليه مندهشاً. "والموتَ أيضاً، يا سِنَان، ليس موت سلطاننا المبارك فقط، بل موت مبعوثي دون بِدرو أيضاً، الممثّلين الفخريّين لتاج قَشتَالَة، ممّا كان من شأنه تمزيق مملكتَينا. إلى الأبد". هَدَأتِ الرياح للحظة، ولكنَّ الشمسَ المتصاعدةَ لم تبدّد البرد. تابع الوزير: "كما تعلمون، ورغم الخطابِ المبتذلِ الذي يصفُ جارَنا بأنّهُ (طاغية) و(كافر)، فإن دولتَينا أقرب إلى بعضهما البعض من العديد من الدول التي تشتركُ في الإيمانِ واللسانِ نفسه. ولكن، هناك دائماً وعلى كلا الجانبَين أولئك الأشخاصُ الذين يقودُهُم منطِقُهُم المنحرفُ إلى السعي

للتفريق فيما بيننا، لتحقيقِ (الطهارة) كما يرونَها هم، وبأيٍّ ثمن. كان هؤلاء هم الذين وقفوا وراء هذه المؤامرة".

ردَّ سنَان: "ولكنّني، يا سيّدي، لم أتخيّل أن يكون زيد صاحبُ الأشغال متعصّباً ضالاًّ".

"لا أعتقد أنه كان كذلك. ولن نعرفَ بالتأكيد. فقد تمَّ التعاملُ معه ... بطريقة عاجلة، نوعاً ما. ولكنني أشكّ في أنَّ هناك بعضُ الشوائبِ في طبيعتِهِ مرتبطةً بكونِهِ من نسلِ الحكّام البربر السابقين لغَرنَاطَة، بنو زيري، والتي جعلَتهُ يكرُهُ سلالتَنا النصرية العربية الحبيبة. فقد كان في نهاية الأمر آخر فردٍ في سلالة الزيريّين. لم يكن لديهِ ما يخسَرُهُ سوى نفسه. وكان تحالفُهُ غيرُ الطبيعيّ مع ما يُطلَق عليه السِّباع ذا فائدة لا تقدّر بثمن لكِلا الطرفَين".

قال أبو عبد الله: "ولكن، لماذا قادنا إلى الخزائن والأقبية يا لسان الدين؟ لماذا ضحَّى بزملائه المتآمرين بربّكَ؟"

قال الوزير: "لا يسعني إلّا افتراض أنهُ كان يبعِدُ عن نفسِهِ الشبهات ... وأنه كان يستعملُ كراهيتي المعروفة لكاتب السرّ السلطاني، سامحَني اللهُ عليها. هل رأيتَ كيف اختبأ زيدٌ خلفَ ابن زَمرَك عند باب الخزائن؟ وكيف استخدمَهُ كغطاءٍ حرفياً؟ كانوا قد وجّهوا تهمةَ الخيانةِ لزيد. ولكنَّ تحيّزي ضدّ ابن زَمرَك قد أعماني وصمَّ أُذُنيَّ عن سماعِ الحقيقة". وتنهّد الوزير.

سأل أبو عبد الله: "إذن، هل تعتقدُ أن زيداً كانَ يعلمُ أن رفاقَهُ سوف يُقتلون؟"

"أنا متأكّدٌ من أن هذا هو بالضبط ما كان ينوي القيام به. فقد أنجزَ السِّباع بنظرِ زيد مهمَّتهُم. وكان يعلمُ أنه سيكون قادراً على أداءِ عمله الأخير، أي إشعال ذل .. الفتيل، في أثناء احتفالنا بهزيمتهم، دون أن يتوقَّعَ أحدٌ ذلك. لقد استنفدَ السِّباعُ بالنسبة إلى زيد الهدفَ المطلوبَ منهم، وأصبحَ يمكنُ الاستغناء عنهم".

قال سِنَان: "مثلُ السِّباعِ الرخاميّة للنافورة".

قال الوزير بابتسامة: "صحيح، والتي اتّضحَ أنها مجرّد نزوة جميلة منحرفة فاخرة! يا إلهي، وكأنني أسمعُ ابن زَمرَك يضربُني بتلكَ العبارةِ الأشبهِ بالعصا: "أرأيتَ، سعادتكَ، لقد أخبرتُكَ بذلك من قبل! لقد قلتُ إنَّ تصويرَ المخلوقاتِ الحَيّة ... خطيئةٌ لا تُغتَفَر".

ضحِكَ سِنَان وسيّدُه على تقليدِهِ لصوتِ كاتب السرّ السلطاني الصاخب.

وتابع لسان الدين وهو يهزّ رأسه: "هذا هو الثمنُ الذي سأضطَرُّ إلى دفعه. *ولكنَّ العصي والحجارة هي التي تكسر عظامي والشتائم لا تؤذيني* كما يقولون ... ولكنني سأعالجه بعصا أخرى على عبارة "براز القوارض" رغم أنني أعترف بأن الدواء الجديد يشبه على ما يبدو فضلاتِ الفئران".

أصغَوا جميعاً ولفترةٍ إلى صفيرِ الريح.

وأخيراً قال أبو عبد الله: "سامحني على بلاهتي، يا لسانَ الدين، ولكنّني ما زلتُ لا أرى الخطورة الكامنة في خدعة النافورة تلك. أقصدُ أنهُ كان من الممكن أن يشتعلَ هذا الدواء البرازيّ القوارضي، وكان من الممكن أن يكون هناك بوووم ما، وكان من الممكن أن تحترق سطحياً لحية السلطان المباركة، حفظها الله، وصاحبها أيضاً، وهذا كلّ شيء".

جالَ الوزيرُ بناظرَيهِ فوقَ السهل: "ألم تسمع، يا عزيزي أبا عبد الله، صوتَ الرعد الذي تردّد صداه فوق المدينة عصرَ أمس؟"

"لقد سمعتُهُ، وعلى ذِكر الرعد. كان الصوتُ دويّاً ضخماً مفاجئاً. بدا الأمر وكأنها بوادر الموسم الجديد، ولكنني تذكّرتُ بعد التمعّن في الأمر أن بوادر موسمٍ مشابهة قد دَوَّت قبل نحو أسبوع، هل تتذكّر؟ رغم أن هذا

الدويّ لا يشبِهُهُ بالحجم. لقد أعادنا الصوت إلى تلك الليلة في رَبَض البَيَازِين، أليس كذلك، يا سِنَان، ليلةَ مقتلِ الخيميائي".

قال لسان الدين: "طيِّب، كان هذا صوت (خدعة النافورة). فقد جعلتُهُم يجمعونَ الدواء من قاعدة النافورة ويأخذونه إلى ما وراء أسوار المدينة. لا بدّ من القول إن شحنة المسحوق، أو الحبوب، كانت معبّأةً بإحكامٍ في بطانة نحاسية داخلية حُفِرَت فيها الأخاديد بعناية، بحيث تتفتّت إلى قطع حادَّة متطايرة بقوَّة *الاحتراق شديد السرعة* ...".

ظهرتِ الحَيرةُ على أبي عبد الله.

أوضحَ الوزير: "إنها المصطلح الفنّي لكلمة "بوووم" التي استخدمتَها، هل تذكر؟ ولكن، لا، فعبارة الاحتراق شديد السرعة لا تكفي لوصفِ القوى الرهيبةِ التي انطلقت منها. قد يكون الأفضل استعمال مصطلح "الاندفاع"، أو "الانفجار" على وجه الدقّة، إذا ما أردنا استعمالَ الكلمةِ المناسبة. أصدرتُ أوامرَ صارمة للمماليك الذين أشعلوا الفتيل بالتراجع إلى مسافة خمسين خطوة والاحتماء. ولكنَّ أحدَهُم قُتلَ للأسف، وأُصيبَ آخر بجروحٍ خطيرةٍ بسببِ شظايا النحاس المتطايرة". عَبَسَ وهزَّ فكَّيهِ "وقُطِّعِ القتيلُ إلى أشلاء".

نظر سِنَان إلى سيّدِه.

تابعَ لسانُ الدين: "أمّا بالنسبةِ إلى تلكَ النسخةِ الغريبةِ من الدواء، فقد تمَّ تشكيلها عمداً كما أدركتُ الآن في حبيبات، فقُوَّتها غير طبيعية أبداً، بل تتجاوز المعتادَ بكثير، والله أعلمُ بالسبب. لقد جرّبنا كمّيةً صغيرةً كذخيرةٍ في واحدةٍ من تلك الأسلحة النارية المحمولةِ باليد، وانفجَرَتِ السبطانةُ كقشرةِ الموز. وقُتِلَ مملوكٍ آخر".

فَتَلَا سِنَان الأبيات: النارُ برقٌ قاتلٌ في ديمـــةٍ مرّت بها هَوناً رياحٌ صَرْصَرا/ها كلُّ ما تطحنهُ يغدو حبّةً إذ عاد في الأيّام غيماً ممطِرا"

قال الوزير بهدوء: "نعم. كان هذا هو اكتشافُ الخيميائيّ الجهنّمي ... في ذلك القصر الجديد المزدحم، كان ليتسبَّبَ انفجارُ البطانةِ النحاسيّةِ، وكذلك الغلاف الرخامي للنافورة، في خسارةٍ مروِّعةٍ حقّاً في الأرواح" وهدأتِ الريحُ مجدّداً. تابع الوزيرُ بمرحٍ أكبر ملتفتاً إلى سِنَان: "بالمناسبة، لقد قرّرنا الحفاظ على نافورة السِّباع، وسوفَ نُعيدُها إلى استخدامها الصحيح، لأن الملحقات الهيدروليكية اللازمة جميعها موجودة بالفعل. وسوف تظلّ إلى الأبد شاهداً ملموساً على العناية الإلهية ... والتي تجلّت من خلالِكَ، يا سِنَان".

هزَّ سِنَان كتفَيه. وأظلمتِ السماءُ فجأةً عندما اجتاحت سحابةٌ شمسَ الصباحِ الخفيفة.

قال أبو عبد الله وهو ينظرُ إلى لسان الدين: "وهكذا، أنقَذَ غلامي البطلُ غرَناطَة من حربِ نافورةِ السلطان. لتَغرَقَ في حربِ ياقوتةِ السلطان".

"هذا ما يبدو عليه الأمر، *لقد ذهب الملوك إلى الحرب لأقلّ من ذلك* ... يبدو كما لو أن كلماتي كانت تحمل نبوءة حقيقية. سأكتشفُ المزيد بلا شكّ بعد صلاةِ الظُّهر، فلديَّ اجتماع خاصّ مع جلالته". ثمّ قالَ بصوتٍ منخفض: "فيما بيننا، لستُ متحمّساً لذلك اللقاء بتاتاً. لقد عرفتُهُ منذُ ولادتِهِ تقريباً، ولم أرَهُ على هذا النحوِ من الغضبِ يوماً كما بدا عندما قدّموا له الياقوتة".

"فهمتُ قصدَكَ. فأيّ شخصٍ رآه سوف يظنّ أن الصندوق كان يحتوي رَوثاً طازجاً، وليس حجراً كريماً ثميناً. وبصراحة، سوف يخطر ببالكَ على الفور أنهم قد حاولوا خداعَهُ، ووضعَ نسخةٍ مزيّفةٍ من الياقوتة في الصندوق".

نظر سِنَان إلى سيّده متفاجئاً.

قال الوزير: "الحقيقة ... لقد خطرَت هذه الفكرةُ في ذهني أيضاً. وعلى الرَّغم من جرأتِها، إلّا أنه يستحيلُ تصديقُ غباءِ أيِّ شخصٍ يزيِّف حجراً كريماً شهيراً مثل هذه الياقوتة. لأن مثل هذا الاستخفاف بشرفِ جلالتِهِ وذكائِهِ يمكنُ أن يشعلَ الحرب بالفعل .. نعم الحرب، الحرب الكريهة والشرِّيرة، هل عليها أن تأتي مجدّداً لتفجّرَ هذهِ الأرضَ المباركة؟" والتفتَ إلى أبي عبد الله، ووجههُ متلبّدٌ أكثرَ من السماء: "ربمّا ستكون مُغادرتُك الوشيكةُ لغَرنَاطَة قد جاءت في الوقت المناسب، يا صديقي".

****

خرجا من الممرّ المظلم للبَوَّابة الكبيرة لتنهال عليهما صرخاتٌ وهتافاتٌ مدوّيةٌ من تحيات الوداع. واستدارَ أبو عبد الله على سرجِهِ، ليردَّ لهم التحيّة بإيماءة جانبية. واستدار سِنَان أيضاً الذي كان يمشي بجانب البغل، فانطلقت في أثناء استدارتِهِ صيحات الفرح على طول الجدران وارتفاعها في موجةٍ من الأذرعِ المرفوعة، حتّى بدت الأسوار حيّةً بالأيادي الملوّحة والتصفيق.

صاح أبو عبد الله في وسط الهتافات: "استمتع بها، يا فتى، حتّى النهاية، فلن تشعرَ بأنّكَ محبوبٌ هكذا مرّة أخرى".

قال سِنَان: "انظر، يا سيّدي" وأشار إلى وجهٍ آخرَ معلَّق أعلى البَوَّابة. كانت الشمسُ تضيء لحيتَهُ البنيّة المحمرّة الأنيقة.

فردّ أبو عبد الله وهو يحدّق في الرأس المفصول عن جسد زيد صاحب الأشغال: "للأسف، لقد كنتُ أفضّلُ هذا الشابّ، بل أتمنّى في الحقيقة أن يكونَ رأسُ ذلك المتملّقِ اللزجِ ابن زَمرَك هناك على البَوَّابة بدلاً منه ... ولكن، هيهات" وشدَّ اللجامَ وقال: "لقد رأيتُ من الرؤوس ما يكفيني طيلة حياتي".

لاحقتهما الهتافات على طول الطريق وهما يسيرانِ أسفل الجدران. ولكن أفكارَ سِنَان كانت في مكانٍ آخر. وعندما دخلا في النهايةِ الشِّعب المشجّرَ الذي يفصِلُ القلعةَ عن جنّة العَريف، تحدّثَ سِنَان: "هل تذكرُ تلكَ الليلة الأولى ...؟"

"ليلة الصاعقة في البَيَازِين؟" فأومأ سِنَان برأسه. "طبعاً إذا ما كانت صاعقة أصلاً. لم أعد أعلم ما الذي ينبغي عليّ تصديقه بعد الآن، ماذا عن الياقوتة المزيّفة وربّما الرّعدُ المزيّف؟!".

"سيّدي، أعتقد أنني أعرفُ ما الذي حدث. هل تتذكّر ما قالَتهُ لبنى في ذلك الصباح في مجلس صاحبِ الليل؟"

كان المشهد بالنسبة إلى أبي عبد الله حَيَّاً وواضحاً ونابضاً بالحياة مثل صورةٍ مصغّرة في كتاب. ولكن الكلمات اختفت. "بالطبع لا أتذكّر، فدماغي مملوءٌ بثلثَي قرنٍ من القمامة. لماذا تظنّ أنني أعتمدُ عليكَ لتتذكّر الأشياءَ من أجلي؟"

لم يكن هناك للحظة سوى صوت الجدول الذي يمرّ عبر الأخدود، وصوتُ الرياح التي كوّنت كومةً من أوراق الأشجار الخريفية ثمّ طيّرَتها. "ما قالته، يا مولاي، هو أنها رأت وعاءً نحاسياً غريباً في مختبر الخيميائي. لقد ظنَّت حينَها أنه نوع جديد من المصابيح. ثمّ طلب منها إحضار فتيلٍ أطول ...".

فقاطعَهُ أبو عبد الله بهدوء: "نعم، تذكّرتُ: الليالي أصبحت أقصر، هذا ما قالَتهُ".

"صحيح، يا سيّدي. ثمّ قالت إنه قد أخبرها أنه سيذهب إلى كرمِهِ لبضعةِ أيّام ...".

"... للقيامِ بتجربة. لقد صنعَ واحدةً من تلكَ الأدوات. نعم، هذا

منطقي، ولكنَّ الذي حصلَ بعد ذلك أن الأداة نفسَها أو الوعاء نفسه قد تفجّر أو انفجرَ، أو مهما كانت العبارة التي استعملها لسان الدين ...".

" ... والنحاسُ تشظّى ...".

" ... ودخلت قطعة نحاسٍ حلقَ الفتى المسكين! نعم، الآن تذكّرتُ: لقد وجدتُ قطعةً نحاسيةً خشنةً قذرة عالقةً في جدارِ المختبر".

تابعا مسيرهما على مهلٍ صامتَين لفترة.

وأخيراً قالَ سِنَان: "ما لا أفهمُهُ، يا مولاي هو كيفَ أو لماذا اشتعلتِ الأداة التي صنَعَها الخيميائي".

"هذا ما أتساءل عنه أيضاً، يا بني. وأعتقدُ أننا لن نعرفَ الإجابةَ أبداً. لنفترض أن ذلك كان قضاء وقدراً من الله تعالى، أُنجِزَ على يدَي شخصٍ ما أو أشخاصٍ معيّنين مجهولين، أو ربّما من *الجنّ* في هذه الحالة".

وفكّر سِنَان فجأة متذكّراً الشبحَ الرماديَّ الذي انطلقَ من الشبّاكِ قبل الانفجار، شبح قطّة تُدعى جنّية. وانفتَحَ الطريقُ أمامهما على العراء. وكان على يسارهما وادي حدرُه الضيّق، وخلفهُ السهلُ المظلمُ تحتَ السماء القريبة.

غمغمَ أبو عبد الله: "يا لها من طريقةٍ للموت. أشبهَ بطعمِ جهنّم! وأولئك المماليك أيضاً ... كانوا الأوائل، يا سِنَان، كما تعلم، ولن يكونوا الأخيرين، بل ربّما لن تكونَ هناك نهايةٌ لذلك كلّه. لا أعتقدُ أن الخيميائي كان يعرفُ ما الذي استحضَرَه. الأمرُ أشبهُ بتلكَ القصّةِ القديمةِ عن قُمقمِ النحاس".

"القصَّة التي حكيتَها لي، يا مولاي، من حكاياتِ *ألفِ ليلةٍ وليلة*، عن الصيَّاد الذي أطلق *الجنّي* الشرّير؟"

"نعم، هي القصَّة نفسها، مع فارق أنني لا أعتقدُ أن هذا الشيطان قد يتمكَّن أحد من خِداعِه ليعودَ إلى قمقُمِه مرّة أخرى".

وتابعا سيرَهُما خلال صمت الظَّهيرةِ الكئيب، وكلاهما يفكّر في الليلِ وفي الشتاء القادم.

ولم يتبدّد حزنُهما سوى عندما انعطفا أخيراً إلى المسار الذي يؤدّي إلى عين الدمع وقصر الوزير، واستبدلاه بنوعٍ آخرَ من الحزن، واختلطتِ الظلمةُ بالنور مع تحوّلِ أفكارِ الرّجلَين نحو لبنى.

قال أبو عبد الله لسِنَان عندما سلّمَ اللجامَ لصبيٍّ عند بَوَّابة قصر الوزير: "اذهب أنتَ لتبشّرها بالخبر. فحرّيتُها هي هديتُكَ أنتَ لها في نهاية المطاف".

"وماذا عن الأخبارِ الأخرى، يا سيّدي؟ عن كيفيّة موتِ الخيميائي؟"

"وهذه أيضاً هدية أخرى تقَدّمُها لها. فقد تمنحُها معرفةُ الحقيقةِ بعضاً من السكينة".

****

فكّرَ أبو عبد الله وهما يركبان ويمشيان في الطريق الصاعدة بعد ذلك بوقت قصير: هذا غريب. فبمجرّدِ *أن عبرنا البَوَّابة* شعرتُ *أنها لم تكن موجودةً هناك*. ربّما تضعفُ الذاكرة مع تقدّمِ العمر، أمّا الحدسُ، فيستيقظ.

لقد شعر أنها لم تكن هناك؛ وعندما قالوا إنها قد "استعارت" قِدراً من الريحانِ من حديقةِ المطبخ، أدركَ على وجه اليقين أين ذَهَبَت.

وقد كان على حقّ. كانت هناك عند قبرِ عليّ الخيميائيّ في مقبرةِ البَيَازين. وضعتِ الريحانَ على القبرِ وأخذت تسقيهِ بعنايةٍ من قربةِ ماءٍ

صغيرة. انعكست أشعّةُ الشمسِ على الماء المنصبّ، ولكنَّ هذا الانصباب قد توقّف. فقد شعرت بحضورِهِما واستدارت باتِّجاههما.

"اذهب، يا فتى، هذه هداياكَ كما قلتُ لكَ".

وتراجع أبو عبد الله، وسار في الممراتِ بين المقابرِ المنخفضةِ مُطرقاً برأسه. لم يعرف كم من الوقت قضى ماشياً هناك، فالمقابرُ بِرَكٌ تتخلّلُ منحدراتِ الزّمن.

****

جلسا القُرفُصاء جنباً إلى جنبٍ صامتَين بلا أيّ كلمات، ينظرانِ إلى أسفل الوادي نحو السهل الممتدِّ، ذاهلَين عن كلِّ شيءٍ سوى البوصات القليلة التي تفصلُ جسدَيهما عن بعضهما البعض.

لفتَ انتباه سِنَان شيءٌ ما: كانت قطراتٌ من الماءِ تتلألأُ على أوراقِ الريحان. ثمّ أظلمت السماء مرّة أخرى وتلاشى الضوء، ودونَ أن يدركَ حتّى، أخذ يخبرُها ببطءٍ وهدوءٍ عن كيفيّة موتِ حبيبِها.

ولم تقل لبنى شيئاً عندما انتهى. وخيّمَ الصمتُ على المكان لم تتخلّلهُ سوى همهمة الريحِ في القبور.

وأخيراً التفتَ إليها ورأى أنها كانت تهتزُّ، لا، بل تومئ ببطءٍ شديدٍ، مغلقةً عينَيها فوق حجابِها. كما لو أنها كانت تعرفُ كلَّ شيءٍ طيلة الوقت. ثمّ التفتَت إليه وابتسمَت. كانت ابتسامةً خافتة كبزوغ الفجر، ولكنها تبقى ابتسامة هي البدر في الإشراق لولا حجابها ... تنهّدَ سِنَان من الداخل متذكّراً عبارةً من قصيدة قديمة، وتنهّد لأنه قد تخلّص من عبئه، وابتسم مجدّداً. ثمّ قال بسرعة كبيرة: "هناك المزيد"، وفجأةً وجدَ اللغة الصامتة لنظرتَيهما مقلقةً للغاية. اتّسعت عيناها. قال: "لا تقلقي، هي بشرى سارَّة".

وفاضتِ الكلماتُ الآن وهو يخبرها عن الأحداث التي حصلت في بهوِ السِّباع، وعن شهامةِ السلطان، وعن حريّتِها. وقال سِنَان عندما تلاشى فيضانُ كلماتِه: "ولن تصدّقي أبداً آخرَ عبارةٍ قالها لي السلطان، فقد قال: اليوم أنا عبدُكَ" ثمّ أطرقَ مبتسِماً وهزَّ رأسه متذكّراً الحدث، ثمّ نظر إلى لبنى.

كانت تحدّقُ إلى الأمام ذاهلة. وعندما تحدّثَت، بالكاد غطّى صوتُها على الريح. "ولكن، لماذا؟! لماذا أنا؟!".

فهزّ كتفَيه محتاراً.

سمع همساتِها تقول: "هدية الحرّية ... . كانتِ الشيءَ الوحيدَ الذي امتلكتَه حقّاً، وقد تخلّيتَ عنها".

ثمّ التفتت إليه مرّة أخرى، وسألت السؤال بعينَيها: لماذا؟

هي البدر في الإشراقِ لولا حجابها
وشمسُ الضحى لولا السِجافُ المخيّم

تحدّثت بصوتٍ عالٍ مجدّداً "لماذا، يا سِنَان؟! لماذا؟! حتّى أتمكّن من أن أكون .. معكَ؟"

التقطَ التعثّرَ في صوتِها، وتابعَ نظرتَها التي سقطَت على الريحان على القبر. لقد جفّت أوراقُ الريحان في هذا الهواء البارد الحادّ. وسمِعَ نفسَهُ يقول: "إن مولاي ... هو الذي سوف يتعيّن عليه ذلك اتّخاذ القرار".

نظرا إلى بعضهما البعض، وعادا مصدومَين مجدّداً إلى رحابِ الصمت، بسببِ صراع الولاء والحبّ. والشهوة أيضاً، كما أدرك كلاهما في اللحظة نفسها.

حوّلت لبنى نظرها بعيداً عنه.

وعندما استدارت أخيراً، كانت نارُ الفجرِ الشاحبةِ قد غادرت وجههَا. "هل تذكر أوّل مرّة كنّا فيها وحدَنا؟ هل تذكرُ ما قلناه؟ إنَّا غريبان ها هُنا..".

"... وكلّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ" وقد بدتِ الكلمات التي كانت مملوءةً بالعزاء يوماً جوفاءَ للغاية الآن.

قالت لبنى: "ربمّا هذا هو قدرنا أن نكون غريبَين. لا أكثر".

انزلقَت أصابعُها من أصابعه. لم يدرك كم أمضت من الوقت هناك. ولكنّهُ شعر بها الآن باردةً وناعمة، تمسحُ دمعةً عن خدِّه، ورأى ابتسامتَها مرّة أخرى، وشَعَرَ بتدفّقِ الزمنِ مجدّداً ليصبّ في نهر طفولته العظيم.

لم يكن قد اقترب إلى هذه الدرجة من أيّ شخص كان منذ ذلك الزمن البعيد في ماضيه وحتّى الآن.

****

عندما سمعَ أخيراً خطوةَ سِنَان الرقيقةِ تقتربُ على التراب، نظر أبو عبد الله إلى الأعلى وكانت لبنى ما تزال هناك عند قبر عليّ، تحدّقُ فيهما. كان وجهها المكشوف مشرقاً ربمّا بالدموع أو بالضوء، لم يستطع أن يتكهّنَ بدقَّة. رفَعَ يدَهُ وراحتُهُ باتِّجاهها، ولوّح بها في حركةٍ بين التحية والوداع.

عرَفَت لبنى معنى حركةِ يده، حتّى لو لم يعرفها أبو عبد الله نفسه. ووقفت هناكَ في مكانِها. بحثت للحظة طويلة ممتدّةٍ عن الكلمات، ثمّ صرخَت بصوتٍ قويّ وواضحٍ: "سيّدي، لقد ... تمنّيتُ أن أُعبِّرَ لكَ عن ...".

غطّت تلك النبرة الأجنبية الغريبة على صوتها ... ونظر إليها أبو عبد الله عبر تلك المسافة الطويلة الفاصلة بينهما. "لقد قُلتِها دون كلمات". وسمع صوتَهُ وهو يقولها كما لو كان صوت شخصٍ آخر.

"إذن، يا سيّدي ... حفظكَ الله ... حفظكما الله كلاكما".

فقد الصوت الذي يمكن أن يردّ به، لذلك لوّحَ لها لمرّة واحدة عبر القبور، واستدار.

****

حملهما الطريق المتصاعد تحتهما إلى هناك إلى أعلى السهل. وبدا فَرَسُ سِنَان الأشهب وفَرَس أبي عبد الله الكُميتِ الكستنائي يتوقّفان في كثير من الأحيان ويستنشقان الهواء الرقيق. لا تزال الغيوم تتعالى فوق ثنايا التلال وطيّاتِها، تتلألأ في الرياح العاتية، الرياح التي تعالى في صفيرِها صوتٌ ما غريب النبرة يدفعُهما للعودة. ولكنهما عرفا أنه كان عليهما المغادرة، والارتحال في الحال.

سوف يقطعانِ نصفَ مرحلة بما تبقّى من النهار. ولكنهما سوف يصلان إلى الحَمّة غداً ثمّ إلى الممرّ الذي ينزل من المرتفعات. وبعد مسيرةِ يومٍ آخرَ سوف يصلان إلى الساحل. ثمّ إلى أين؟

بقيَ سيّدُهُ متكتّماً بشأن هذه المسألة، بل بشأن الأمور جميعها في الحقيقة. لم يعرفه سِنَان بهذا الصمتِ أبداً في حياته: في البداية، حتّى ضجّةُ الحيويّةِ غير المسموعة التي بدا أنها تنبعث من الرجل العجوز دائماً، كانت صامتة. كان الأمر أشبه بموت أبي عبد الله في نوعٍ من الموت الأوّلي.

لم تندّ عنه سوى بعض التعليماتِ القصيرة في أثناء استعدادِهِما للرحلة. ولكن، عندما غادرا بَوَّابة المدينة، وأبلغ سِنَان عن محادثته الوداعية مع الوزير، بدأ سيّده بإظهار علاماتٍ حقيقيةٍ على حيويّته. أومأ أبو عبد الله برأسه مشجّعاً، عندما علم أن هناك خططاً جاريةً على قدمٍ وساقٍ لمنح لبنى وظيفةً في القصر، لتعمل كنوع من المعلّمةِ الأدبية لنساء أسرة السلطان، حتّى إنه تمتمَ بشيءٍ بدا وكأنه "أيُّها العجوز التافه الماكر لسان

الدين!" ومنذ ذلك الحين أصبح صمتُهُ استرخاء، أو استقالة على الأقلّ.

وأخيراً توقّفَ أبو عبد الله الآن عند قمّة التلّ المنحدرة فوق السهل، واستدار تماماً ليُلقي النظرةَ الأخيرةَ على غرَناطَة وقال: "هذه هي مشكلة السفرِ، يا بني ... أتعرف ماذا يقال؟ *السفر سَقَر*. ولكن، ليست القدمان هما المتألِّمَتَين، بل القلوب الملتهبة. إنه الوداع".

نظر كلاهما إلى ذلك المشهد العظيم، يعلوهُ قصر الحمراء مثل سفينة، وبرجُ المراقبة مقدّمتُها. تابع أبو عبد الله: "أنتَ تعلم أنني لطالما أردتُ امتلاكَ امرأة. لا أقصد امتلاكَ جارية. يا إلهي، لقد فعلتُ ذلك بما فيه الكفاية. أعني، لطالما أردتُ أن أمتلِكَ قلبَ امرأةٍ ما وروحَها، وليس جسدَها فقط".

قال سِنَان: "أعلم، يا سيّدي. ولكن، أَلَا تعتقد أن ما تعنيه حقّاً هو أنكَ *تريدها* أن *تتملّكَكَ*؟"

التفت إليه أبو عبد الله: "ومنذ متى وأنتَ تعرفُ أيَّ شيءٍ عن التملّك. فلستَ سوى عبد مملوك؟!"

عَبسَ سِنَان في وجهه.

قال أبو عبد الله بضحكةٍ مريرة: "لا تُظهِر هذا الاستياء كلّه، فأنتَ الشخص الذي رفض حرّيتَهُ ... وجعلتَنا نفقدُ جرّة الذهب" وشخَرَتِ الفَرَسُ الكُميتُ الكستنائيّة "ولكنَّ العجوز الطيّب لسان الدين قد أعطانا على الأقلّ هديةَ الوداع تلك. قد تكفينا للحفاظ على جسدَينا وروحَينا معاً لفترة. ولكن، ماذا عندما تنتهي الهدية؟" وتفرّسَ في سِنَان من رأسِهِ إلى أخمصِ قدمَيه "نعم، لا بدّ أن يرتفع سعر العبيد السود ارتفاعاً جيّداً مع انتشارِ أخبارِ بطولاتكَ في الخارج. ولا تنسَ أنكَ أنتَ البطل! فهذا يعني أنكَ ستساوي ديناراً أو دينارَين، يا بني، حتّى لو بقيتَ مرتبطاً بخصيتَيكَ".

بذلَ سِنَان قصارى جهده ليبدو مستاءً مرّة أخرى.

هزّ أبو عبد الله رأسه "ولكنَّ شيئاً ما يخبرني أنني سأظلّ دائماً عالقاً معكَ. أنتَ والطريق والترحال".

جلسا هناك صامتَين والفَرَسَان يرتعشان تحتهما يتوقان للانطلاق. شعرَ أبو عبد الله بالحَكَّة القديمة أيضاً. ولكنَّ سِنَاناً تحدَّث.

"لقد كنتُ أفكّرُ، يا سيّدي ... بموضوع المال. أقصدُ هذه النسخةُ الجديدةُ من الدواء ... مَن يمتلكُها سوف يتمتّعُ بقوّةٍ لا يمكن تصوّرُها. ويمكن لأيّ شخصٍ لديه السرّ ليبيعه أن يجني جِراراً من الذهب".

قال أبو عبد الله بهدوء، ولكن، بحزم وقوّةٍ جعلا سِنَاناً يرتجف: "*وهذا هو الطريق الذي لن أسلكه أبداً*. تأكّد من أن السرّ سوف ينتشر. لا يوجد دواءٌ شاف أو تِرياق للدواء. إنه شيء لا يمكنُ إيقافه، ولا الشفاء منه، مثل الموت والوباء. ولكنني لن أكون الشخصَ الذي ينشُره. ولا أنتَ، يا سِنَان. الخيار واضح: الذهاب إلى الجنَّة فقيراً، أو الذهاب إلى جهنّم غنياً".

وأسكتتهما الفكرة.

ثمّ قال أبو عبد الله فجأة: "يا إلهي، يجب أن نغادر. احفظ جيّداً في ذاكرتكَ هذا الأفقَ الأجملَ من نوعِهِ في كلّ أرض الله. أعتقدُ أنه كان بإمكاني أن أكون وزيراً هناك ... لذلك أظنّ أنني قد أسمح لنفسي بالتنهيدة الأخيرة". وتأوّهَ تأوُّهاً طويلاً وعميقاً.

قال سِنَان بلطف: "ولكن، يا سيّدي، إذا جاز لي أن أكون صريحاً، لا أرى أنكَ قد تتناسب مع قصر الحمراء. فأنتَ أيضاً ... روحٌ مستقلَّة. وهل يمكنكَ العملُ بصدقٍ مع أمثال كاتب السرّ السلطاني ذاك؟

"ذلك الغول ابن زَمرَك وخَلِّهِ، وبَصلِهِ وبوّاحته أو روّاحته أو مهما كان

الاسم اللعين الذي يطلقه عليها. نعم، أنتَ محقّ، يا سِنَان. وهناك شيء ما بخصوص ذلك المكان ... فمع جماله كلِّه وروعته كلّها، هناك شيء من الظلام فيه. لا يمكنكَ رؤية هذا الظلام بالضبط أو تحديده بدقَّة. ولكنها أكثر ظلمة قد تشعر بها في حياتكَ".

"وسوف يجتمع هذا الظلام، يا مولاي، مع الحربِ القادمة".

"حرب *ياقوتة السلطان*. نعم، يمكنني تصوّر ذلك الآن. المماليكُ يركبون خيولهم للقتال وليموتوا ... وفرسانُ دون بِدرو ينزلون إلى هناك إلى السهل ... والكثير من الحصار والتجويع والبؤس والموت ... وذلك كلّه من أجل حجرٍ أحمر غبيّ".

حدّقَ سِنَان في السهل وقال: "ولكن، إذا ما تمكّنت غَرنَاطَة من استخدامِ الصيغة الجديدة من الدواء، يا سيّدي، ألَا يمكّنها هذا من صناعة أسلحة نارية أقوى وصناعة تلك الأدوات المتفجّرة؟ ألن يكون لها اليد العليا في الحرب؟"

"بالتأكيد، يا سِنَان ... لمدّة خمس دقائق، ولكن، بعدها سوف ينكشف سرّ الدواء الجديد كما قلتُ لكَ، مهما حاولوا جاهدين إخفاءه، وسوف تنتشر الحرب حول هذه الأرض المباركة مثل الطاعون". وشدّت أصابع أبي عبد الله على لجام فَرَسه وقال: "لننطلق".

ولكن، قبل أن يبتعد، انتفخت فتحات أنفَي الحصانَين في الاتِّجاه الذي أتوا منه، وشنّفَت آذانها. ثمّ سمعها سِنَان، وأخيراً أبو عبد الله: كانت ضربات حوافر قادمة من الطريق البعيد نحوهما. تبادلا النظرات، ثمّ استدارا بينما ظهرَ راكبٌ وحيدٌ قرب المنعطف، مع ابتسامة على وجهه وفَرَسهُ تُرغِي وتُزبِد.

"إنه أمين سرّ الوزير، يا سيّدي. هل تعتقد أن ..؟"

"... لسان الدين قد غيّرَ رأيَهُ بشأن ..." وأوقف أبو عبد الله نفسه، ونطق بالكلمة السِّحرية "وزارتي".

صاح الموظّف عندما وصلَ بقربهما: "الحمد لله أنني لحقتُ بكَ، يا سيّدي. لقد جئتُكَ برسالةٍ عاجلة من سعادة الوزير"، وكبَحَ جِماحَ حصانه وتوقّفَ بجانب حصان أبي عبد الله وسلّمهُ ورقةً بندقيّة ملفوفةً بخيوطِها الثلاثية مع ختمِها الأحمر الثقيل وأضاف "بعد إذنكَ، يا سيّدي"، ثمّ استدار ليقفل راجعاً.

قال أبو عبد الله محتاراً: "مهلاً. ألَا يتوقّعُ سعادتُه ردّاً فوريّاً؟".

"إنه يعرفُ الردّ على ما يبدو، يا سيّدي. سامحني على عدم اتِّباعي الإجراءات الرسمية. ولكنني تلقّيتُ تعليماتٍ صارمةٍ بإعطائِكَ الرسالة والعودة على الفور. ليحفظكم الله" وانطلق على حصانه مهرولاً عائداً إلى أسفل التلّ.

حدّقَ أبو عبد الله بعينَينِ واسعتَين في الرسالة كما لو أن اسمه المكتوبَ عليها بخطّ لسان الدين الأنيق مع الألقاب الشرفية، يعودُ إلى شخصٍ آخر. ثمّ مرَّرَها إلى سِنَان. "هيَّا، يا فتى، اقرأ!"

فتح سِنَان الختم، وحرَّرَ الأربطة، وفتَحَ الورقة وقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم

تحيَّاتي الطيّبة، وبعد:

صديقي الحبيب، أنا على ثقةٍ من أنكَ ستغفرُ لي عَجَلتي، وما ترتّبَ على ذلك من الافتقار إلى الشكليات والبلاغة المطلوبة، ولكن، لديّ بشرى سارَّة لدرجة أن الاحتفاظ بها لنفسي قد

يعرّضني للانفجار من الفرح ...

رفع سِنَان رأسَهَ. كان أبو عبد الله يبتسم ويومئ برأسه بقوّة. "هيًّا! أَكمِل، أَكمِل".

إن طبيعة الأخبار، كما سترى، تحتّمُ ألّا أشارِكَها مع أحدٍ في سلطنة غَرنَاطَة المحروسة ...

عبَسَ سِنَان ورفع رأسه مجدّداً. كان سيّدَهُ قد رفع أحد حاجبَيه.

وكلّي ثقة أنه بعد مشاركة هذه الأخبار معكَ أنكَ لن تخبر أحداً بها.

أكتبُ إليكَ مباشرة بعد لقائي مع سلطاننا الحبيب، والذي أكرمني بالآتي، لا سيّما بعد نجاته من الموت الأحمر ...

"سيّدي، يقصد بـالموت الأحمر ذلك العنف ..."

"أعلم، أعلم، يا سِنَان. كفاكَ مقاطعة لنفسكَ".

... بعد النجاة من الموت الأحمر بفضل الإرادة الإلهية التي تجلّت من خلال عبدكَ اللامع، وعلى الرَّغم من أنه لم يكن بعد بحوزته الياقوتة العظمى التي يُفترَض أنها ملعونة، إلّا أن حكمة جلالته المستنيرة قد دفعَتهُ إلى إعادة النظر في الواقع المحتمل للعنة المفترَضة المرتبطة بها. في ظلّ حقيقة أن الثلاثة الذين امتلكوا الياقوتة منذ وصولها إلى غَرنَاطَة، أَلَا وهم والده السلطان يُوسُف الشهيد الراحل، وأخوه الضالّ الذي أطلقَ على نفسه "السلطان إسماعيل"، وابن عمّه الملعون الذي أُسقط من الذاكرة والمعروف بلقب البرميخو، كانوا قد

ماتوا جميعاً ميتات دموية حمراء للغاية، في أثناء امتلاكهم للياقوتة المذكورة، وفي لحظة من المنطق الحكيم والتي تليق بالفيلسوف العظيم أرسطو ومن خلال لحظة إلهام نادرة تُمنَحُ للشعراء فقط، بل للأنبياء ...

رفع سِنَان رأسه. وكان فم سيّده لا يزال يفترّ عن ابتسامة، ولكنها بدت أنها لا تنتمي للقناع الذي شكَّلَته بقيّة ملامح وجهه. تمتم أبو عبد الله كما لو كان نصف مشلول: "هيَّا، يا فتى، ادخل في صلب الموضوع".

قرّر جلالته تقديم الياقوتة الحمراء العظيمة، رسمياً وعلى نحو نهائي، للطاغية دون بِدرو، على أمل تعزيز العلاقات بين دولتَينا الجارتَين، وفي حال كان هناك أيّ أساس للحقيقة في لعنة الياقوتة المزعومة، فقد كان واثقاً بأن هذه اللعنة ستضرّ الطاغية الكافر دون بِدرو، وأيّ من هذين النتيجتَين ينبغي أن يكون لها تأثير إيجابي على سلطنة غَرنَاطَة المباركة على وجه الخصوص وعلى المسلمين عموماً.

وفي الختام: أذكّركَ مجدّداً، أيُّها الصديق والأخ العزيز الحبيب ألَّا تخبر أحداً بهذا الخبر السارّ.

أتمنّى أن يحفظكَ الله دائماً وأن يسهّل طريقكَ.

والسلام.

نظر سِنَان بحذرٍ إلى سيِّدِه. ولكنّ قناعَ أبي عبد الله تخفّفَ ليتحوّلَ إلى ابتسامةٍ خفيفةٍ، وكان الرجل العجوز يهزّ رأسه ببطء ويطرفُ بعينَيه. تنحنَحَ سِنَان: "سيّدي، ماذا أفعل بها؟"

"بماذا؟"

"بالرسالة، يا سيّدي".

"حسناً، كما يعرف كلّ كاتب سرّ محتمل، هناك طريقة آمنة واحدة فقط للتخلّص من أيّ وثيقة سرّية". فنظر إليه سِنَان حائراً.

"ابتَلِعها، أيُّها الأحمق!"

حدّقَ سِنَان في الورقة السميكة القشيبة في يده "ولكن ... يا سيّدي".

"هيَّا بحقّ السماء، مَزِّقها وانسَ أنكَ قد قرأتَها يوماً".

ألقيا النظرة الأخيرة على غَرنَاطَة بينما كانت الكلمات تتطاير في مهبِّ الريح، ثمّ أدارا رأسَي خيلهِما، وانطلقا في الرحلة.

الخاتمة

تكوّنت بذرةُ هذه الحكايةِ من قراءَتي الأولى منذ سنواتٍ عديدةٍ لكتابِ رحلةِ أبي عبد الله ابن بَطُّوطَة "تُحفة النُّظَّار في غرائبِ الأَمصار وعجائب الأسفار". فقد التقى أبو عبد الله عام 1353 في بلدةٍ ما على نهرِ النيجر تقعُ بين تمْبُكْتُو وغاو خلالَ آخر رحلةٍ مسجَّلةٍ لهُ إلى غرب أفريقيا، بقائدٍ رفيعِ المستوى من إمبراطورية مالي. "*ودخلَ غلامٌ خماسي فدعاه وقال لي: هذا ضيافتُكَ، واحفظه لئلَّا يفرّ... والغلام الذي أعطانيه باقٍ عندي إلى الآن*". وتحوّلَ هذا الغلام مع مرورِ السنين في مخيّلتي إلى سِنَان. لقد أدركتُ أنّهُ لا بدّ أنَّ لديهِ قصّةً أو قصّتَين ليرويهما.

وقرّرتُ في أثناء إقامتي في ظروفٍ مختلفةٍ في النيجر (تحتَ الإقامةِ الجبريّة في فندق وبيت دعارة في مدينة سيغيري الغينية، قبل الانقلاب العسكري في عام 2008 مباشرة) إلقاء عصى التَّرحَال، على حَدّ تعبير أبي عبد الله، إذا ما عدتُ إلى بلادي وأهلي، وأن أروي حكايات سِنَان.

كان أبو عبد الله في تلك الفترة رفيقي غير المرئي في السفر، والذي بقيَ حاضراً على الدوام لأكثرَ من عقدٍ من الزمن، حيث كنتُ أتتبّعُ خطواتِهِ عبرَ كتابِهِ وعبر ثلاث قارّات، وعبرَ الأراضي العديدة التي زارَها. تُشكِّلُ كُتُبي الخاصّة عن هذه الرحلات ثلاثية ابن بَطُّوطَة (رحلتي مع ابن طَنْجَة، صالة الألف عمود، الوصول إلى اليابسة). وأُغرمتُ خلال هذه الفترة بالمغربي العجوز وخصله المتنوّعة، وكنتُ أكرهُ أن أودّعَهُ وأتركَهُ. الروايةُ الوحيدةُ المتوفّرةُ لدينا عن وفاتِهِ روايةٌ غامضة "لقد عاشَ حتّى عام 770 للهجرة

[1368-1369] وتُوفيِّ وهو يشغلُ منصبَ القاضي في مدينة ما هنا أو هناك" لدرجةِ أنني بدأتُ أتساءلُ ماذا لو كان لديهِ حياةٌ أخرى سرّيةٌ خارج قبره المجهول؟! لذلك جعلتُهُ يشدُّ الرِّحَالَ وينطلقُ في رحلتِهِ مرّة أخرى، ولكن، هذه المرَّة مع سِنَان.

ما يدلّ على العلاقة بين أبي عبد الله ولسان الدين بن الخطيب، وزير غَرنَاطَة في عهدِ السلطان محمّد الخامس هي المراسلاتُ المتبقّيةُ بين أيدينا فيما بينهما، وأيضاً من خلال صورةٍ قلميةٍ ساخرةٍ، ولكنها حنونةٍ وضعها الوزير لصديقه، وقد توقَّفتُ باكتشافها. كتبَ لسان الدين بن الخطيب، على الرغم من أنه يُذكَر دائماً باعتبارِهِ أديباً ومؤرّخاً، العملَ الرائدَ في الملاحظةِ التجريبيّة، والذي ذكرتُهُ في القصّة، حول نظرية العدوى. ربمّا جعلتُ ابن زَمرَك، كاتب السرّ السلطاني والشاعر والمتآمر، أكثر قبحاً ممّا كان عليه في الحياة الحقيقية، وأنا لا أعتذرُ لذِكراه (انظر أدناه). إن هروب البرميخو مع جواهرِ تاج غَرنَاطَة وقتلَهُ لاحقاً على يدِ دون بِدرو ملك قَشتَالَة موجودان في التواريخ العربية والإسبانية. كانت الياقوتة البدخشانية الكبيرة، أو الإسبنيل، والتي عُرفت فيما بعد باسم الذي حصل عليها، ياقوتة الأمير الأسود، من بين الجواهر التي استولى عليها دون بِدرو.

الشخصياتُ الأخرى من اختراعي، أو بالأحرى، فقد جمّعتُها وشكّلتُها من مجموعة شخصيات لأشخاص حقيقيّين يظهرون في التاريخ، وخاصّة في كتاب لسان الدين *"الإحاطة في أخبار غرنَاطَة"* معجمه الكبير لسيرة غَرنَاطَة، بخلاف إبراهيم بن زَرزَر، وهو أيضاً شخص واقعي امتدّت مسيرتُهُ التاريخية، مثل مسيرة اليهود المغامرين الآخرين في ذلك الزمن، بين مملكتَي غَرنَاطَة وقَشتَالَة.

فلُبنى، على سبيل المثال، تجميع بين جوانب من شخصيَّتَي صُبح، مَحظِيَّة خيميائي من القرن الرابع عشر وتلميذته التي تعلّمت الشِّعرَ على

يدَيه، وشاعرةٌ سابقة تُدعى نزهون، والتي استعرتُ منها لقاءَها الفعليّ مع الشاعر الأعمى من المدوَّر (وقد خفَّفتُ من حدّة جرأتِها لتتلاءم مع ذائقة القرَّاء المعاصرين المهذّبين).

رسمتُ خلفيّتي التاريخية بأمانة، كما تظهر الأحداث اللاحقة. فأخيراً، أُطيحَ بالدون بِدرو وقُتِلَ على يد أخيه غير الشرعي، هنري أمير ترستامرا، في غضون خمسة أشهر من نهاية قصَّتي. وبعد ذلك بعامَين، كانت مكائد ابن زَمرَك هي التي أدّت إلى نفي لسان الدين للمرَّة الثانية إلى المغرب، ثمّ أدّت في نهاية المطاف في عام 1374 إلى الحكم بخنقه بتهمة الزندقة. وخلفه ابن زَمرَك الذي يُقال إنَّهُ كان على رأس فرقة إعدامه في منصب وزير غرَناطَة. أمّا بالنسبة إلى الدواء، كما كان يُطلَق عليه غالباً في النصوصِ العربية لتلك الفترة، فإن عملية "التحبيب" التي تجعله أكثر قوَّة ذُكرت لأوّل مرّة كتابياً في أوائل القرن الخامس عشر. يسمح التحبيب للثلج الصيني (ملح البارود) بالذوبان جزئياً، ونتيجة لذلك، يقوم بتغطية المسامّ الدقيقة الداخلية للفحم على نحوٍ أكثرَ دقّةٍ من الخلط الميكانيكي وحده. لقد أدّى ذلك إلى تطويرِ أسلحةٍ صغيرةٍ فعّالة حقَّاً، وأحدَثَ ثورةً في تِقنِيَّة المدفعية، وسمحَ باستغلالِ البارود كمادّة متفجّرة، وليس مجرّد مادّة دافعة. لا يُعرَفُ مَن اكتشف عملية التحبيب. ربّما كانت قطّة عليّ ولبنى أو ربّما أيّ شخصٍ آخر، وكما قال نوفاليس في عبارتِهِ الشهيرة، فإن الروايات تنشأُ من قصورِ التاريخ وفجواتِه.

أمّا ياقوتةُ الأمير الأسود، فبعد مغامرات أخرى في معركتَي أجينكور وبوسورث في القرن الخامس عشر وبيعها في ظلّ الكومنولث في القرن السابع عشر، فهي الآن في برج لندن، موضوعةً على تاج الدولة الإمبراطوري للمملكة المتَّحدة.

أخيراً، فيما يتعلّق بالشِّعر، قد تبدو غَرنَاطَة في القرن الرابع عشر في

هذه الحكاية بمثابة زمان ومكان شِعريَّين على نحو خاصّ. كان معظم المتحدّثين باللغة العربية في الحقيقة مفتونين بالشّعر، في كلّ مكان وزمان. قال أبو تمّام أحد أساتذة الشِّعر:

وَلَو كانَ يَفنَى الشِّعرُ أَفناهُ ما قَرَت
حِياضُكَ مِنهُ في العُصُورِ الذَّواهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوبُ العُقولِ إِذا اِنجَلَت
سَحائِبُ مِنهُ أُعقِبَتْ بِسَحائِبِ

عاش أبو تمَّام في القرن التاسع. ولا تزال السحائب تتعاقب حتّى اليوم، وسوف تظلّ كذلك دائماً.

كان المغرب وغَرناطَة في القرن الرابع عشر مشبَعَين بالقصائد والشِّعر على نحو خاصّ. وحتّى لو أنَّ مخزونَ الإلهامِ الشِّعريِّ أصبحَ راكداً بعض الشيء، كما ادّعى النقَّادُ اللاحقون، فإنَّ التعطّشَ للشِّعر لم يكن ليرتوي. استخدم ابن عمّ السلطان محمّد الخامس، أبو الوليد إسماعيل، استعارة أخرى لوصف الهَوَس الشِّعري في ذلك العصر. في مختاراته الشِّعرية المعاصرة التي جاءت بعنوان خلَّاب: نثيرُ الجُمان في شِعرِ من نَظَمَني وإياهُ الزمان وكَتَب الأمير الذي كان مهتماً بالشِّعر الغنائي أن الشَّعرَ: "*.. بلغ عند ذوي الألباب المنزلة الرفيعة وسَنِيّ المحلّ، وصار يعتَلِقُ بها اعتلاقَ الحِرباء بالأعواد*" إنها صورةٌ غريبةٌ، ولكنّها مناسِبة تماماً. فقد جاء الشِّعر بكلِّ لونٍ يمكنُ تخيّلهُ وَفْقَاً للمكان مثل الحِرباء. ومعظمها، كما يقول النقّاد، كانت عادية إلى حدّ ما، ولكنها يمكن أن تأخذ في بعض الأحيان ظلالاً ممتعة من المعنى. وفي حالات نادرة، سلّط الشِّعر الضوء على العبقرية، وخرجَ بألوانٍ لا يمكنُ تصوُّرها، متألّقةً بالحقيقةِ التي لا يمكنُ التعبيرُ عنها بأيّ كلماتٍ أو طُرُقٍ أخرى.

فهرس الكتاب

تيم ماكنتوش-سميث: رحالة وكاتب بريطاني ولد في مقاطعة لينكولنشاير في شرق إنجلترا عام1961، ودرس في أكسفورد كلاسيكيات الأدب الإغريقي والروماني، ثم قادته دراساته وشغفه باللغة العربية وبالرحالة الأشهر في العالم الإسلامي (ابن بطوطة) إلى اليمن.

أصدر في عام 1997 كتابه عن اليمن «رحلة المتيّم المهووس في بلاد القاموس» ثم أخذ يتتبّع رحلات ابن بطوطة لينتج عمله الضخم ثلاثية ابن بطوطة (رحلتي مع ابن طنجة، صالة الألف عمود، الوصول إلى اليابسة)، وصدر لماكنتوش-سميث مؤخراً كتاب «العرب: ثلاثة آلاف عام من تاريخ الشعوب والقبائل والإمبراطوريات».

غادر ماكنتوش- سميث صنعاء على مضض، بعد أن قضى فيها ردحاً طويلاً من الزمن ليستقر اليوم في الإمارات متابعاً كتابة أبحاثه ومؤلفاته في جامعة نيويورك -أبوظبي.

عماد الأحمد، شاعر ومترجم وكاتب صحافي سوري ولد عام 1984. يحمل إجازة في الأدب الإنكليزي، وماجستير في دراسات الشرق الأوسط من الجامعة الكاثوليكية في ميلانو بإيطاليا.

صدر له العديد من الترجمات عن الإنكليزية منها: جورج أورويل: الأعمال الشعرية الكاملة» (2018) «ترومبيت» لجاكي كاي (2016)، «جرام» لليان إللول (2015)، وعن المتوسط، «القبلنة: هل الحرب على الأبواب؟» لكورت ديبوف (2021) ، «المينوتور العالمي» ليانيس فاروفاكيس (2016)، «هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟» لحميد دباشي (2016)، مقيم في أبوظبي.

من الرحلة:

... رأى بِدرو يسحب الحجر من الكيس الذي يقطرُ دماً ويقلّبه تحت زرقة السماء: تقطّرَ الحجرُ دماً قِرمزيّاً، أكثر احمراراً من أيّ شيء آخر في الخليقة. أراد فتحَ فمِهِ ليُحذّرَهُ من أنه حجرٌ ملعون...

... عشقَتهُ بشدَّة تلك الفتاة المَسبيَّة من سفحِ الجبل. ولكنَّ هذا الحبَّ الشديد اكتنفهُ الحزن، الحزنُ لأنها لم تمنحه أطفالاً. وظلّلهما ذلك الحزن القاتم الذي سَكَنَ أكثر الجواري سعادة...

...لقد شربَها عليّ، شَربَ مرآها وصوتَها، بعطشٍ كان يعلمُ أنَّه لن يشبعَ أبداً. لبنى البيضاء كاللبن. وكان هذا نصفها فقط...

...كرّس أبو عبد الله ثلاثين عاماً لرؤية بلادٍ غريبةٍ، ومشاهدة عجائبِ الخلق وغرائبه، وطلبَ فضلَ السلاطين وبركاتِ الأولياء، من أقصى غرب بلاد السودان إلى الرؤوس الشرقية الأقصى للصين...

المملكة المغربية
وزارة الثقافة
والشباب والرياضة
الناطق الرسمي باسم الحكومة
قطاع الثقافة

منشورات المتوسط

هذا كتاب سَرد روائي يتمِّم عبر عمل المخيّلة فصلاً من فصول حياة الرَّحَّالة العربي الأشهر ابن بطُوطة، ينطلق هذه المرّة مع خادمه سنان، في رحلةٍ إلى بلاط دولة بني نصر في غَرْنَاطَة للِقاء صديقه القديم لسان الدِّين بن الخطيب، ويلتقيان بابن زَمْرَك، ويحاولان مع لسان الدِّين حلّ لغز عصبة السباع.

في رَبَض البَيَازِيْن الخلّاب يعمل عليّ الخيميائي في مختبره، وتزيِّن حياتَه قَينتُه نظَّامةُ الشِّعر لبنى، التي برّت شعراء غَرنَاطَة، وذهبتْ أبياتُها مثلاً. ومن قصر المُورَّق في إشبيلية، يرسلُ دون بدرو ملك قَشْتَالَة طبيبه وكاتم سرّه إبراهيم بن زرزر في سفارة خطيرة إلى قصر الحمراء. بدورها، لبنى التي كانت ماريا، وحميد الذي كان خايمي، يعيشان كجارية ومملوكٍ في غَرنَاطَة، ويتلاقى مصيرهما أخيراً بعد فوات الأوان.

تتقاطع رحلة الحجر الكريم مع عصبة السباع، وأخويَّة الصامتين، وكريستوبال الصائغ، وسليمان الإشبيلي، وهنري تراستامرا الزنويّ، وآخر أعضاء سلالة بيت زيري والسلطان محمّد الخامس ملك غَرنَاطَة.

تُكافئ جائزة ابن بطُّوطة في هذا العمل: الترجمة العربية البديعة، لمترجم حاذق، والخيال الروائي المغامر لكاتب مُولَع بالثقافة العربية، ويُعتبر اليوم من أساطين أدب الرحلة في الغرب.

ISBN 979-12-5591-060-2



المتوسط